مُونترلانْ

المجْذومَات





النص كاملاً

للمؤلف
في سلسلة ماريان

- الصبايا
- رأفة بالنساء
- شيطان الخير
- المجذومات
- الملكة الميتة

قيد الاعداد

- سيد سانتياغو
- بور رويال

مارياني

رَوائِعُ الأَدَبِ وَالفِكرِ مَنقُولَةً إِلى العَربيَّة

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204121 F
Adresse télégraphique :
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206753 B R.C. Paris

LES EDITIONS GALLIMARD
ont cédé par contrat en date du
4 Novembre 1982 aux EDITIONS OUEIDAT
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"
les droits exclusifs de traduction,
publication et diffusion en langue arabe
dans le monde entier de l'ouvrage

Henry de Montherlant : LES LEPREUSES
quatrième volume d'une série de quatre
intitulée LES JEUNES FILLES

الطبعة الأولى ١٩٨٧

مُونترلان

المجْذومَات

ترجمة وتعليق
جُورج مَصْروعَة

عويدات

هذا الكتاب هو الحلقة الرابعة والأخيرة من سلسلة عنوانها «الصبايا» ويجب أن تقرأ هذه السلسلة على الترتيب التالي:

١ – الصبايا .

٢ – رأفة بالنساء

٣ – شيطان الخير

٤ – المجذومات

الجزء الاول

١

لو لم يكن الاموات في العالم الآخر منصرفين كلياً الى تدبير المكائد في تنافسهم على مراكز الصدارة ، اسوةً بالارواح السماوية وبالعروش التي تتدافع لتصبح سلطنات ، لكان السيد دنديو تحرّق غيظاً في تلك الفترة من تشرين الاول ١٩٢٧ . فمنذ ان عادت السيدة دنديو وابنتها من إيترتا آلتا على نفسيهما ان تغيّرا كلّ شيء في البيت ، وان تعملا كل ما يناقض ذوق الفقيد . وتوجّه اهتمامها خصوصاً الى حجرة نومه والى مكتبه ، فقررتا ان تجعلاهما جديدين بكل ما فيهما . وفي هذا المكتب بالذات فاجأ السيد دنديو ذات يوم امرأته تمدّ يدها الى بعض الاشياء ، فقال لها بجفاء : « اني لا اسمح بدخولك الى هنا إلا على سبيل التساهل ، فلا تمسّي شيئاً » . وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على زواجها لم تكن قد فتحت بعد حقائبها الخاصة ، ظناً منها انها ستعود الى ذويها ، لان الحياة مع زوجها لا تطاق . ويوم اذعنت لما كتبه لها القدر لم تخلط ثيابها بثياب زوجها ، بل اعتبرتها شيئاً اضافياً في البيت ؛ اما اليوم فقد جاء دورها ، واصبحت اغراض السيد دنديو غريبة عن البيت ، لا اغراضها هي .

وامعنت في التطهير حتى احرقت ملفات الفقيد الرياضية ، وصوره في مواقفه البطولية ، مع انها كانت تحب الرياضة وتعترف بفضلها ، لاقتناعها بان التمارين الجسديّة قصّرت حياة السيد دنديو عشر سنوات على الأقل .

وانتزعت عن الجدران ما كان يكسوها من الاوراق الرمادية اللون

الدالّة على الرصانة ، واستعاضت عنها بأوراق وردية زاهيــة عليها صور عديدة متماثلة لعندليبين يتناجيان . ولأن السيد دنديو كان لامسيحياً ، ازدانت بلاطة الموقد بتمثال العذراء مريم والى جانبه لوحة ملوّنة رسمت عليها صورة ازهــار المستحيّة لإشاعــة شيء من النضارة في ذلــك الجوّ المثقل بالتقشف ، والى جانب هذه اللوحة صورة بالقلم الفحمي للملك شارل رسمتها الآنسة دنديو وهي في حداثتها الاولى ، و « صورة جميلة » انتزعت من مجلة « إلّوستراسيون » ووضعت في اطار . فيا للعذوبة ، ويا للروعة !

وبعد ، فقــد كانت الى جانب هــذه التحف صورة امرأة في ثوب فضفاض من الموسلين موقعة بامضاء « دومرغ » ، ناهيك بكميات من القلوب المقدسة ، ودروب الصليب ، وبطاقات حفلات تناول القربان المقدس للمرة الاولى . فقد كان يسوع المسيح في كل مكان يتقبل تكريم تينك المرأتين المستعدتين للاقدام على الزواج المدني ، وعلى الطلاق والاجهاض المفتعل . ولا حاجة الى التحدث عن الاشياء الاخرى العديدة المتفاوتــة الدرجات في دلالتهــا عــلى البشاعــة وقــلة الذوق ، الموزعــة في كل مكــان ، واكثرها هدايا ، فقد بلغت شخصية اهل هــذا البيت حــداً من الهزال جعلهم يحتفظون في مكان بارز بكل ما قُدّم لهم من الاشياء .

هناكَ ، مثلاً ، مؤلفات « الروائي الكاثوليكي الكبير » [1] — وهذا تعبير تقليدي للدلالة على مـــا في الادب الفرنسي من السخف والمهازل التي يتوارثها الناس جيلاً بعد جيــل ؛ وهــناك مؤلفات « مؤرخ نابليون » [2] ؛

---

١ — لعله فرنسوا مورياك ، وهو كاتب فرنسي ما يزال حياً . كاثوليكي مؤمن . عضو في الاكاديمية الفرنسية . نال جــائزة نوبل في الآداب . اشهر مؤلفاتــه : « القبلة للمجذومين » ، و « جنيتريكس » ، و « صحراء الحب » ، و « عقدة الافاعي » . وله مسرحيتان هما : « الذين أسيء حبهم » ، و « اسمودي » .

٢ — فريدريك مـاسون (١٨٤٧ — ١٩٢٣) مؤرخ فرنسي ، وضع تاريخ نابليون بونابرت واسرته .

وجميع هــذه المؤلفات مذهّبــة وفخمة المظهر . وقــد دعي « الروائي الكاثوليكي الكبير » يوماً لزيارة المغرب ، فقال انه لا يجد في نفسه اقل رغبة في القيام بهذه الرحلة ، غير انه لبّى الدعوة لأن الذين دعوه تبرعوا له بنفقات السفر .

ان القيام بعمل غير مرغوب فيه لأنــه مجاني ، واستعمال شيء ينافي الذوق لانه هديّة لم يُدفع ثمنها ، هما الدليل الساطع على هزال شخصية صاحبها ، خصوصاً اذا كان من اصحاب اليسر الذين لا تعضهم الحاجة .

عادت سولانج دندير من جنوى وفي خاصرتها حرية الخيبة . توقعت ان تكون رحلتها الى هذه المدينة واقامتها فيها مناسبة حاسمة . فما الذي جنته من هذه المحاولة ؟ لا شيء .

واصبح كوستال بعيد المنال ، فالى متى ؟

إن من يصاب بصدمة قاسيــة ، ويحتــاج الى التفكير بألف مشكلة مهمة ومستعجلة ، يحاول إلهــاء نفسه بمــا يتيسّر له من الاعمال اليدوية ، فيخيط ازراراً ، او يمسح احذية كيلا يفكـّر . وهكذا راحت سولانج ترتب كل ما يقع تحت يدها في بيتهــا ، وهي مرتدية ثوباً عتيقــاً لانهاء حياته . ولبست قفازين لتحافظ على طراوة يديها ، فبدت كأنها لا تريد ان تمس شيئــاً مما كانــ يخص اباهــا . وانصرفت الى اعمالهــا بحرارة ومثابرة ، وبرعت في تعقيدها تعقيــداً مدهشاً على الطريقة المخدرة التي يخطتها نبوغ حواء . وعمــلاً بوحي هــذا النبوغ كانت دقيقــة في عملهــا ومترددة وفوضوية معاً .

وفضلاً عما كانت تجد من التسلية في هذا الترتيب ، كانت تشعر بتلك المتعة التي يغنمهــا من يخرّب وهــو يرتب ، ويرى الفراغ يحتل مكانــ الاشياء . كانت متعة من الصنف الفكري ، على ما يبدو .

واصبحت رغبتها في الترتيب نوعاً من الهيجان ، بــل اكثر بكثير ،

كأنها تقول في نفسها : « فلنشن هجوماً على هــذه الزاوية من البيت ! » ثم تزيل جميع الاشياء القديمة المتراكمة في احــد القطاعات بحماسة قائــد عسكري يقضي على أحد اوكار مقاومة العدو .

وفي المساء ، كانت تعمد الى الهدوء ، وقد احاطت بعينيهــا دائرتان زرقاوان من شدة الارهاق ، كأنهــا سهرت طيلة الليل . إلا انهــا كانت تشعر بنوع من راحة الضمير قلمــا يشعر بــه من يقوم بعمل خيري ، او من يقوم بواجب عسير وخطير .

ان الرغبــة في الترتيب علامة طيبــة بالنسبة الى بعض النســاء ، فهي تدل على ان صاحبتها قــد شفيت من الازمة التي كانت تعانيهــا وبدأت تحب بيتها من جديد ؛ اما بالنسبة الى نساء اخريات فتدل هــذه الرغبة على ان صاحبتها تحاول ارهاق نفسها للفرار مما تعاني .

وكانت سولانج تخشى اليوم الذي يصبح فيه كل شيء مرتباً في بيتها . ولكي تبعد هذا اليوم جعلت تمطّ اعمالهــا ، وتبتكر روحات ورجعات الى هنا والى هناك ، وتخرج من المنزل لتعود اليه ، ثم لتخرج من جديد . إلا ان امكاناتها المادية كانت قد خفّت بالنسبة الى ما كانت عليه قبــل حوادث آب ، فبدت كأن شيئاً فيها قد انقبض واخذ يتقلّص . لكن طبيعتها النباتية كانت تساعدها على النوم طويلاً ، فغدت تأوي الى فراشها وتطفيء النور في الســاعة التاسعة مساءً .

وبنتيجة هذا النشاط ، اخذت الفسحة المكانية التي تشغلها ذكريات السيد دندبو في بيته تضيق وتتقلّص يوماً بعد يوم ، حتى اصبح كل مــا نسجه وبنــاه واحاط بــه نفسه طوال ستين عامــاً لا يزيــد على حجم صندوق صغير أقصي الى غرفة المهملات في العلـيّة . وهكذا لم يبقَ من الجسد المحروق سوى حفنة رماد . وقد صدق من قــال : اذا كان الميت يسطو على الحي ، فالحي يرد للميت الصاع صاعين .

وكانت سولانج تساهم بكثير من عــدم الانتباه وقليل من الوعي في

تلك الاعمال الموجّهة ضد ابيهـا . ولم يغرب عن بالها انهـا كانت تزيل أثره المعنوي بقدر مـا تمحو من آثاره المادية . فالمرأة تودّ ان تحط من قدر الرجل ميتاً كما حطت من قدره وهو حي . فاذا كان الزوج في حياته متحرراً من الاوهام الدينية ، وقفت زوجته او ابنتـه على قبره ، وبذلت قصارى جهدها لتقنع الناس بانه كان « مسيحياً من غير ان يدري » .

لما تسلمت سولانج رسالة كوستال الاولى التي يتذمّر فيها من رداءة الحالة الجوية في جنوى ، ويتحدث عن وحشة انفراده بعبارات مؤثـّرة ، من غير ان يصرّح بان غيابها عنه ترك فراغاً في حياته ، ومن غير ان يثير ذكريات إقامتها معـه بشيء من الحنـين ، خامرهـا شعور غريب لم تكن قد أحست بمثله من قبل ، فقد اغتبطت بانه لا ينعم بمقدار كبير من السعادة . وكانت في اغتباطها بعيدة جداً عن ان يخطر في بالها ان الحالة الجوية في جنوى على احسن ما يرام ، وان كوستال يتمتع بسعادة ملك بين عمله ومغامراته مع النساء . واذا كان قد اعتمد اسلوباً عاطفياً مؤثراً في كتابته اليها ، فلأنه لم يشأ ان تحسبه هانئاً ، لعلمه بانهـا غير هانئة . فعل ذلك بدافع الشفقة عليها ، ثم لأنه كان احياناً يقـدم قرابين للآلهـة تفادياً لشر الحسد اسوةً بالأثنيين القدامى .

اجابتـه سولانج بعبـارات تعزية فيهـا ظـل من العطف ، وحدثته عـن « طعم الرمـاد في الفم » . فالشفقـة التي يشعر بهـا الرجال نحو النساء تجرّ دائمـاً وراءها ذيـلاً هو الشفقـة التي تريد النساء ان يشعرن بها نحو الرجال .

ضحك كوستال ساخراً لما قرأ ما جاء في رسالة سولانج اليه من الاقوال المبتذلة التي تجترها المراهقات ، لانه لم يكن يحس في فمه بطعم الرماد ، بل بطعم لعاب الآنسة بيفيلاكا .

اصبح تفكيرها به مشوباً بشيء من المرارة . خمدت حميتها ، وفقـد

عطاؤها ما كان يتحلى به من العفوية والنزاهة . وقد عبرت عن هذا التبدّل باسلوبها البدائي فقالت : « لا اريد ان أتق بالمظاهر » . وتعمّدت التأخر يومين للرد على رسالته الاخيرة كي تبدو غير مستعجلة ... وربما كانت قد فقدت شيئاً من صفائها المعنوي المعهود لاقامتها مع امها ، فالرجل ، والمرأة ، والولد يفسدون جميعاً اذا اقتصرت معاشرتهم على النساء .

هنا توقف المؤلف عن الكتابة ... فالامعان في وصف التافهين يورث الحزن والسأم . ولما كان موريس باريس يتضايق من احدى بطلات رواياته كان يصيح بها : « والآن ، ايتها السيدة بودوس ، فالى المطبخ ! » ولو كانت المرأتان دنديو سائرتين في اتجاه تفاهة واحدة لهان الأمر ، ولأمكن رسمها في صورة كاريكاتورية . إلا ان الكاريكاتور نفسه يعجز عن تصويرهما . ولا مشاحة في ان الصورة الشمسية افضل من الكاريكاتور .

وغالباً ما كان كوستال يفكر بان الفتاة موضوع مؤسف وحقير بالنسبة الى الكاتب . ولا ريب في ان جسدها ووجهها ، اذا كانا جميلين ، يبلغان منتهى البهاء عندما تكون في مثل سن سولانج . لكن ما ادراك ما وراء هذا الجمال ؟... تأمل كم كان شكسبير [1] يتعب ليُدخل النساء في مؤلفاته . فقد كان يخلقهن خلقاً جديداً ، يخترعهن ، يجهد نفسه في تخيّلهن . أجل ، يجب على الكاتب ان يتخيّل الفتاة ليجعل صورتها مقبولة في نتاجه الشعري . وهذا ما اعترف به بايرون اعترافاً

---

١ ــ وليم شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) اعظم شاعر مسرحي في بريطانيا ، ومن جبابرة المؤلفين المسرحيين في العالم . اغترف موضوعاته من التاريخ والاساطير ، واجاد في خلط المآسي والمهازل باسلوب عبقري لا يجارى . اشهر تمثيلياته : « روميو وجوليات » ، و « تاجر البندقية » ، و « هملت » ، و « يوليوس قيصر » ، و « عطيل » ، و « الملك لير » ، و « انطونيو وكليوباترا » ، و « العاصفة » ، و « هنري الثامن » .

صريحاً [1] . ان بياتريس ، بطلة دانتي [2] ، هي علم اللاهوت . والكاتب الذي لا يغيّر صورة الفتاة ولا يسبغ عليهـا شيئاً من روعة فنـه يخفق في تصويرها . فقـد اخفق موليار [3] في تصوير بطلات تمثيلياتـه ، كما أخفق بلزاك [4] في خلق ابطال رواياته ...

امـا مؤلف هـذا الكتاب فلم يشأ ان يحسّن صورة الآنسة دنديو . فهل اخفق في تصويرها ؟ لقد ابرزها كما هي في حالتهـا الطبيعية . فاذا بعثت الضجر في نفس القارىء فيكون الكاتب قـد صورها بامانة تامة ، لانها كانت مضجرة بطبيعتها .

في يوم احـد من تشرين الثـاني ، بينما كانت السيـدة دنديو وابنتهـا

---

١ – « ما اضمرتُ قط للنساء إلا الاحتقار . ولم أكوّن رأيي فيهن بخفة ، بل بعد التجربة والاختبار . قصدت بمؤلفاتي الى الاشادة بهن ، وطلبت لخيـالي ان يخلع عليهن وشاحاً من الجمال المثالي ، لما صورتهنَّ كما هن ، بل كما يجب ان يكنَّ . » (من تصريح ادلى به الشاعر الى مدوين) . — المؤلف .

٢ – دانتي أليغياري (١٢٦٥ – ١٣٢١) شاعر ايطالي تغنى بحسناء تدعى بيـاتريس بورتيناري ، وصاحب « الكوميديا الالهية » التي تعتبر من اعظم الملاحم في العالم . ويزعم مؤلف هذا الكتاب انه ما تغنى ببياتريس إلا لأنـه اعتبر جمالها صورة لعلم اللاهوت .

٣ – مؤلف وممثل مسرحي فرنسي (١٦٢٢ – ١٦٧٣) نال حظوة كبيرة لدى الملك لويس الرابع عشر ، واشتهر بالتمثيليات الهزلية والانتقادية اللاذعة . يعتبر ابطال تمثيلياته نماذج في دقـة الوصف وعمق التعبير عـن خفايا النفس . اشهر مؤلفاته : « الميزانتروب » ، و « ترتوف » ، و « النساء العالمات » ، و « مدرسة الأزواج » ، و « مدرسة الزوجات » ، و « دون جوان » .

٤ – هونوري دي بلزاك (١٧٩٩ – ١٨٥٠) روائي فرنسي قدير وخصب ، دقيق الملاحظة ، مرهف الشعور ، واسع الخيال . اشهر مؤلفاته : سلسلة « الكوميديا الانسانيـة » ، و « الكولونيل شابير » ، و « اوجيني غرانديـه » ، و « طبيب الريف » ، و « زنبقة الوادي » .

تتأهبان للذهاب الى قداس الساعة الحادية عشرة ، نظرت الام الى الابنة بامعان وسألتها :

– لماذا تضعين ارطالاً من البودرة على وجهك ؟

– لم اضع اكثر من المعتاد .

– بلى ، يا صغيرتي ، انظري الى وجهك في المرآة ، انك تبدين كمهرّجي الحفلات البهلوانية .

فمسحت سولانج البودرة بمحرمتها ، وظل وجهها كالحاً ، فتجهم وجه السيدة دنديو .

وبعد بضعة ايام ، كانت سولانج جالسة ومسندة مرفقيها الى الطاولة ، فلاحظت ان ساعتها اليدوية انزلقت على معصمها مسافة سنتيمترين او ثلاثة سنتيمترات اكثر مما كانت تنزلق من قبل ، فادركت لماذا كانت تحس ، منذ حين ، بان يديها تسبحان في قفازيها .

لم تقل شيئاً ، وخجلت خجلاً شديداً . غير ان السيدة دنديو ما لبثت ان تبيّنت حالة ابنتها ، فوضعت قارورة من الحبوب المقوّية على المائدة ، فاصبح بها بيت دنديو اجمل مظهراً مما كان . فمن ابرز مظاهر الاناقة في البيوت البورجوازية علبة الادوية والمستحضرات الطبية . والبورجوازيون اناس يحتاجون الى طبيب كي يقول لهم ان يأكلوا أقلّ مما يأكلون ، ويحتاجون الى طبيب ليفرض عليهم فترات يلزمون فيها الصمت ، ويلجأون الى استشارة الطبيب اذا تضخمت بطونهم ، ويستشيرون الطبيب اذا عطس احد ابنائهم .

اما سولانج فاشترت حمرة ، وغيّرت تسريحة شعرها ، لانها كانت تبدو في تسريحتها القديمة كأنها فتاة مراهقة . ولم يكن هذا المظهر ليلائم ملامحها المتعبة كملامح عذراء تقادم عهدها . اما تسريحتها الجديدة فاسبغت عليها مظهر امرأة شابّة ، ومن حق المرأة الشابة ألّا تكون في مثل نضارة الفتيات العذارى .

وكانت تتسلم من كوستال ، كل اسبوع ، رسالتين مفعمتين بالعطف والمودّة ، فتسائل نفسها ، وهي المبتدئة في مذهب الشك : « أتراه مخلصاً في حبه ؟ » وكلما جلست لتجيب عن احدى هذه الرسائل واجهتها مشكلة ، لانها كانت تعاني صعوبة كبرى في التعبير عن شعورها وهي في ذروة حماستها الغرامية ، فكيف بها اذا خمدت هذه الحماسة ؟

كتبت اليه يوماً تقول : « أخذتَ قسماً كاملاً من شخصي، وخلقت فيَّ شخصاً جديداً احتل مركز السيطرة ، فاذا غاب هذا الشخص تركني في فراغ رهيب ... »

كان هذا القول صحيحاً . غير انها احتفظت بالكثير من حرية التفكير فراحت تختم بعض رسائلها بألوان من التفنّن بالادب ، كقولها : « ... اني أشبه بأمٍ يسافر ولدها ، فتبقى وحيدة في بيتها عندما يأتي المساء » ؛ وكقولها ايضاً : « ان ارنبي المصنوع من القطيفة ينتظرك ، وهو ما يزال على حاله : عيناه زرّا حذاء ، واحدى اذنيه متدلّية كأغصان الصفصاف الباكي » .

هذا ، ولا ريب ، تعبير حسن ، إلا انها اضافت اليه قولها : « ضممتُ ارنبي بين ذراعي ، ثم ألقيته على مخدتي كما كنت افعل يوم كنت فتاة حديثة السن ، وليس هذا اليوم ببعيد » . وكان هذا اختراعاً محضاً غايته ، على ما يبدو ، الضرب على وتر العاطفة ووتر الرغبة الجنسية في نفس كوستال الذي كان سريع التأثر باخبار طفولتها وحداثتها . فكل امرأة تحاول إيهام الناس انها طفلة حتى تبلغ الخمسين من العمر . وليس بين النساء واحدة بالمائة لم تقل لاحد الرجال مرةً واحدة على الأقل : « انت تعلم اني ما ازال طفلة » .

لما تلقت سولانج رسالة كوستال الاولى من جنوى ، تأخرت عمداً بالرد عليها ؛ اما الآن فانها ترجيء الكتابة اياماً عديدة ، لأن اجوبتها اصبحت كلفةً صعبة عليها .

كانت الآنسة دندبو تنقض الرأي السائد القائل بان المرأة تزداد تعلقاً بالرجل الذي يمعن بتعذيبها ، وتنقض ايضاً الرأي القائل بان المرأة تطلب الى الرجل الذي تحبه ان يستسلم لها في الشؤون الصغيرة ، وان يقاومها في الشؤون الكبيرة . والحق يقال ان لكل امرىء شيئاً من القدرة على ان يحب ، ويبغض ، ويتألم ، ويجتهد ، وينتظر .

اطلقت سولانج في جنوى اطول حربة من حراب حبها ، فاذا بهذا الحب يتراجع تراجع الجَزْر دون ان يشعر به احد .

فكيف تمكنت ، اذاً ، من متابعة التفكير بتحقيق مشروعها ؟ فلنحاول ان نفهم لماذا لم تعدل عن عزمها . لقد عاشت ، حتى الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تشتهِ إلا قليلاً ، ولم يتسنّ لها ان تريد شيئاً ، فاذا بها الآن تريد الحصول على شيء ، كأن ارادتها التي لم تُستعمل بعد قد تكتلت ، وشنّت هجومها دفعةً واحدة .

وفي هذه الاثناء كانت سولانج تقول في نفسها : آه ! يقولون اني عديمة الارادة . فسنرى أصادقون هم ؟

وكان هذا العناد بمثابة تعويض ضخم لها عن افتقارها الى الرغبة والاشتهاء . وقد وجهت عنادها الى السعي الحثيث لتتزوج بكوستال ، وتحملت في هذا السبيل انواعاً من الخضوع والاذعان والاساليب التي لا تطاق لتحتفظ بالرجل الذي اصبح سيّد مصيرها . هرولت على هذه الطريق ، فلم تعد تستطيع التوقف . وليس العناد ببعيد عن التدهور ، فضعفاء الارادة يُبطئون في وقف انطلاقهم بقدر ما يبطئون لبدء هذا الانطلاق ، ناهيك بما كانت عليه سولانج من الانسياق وراء الاوهام اسوة بسواها من النساء .

ما اكبر الفرق ، في بداية المطاف ، بين اندريه هاكبو وسولانج دندبو ! ومع ذلك فكلاهما تصلان في النهاية الى نقطة واحدة ، لاعتقادهما ان العناد يوصلها الى ما تريدان . وما العناد إلا معارضة المرء العمياء ،

الصفيقة ، لحقيقة يعجز عـن ادراكها وعن سبر غورها . وهذه المعارضة عمل نسائي أصلاً .

يتحدث الناس احياناً عن امراض الارادة . وفي بعض الاحيان تكون الارادة ذاتها مرضاً .

وبعد عرض جميع هذه الاسباب والاحوال ، نرى ان اصرار هاتين المرأتين على بلوغ غاية ليست مضمونة النتائج الحسنة هو بحد ذاته اصرار يصعب فهمه . وما الفائدة مـن كتابـة الروايات ان لم تكن لاظهار الذين بلغوا سن الرشد كما هم ، وكما يراهم الاحداث ، اي مستبدين ولا يمكن فهمهم ؟

ان الدسائس التي تدبرهـا النساء ليتزوجنّ او ليزوجنّ بناتهـن هي عـادة نتيجة المصلحة الشخصية والطموح ؛ ومن المحتمـل ان تكون احياناً نتيجة الحماقة ؛ وربما كانت من هذا الطراز في قضية سولانج وكوستال .

ويا لها من خيانة للحياة ان يسعى ساعٍ ، بلا تفكير ، الى عقد هذا الزواج الخالي من الحب !

لم تكن سولانج تتألم من حب جريح ، بل من اخفاق في مشروع ، ومن ذلك الشك الذي يوجع النساء اكثر ممـا يوجع الرجال . وكانت خيبتها تحتدم احياناً ، فتصبح عدوانية على شيء مـن الرياء . وهكذا الثور المصارع يمسي خطراً في نهاية الصراع ، خصوصاً اذا كان جريحاً .

يوم كتب اليها كوستال رسالة وصف فيهـا بحماسة جمـال النساء الايطاليات ، بينما كانت هي تذبل وتفقد رونقها ، احست بانهـا عزلاء ، لانها لا تملك من مغامرات ماضيها سلاحاً تقاتله به . وقرأت يوماً مقالاً عنه يمس بشعوره فارسلته اليه بلذة وسرور . فقد كانت بحاجـة الى الاحتفاظ به والى معاقبته معاً .

في اواسط تشرين الثاني ، اعلن كوستال عزمه على العودة الى باريس

في ٢٥ من هذا الشهر . وفي رسالة تالية ارجأ موعد عودته دون ان يحدد موعداً آخر . فتسلمت سولانج هذه الرسالة بهدوء . إلا انها ما لبثت ان رأت آلتها الكاتبة فاغرورقت عيناها بالدموع . فقد كانت في تلك الفترة متوعكة ، وفي مثل هذه الحال يصبح خيالها مرهف الشعور ، كابناء الشعب الذين ينصرفون الى نظم الشعر عندما يكونون مرضى .

اشترت هذه الآلة الكاتبة منذ ثلاثة اشهر ، وشرعت تتعلم الضرب عليها ، لاعتقادها بانها ستضطر الى نقل مخطوطات كوستال عندما تصبح زوجته . ولما عادت من جنوى اهملت هذه الآلة في احدى زوايا البيت .

واشتد غيظها لما علمت انه لا يحتاج اليها ، فراحت تسائل نفسها أتراه كذب عمداً لمّا حدد موعد عودته ، ثم ارجأ هذا الموعد ليُفهمها انه مكتفٍ بنفسه ، وليرى الى اي حدٍ تبلغ بها مسايرته .

قالت في نفسها : « ألا يأتي يوم اصبح فيه سيدة الموقف ، ادير اللعبة كما اشاء ؟ كم اشتهي ان اراه يخطو الخطوة الاولى ليدنو مني ، فاتراجع عنه خطوة ، واقود المناورة قليلا ! »

وكثيراً ما كانت تحس انها فقدت كل احساس ، فيخيل اليها انها لم تعد في الوجود ، لانها لا تجد من يهتم بها . فالمشاجرات ، والاحتقار ، والاهانات كانت افضل لها من هذا العدم الذي يكتنفها .

كانت تلزم الصمت التام فترات طويلة ، واذا بدأت جملة توقفت عن اكمالها ، كأن الكلام يتطلب منها بذل جهود عديمة الفائدة . وغدت لا تحب ان ترى احداً ، وتنتفض جزعاً ويصفرّ وجهها كلما رنّ جرس الباب .

قالت لامها يوماً :

— أعلم جيداً لماذا لم اعد اريد الخروج من قوقعتي . لا ، لا ، من

الصعب جداً ان نقيم علاقات بيننا وبين الناس . فالجهود التي نبذلها في هذا السبيل ترهقنا . اننا مضطرون للعودة دائماً الى بداية المطاف حتى مع الذين نحبهم اكثر مما نحب سواهم ...

فأجابتها السيدة دنديو :

– لا تجهلين ، يا صغيرتي ، اني الى جانبك .

فقالت سولانج في نفسها : « ان محبة الاهل شيء آخر ... »

وقامت السيدة دنديو بمحاولات كثيرة لتبعث اهتمام ابنتها بالمحاضرات ، وبالتكتلات السياسية ، فكانت سولانج تجيبها دائماً : « وما الفائدة من هذا ؟ » او : « لسنا بحاجة الى تعقيد حياتنا ! » والحقيقة ان اهتمامها بأقل عمل كان يحدث فراغاً كلياً في دماغها ، كما تسحب المضخة الهواء من الوعاء . فالاعمال التي كانت « تشغلها » كلياً كانت من نوع ترتيب الثياب في الخزانة ، وحلّ خيطان معقدة ، وما الى ذلك .

انحلّت كتابتها ، فصارت تهمل نهاية الكلمات ، وتنسى الحركات ، والفواصل ، والنقاط . وامسى وقوف الخادمة الى جانبها يثير غيظها ، كأنه يعكّر عليها وسواسها واجترار افكارها ، ويفرض عليها التفكير باصدار اوامر لم تخطر في بالها ، ولا يمكن اصدارها بلا شرح وثرثرة .

وجفّت شفتاها ، وفسدت رائحة انفاسها . واخيراً ظهر دمّل في قفاها ، وآخر في فخذها .

كان البرد يضيرها ، فيتغير طبعها في الشتاء وهي على ما يرام من حسن الصحة ، فكيف به ، اليوم ، وقد تضاءلت حيويتها ؟

ها هي تجلس جانبياً بالقرب من المدفأة ، رافعة الجانب المريض من قفاها ، بالقرب من لوحة تمثل السيدة فيجي لوبرون وابنتها[1] ، والى

---

[1] – رسّامة فرنسية (١٧٥٥ – ١٨٤٢) اشهر لوحاتها العديدة تمثل الملكة ماري انطوانيت .

جانبها ترقد القطتان المعهودتان متعانقتين ، تحيك طوال ساعات صدرة من الصوف لاحدى الجمعيات الخيرية . وكانت قد عرضت على كوستال ان تحيك له صدرة فرفض باستياء شديد . وهي تشتغل الآن لانها تجد تسلية في تحريك الصنانير ، وليس لشدة اهتمامها بالفقراء . وكان هذا الشغل يستوعب كل انتباهها ، فلا تسمع امها حين تخاطبها ولا تفهم ما يقال لها . اما ساعتها اليدوية فظلت تنزلق على معصمها بالرغم من الادوية المقوّية . وكثيراً ما كانت تنظر باهتمام الى شرايين يديها التي قال لها كوستال يوماً انه يحبها ... كانت تنظر اليها لتتيقّن بدهشة من ان فيها شيئاً أحبه كوستال ذات يوم .

وفي جنوى ، كان كوستال يكتب الرواية التي جعل سولانج احدى بطلاتها . وكان يشعر بما كان بينه وبين الفتاة شعوراً عميقاً وكلياً ، فبادر الى اثباته على الورق ، ولو لم يفعل لأصيب بمس من الجنون .

وراح يضع في الرواية كل ما ينتزعه من سولانج . وكان هذا نوعاً من الامتلاك اشد واقوى من الامتلاك الجسدي .

ويوم رسم خط الخاتمة في روايته لم تمت سولانج المفرغة من كل ما فيها ، بل كانت جالسة الى المائدة تتناول طعامها ، فأحست بشيء صلب في فمها ، فتناولته باصابعها ، فاذا هو تاج احدى اسنانها وقد انكسرت . انكسرت من الضعف لان جسم سولانج أضحى مفتقراً الى الكلس .

كتب شاتوبريان في « مذكرات ما وراء القبر » : « كنت اجعل السيدة دي شاتوبريان تبصق الدم ساعة اشاء ... »

وكتب كوستال انه عائد في ٢ كانون الثاني ، وقد اختار هذا اليوم هرباً من زيارات عيد رأس السنة ، وضرب لسولانج موعداً في اليوم التالي ، ٣ كانون الثاني . ولما وصل الى باريس ، وجد رسالة من السيدة دنديو تطلب فيها اجتماعاً مستعجلاً به قبل مقابلته لسولانج .

ووجد ايضاً رسالة من اندريه هاكبو ، فلم يفضها ، بل احتفظ بها . وكانت لديه محفظة للرسائل التي لا يقرأها ولا يتلفهـا ، ومحفظة للرسائل التي تكتب عليها صاحباتها : « للاتلاف بعد القراءة » .



٢

من

اندريه هاليو
سان ليونار (لواريه)

الى

بيار كوستال
باريس

٣٠ كانون الاول ١٩٢٧

اني حردانة منذ ستة اشهر . فلا بد من اطلاعك على هـذا الامر ، لانك لم تشرفني بالانتباه اليـه . انك تحتقر حتى لامبالاتي . إلا اني لا استطيع ان ادع هذا اليوم يمر دون ان اتمنى لك ، يا كوستال ، سنة سعيـدة . أتراني أحط من كرامتي اذا كتبت اليك بعد سكوت استغرق ستة اشهر ، ما دمت لا اطلب اليك شيئاً ؟

« قصدتني » من حبي ، ولا اجد كلمة غير هذه للتعبير عن حقيقتي . ولن تدرك ابداً قيمة ما رفضتَ بالنسبة اليّ . فلو حصلتُ على ما ازيد منك لجعلته « الحب »[1] بكل ما فيه من القوة والمعنى ، بل لجعلته شيئاً

---

١ ـ وردت كلمة « حب » هنـا بحرف كبير في اولهـا كأنها اسم علم ، تعظيماً لمناها .

ممتلئاً ، مستديراً ، مكتنزاً ، لامعاً كرغيف الخبز ، او قالب الحلوى . لكن دعنا من العودة الى هذا الموضوع .

اني اكتب اليك . وما دام باب الخزانة التي اضع فيها كل ما يتعلّق بك مفتوحاً ، فيخيّل اليّ اني في غرفة صغيرة ، صغيرة جداً ، واني جالسة قبالتك وحدك .

الرؤية صعبة ، لأن الجو غائم ، وقد ُقدّر لي ان استأنف كتابتي اليك يوم احد . وكل شيء في سان ليونار يتخذ طابع الكآبة والحزن العميق يوم الاحد اذا كان ماطراً . وكم من ايام آحاد امضيتها باكية وراء نافذتي !

اني هادئة ، لكني لم اشفَ بعد . يكفي ان أسمع قليلاً من الموسيقى (عندي اليوم جهاز راديو) ، او ان يستولي عليّ الأرق ، او ان يهطل المطر ... او يكفي ان يصل اليّ شعاع من الشمس ليطرحني ، روحاً وجسداً ، في كل ما يؤلمني ويشقيني . يكاد السأم يفقدني صوابي . وما اصعب ان يستيقظ المرء صباحاً وهو خائر القوى ، عديم الشجاعة ، لا همّ له إلا ان ينقضي النهار بسرعة ، كأن الوقت دواء مر ، كريه الرائحة ، يسد المريض انفه ليشربه دفعة واحدة !

منذ تلك « العطلة » المشؤومة التي امضيتها في كابورغ ، خلال حزيران الماضي ، لم اغادر سان ليونار إلا مدة اربع وعشرين ساعة امضيتها في اورليان . لم اعد احب الذهاب الى مكانٍ ما ، اذ ليس فيه من ينتظرني ، او يود ان يرى وجهي . فالمرأة التي تعلم ان وجهها يعجب رجلاً ما تخلق نفسها من جديد . والمرأة التي تعلم ان وجهها موجود بالنسبة الى رجلٍ ما ، في عالم يعج بالموتى الذين لا يبصرون ولا يحبون ، تدرك انها احرزت شطراً من الخلود .

اكرر عليك قولي اني لا اجد اقلّ غضاضة في الكتابة اليك . اني احتفظ منك دائماً بانطباع قوي ، فكيف استطيع التعبير عنه ? انه

شعور عميق باننا نعرف معاً اشياء لا يعرفها الآخرون ، اشياء لم تقلها لي ، ومع ذلك لم تقلها إلا لي وحدي .

أ . هـ

(احتفظ كوستال بهذه الرسالة في خزانته من غير ان يفض غلافها)



٣

قال الروائي الكاثوليكي الكبير يوماً لأحد زملائه : « اصدرتُ اربعة عشر كتاباً . ولو كنت عازباً لما اصدرت إلا سبعة » .

وهذا يعني انه ضاعف نتاجه لكسب نفقات العيلة ، أفلا ترى ان النسبة صحيحة ؟

وقال ايضاً : « ان لي ثلاثة اولاد ! » وكانت لهجته زاخرة بالمرارة — المرارة الكاثوليكية الصرف . ومع ذلك فالروائي الكاثوليكي الكبير عريض الثراء ، لأن يسوع المسيح وسيلة جيدة للكسب اذا شاء بعضهم استغلاله . . .

وكل ما يقوم به هؤلاء البعض من الاعمال الحقيرة او التافهة ، يعتذرون عنه متذرعين بانهم ارباب عيال ، كأنهم لم يتزوجوا إلا ليكون لهم هذا السبيل الى الاعتذار ، كاولئك الذين لم يتطوعوا جنوداً في اثناء الحرب إلا ليتباهوا ببادرتهم هذه طوال حياتهم .

كانت السيدة دنديو تشعر ، وهي في سيارة التكسي التي حملتها الى منزل كوستال ، انها قوية الجسم كأنها في مشدّ من الحديد ، ولم يكن هذا المشد إلا ثقتها بانها نقية الضمير . فضميرها النقي كان محبتها لابنتها . ففي سبيل هذا الحب كانت مستعدة ان تسرق ... ونحن نعلم ان هذه المحبة كانت حقيقية وقوية . فعندما يبلغ الصبي سن المراهقة يخمد حب امه له ، اذ يصبح في نظرها مسخاً بالغ الدمامة لا تستطيع الدنو منه ،

لانها لا تفهمه ؛ اما تطور الفتاة من طفلة الى مراهقة ، فينمي حب الام وينضجه حتى انها تميل الى مصادقة ابنتها . وعندما تصبح الفتاة امرأة يزداد حب امها لها من جديد . فمنذ اصبحت سولانج امرأة غدت السيدة دندیو تحبها اكثر .

وجل ما كانت تريده من كوستال ، في ذلك اليوم ، ان يقول لها : نعم او لا . فاذا رأته يماطل ويراوغ قالت هي : لا .

لكنها ما كادت تراه حتى احست بانها ضعيفة امامه . فتلك كانت الزيارة الاولى التي تقوم بها إلى منزله ، واذا بها كفريق كرة القدم يلعب على ارض الفريق المنافس له ، فيرتبك ولا يجيد اللعب .

وكان الكاتب قد عاش الاشهر الثلاثة الماضية خالياً من المتاعب والهموم ، فاشرق وجهه بألوان العافية ، وامتلأ خداه ، وربما نجم هذا الامتلاء عن انه تغذّى من سولانج . ولما كان مظهره هادئاً يدل على الارتياح والثقة بالنفس ، فقد فرض نفسه عليها بعض الشيء ، فظلت محتفظة فترة طويلة بافضل ما لديها من الحجج ، واكتفت بترديد اقوالها المعتادة ، فقالت :

– انك تذبل خوفاً من البرد ، عوضاً عن ان تقبل بمواجهة الرياح العاصفة . انك ترفض التغلب على العقبة . فانت تخشى الوقوع في الخطإ ، وتخشى الاخفاق . فلكي يتعلم المرء السباحة ، فلا بد له من الانطراح في الماء .

– ألا تظنين ان نصف الذين ينطرحون في الماء يغرقون اذا كانوا لا يحسنون السباحة ؟

– الحقيقة انك لا تحب سولانج كفاية" .

– هذا هو الصواب : لا احبها كفاية" . لا تتخذي من هذه الحقيقة سلاحاً ضدي . القلب ! يجب ان يملك الرجل قلباً كبيراً جداً ليحب قليلاً .

– كن مطمئناً ، فالحب يأتي في حينه . هكذا تجري الامور دائماً ...
– انت تودين اذاً مصاهرة امرىء يعترف لك بانه لا يحب ابنتك كفاية .
– اني اقدر الصراحه قبل كل شيء .
وجال في خاطرها ما يجول في خواطر جميع النساء ، فراحت تقول في نفسها : « ليحتفظ بصراحته لنفسه ، فهي صراحة تقلّل من قدره وتحقّره » . ولم مرة قالت لسولانج : « صراحة الرجل شركٌ ينتزع منا كل ما فينا من الحذر . فاذا انذرك بانه لا يحبك حباً كلياً ، فكوني منه على حذر ! »
ثم استأنفت حوارها مع كوستال ، فقال :
– لسنا بحاجة الى حب رومنطيقي كبير . ويبدو لي انك تحب سولانج حباً كافياً لتقدم لها المساعدة التي يحق لكل امرأة ان تنتظرها من زوجها .
– عفواً ، اني لا اعيش لأجل الآخرين !
قالها كوستال بقوة وحزم ، ثم استطرد :
– لو كنت اجرؤ على مصارحتك بالحقيقة لقلت لك ان حالتي طبيعية تماماً . فالطبيعة لا تأمرني ببذل نفسي لسواي ، بل هي لا تأمر المخلوقات إلّا بان تحيا .
– سولانج طبيعية ايضاً . لكني اؤكد لك انه لو حلّ بك مكروه ...
– ان ما اكره لا يحلّ بي ابداً .
ضحكت السيدة دندبو . وبقدر ما كانت تتضايق ، كانت تبدو أليفةً ولامبالية ، وكان كلامها يزداد طلاقةً ومرحاً .
قالت في نفسها : « ساغادر هذا البيت من غير ان اقوم بالعمل الذي جئت لاجله ، ومن غير ان اصل الى شيء يستحق الذكر . اني ارى

هذه النتيجة منذ الآن ».

وفكرت بانه ليس من الموافق ان تحدثه عن ارادة سولانج ، لأن هـذا الحديث يخجله ، فحرصت على تخفيف لهجتها في كل عبارة متعلقـة بهذه الارادة . وحصرت في ذهنها بعناية كليّة جميع الكلمات التي لا يجوز ان تقولها ، لكن هذه الكلمات افلتت من بين شفتيها على الرغم منها ، فاذا بها تقول :

– ان لهذه الصغيرة ارادة حديدية لا تقهر . فقـد قالت في نفسها : « هذا الرجل هو الذي اريده ! » ولن يثنيها شيء عن عزمها .

هكذا لفظت السيدة دندير ما كان يعتلج في صدرها ، كجسم اضناه الوهن فتراخى وبرّز ما فيه من المواد السّلاحية ، فسولانج وامها كانتـا تتبادلان عدوى العيـاء والعجز عن المقاومـة . واذا بردّ كوستال يـأتي سريعاً وقاسياً ، قال :

– يطيب لي ان ارفض .

فلزمت الصمت منعنـةً ومغلوبـةً على امرهـا . وفي ذلك السكوت الثقيل ، سُمعت جلبـة كرة يدحرجها اولاد ، ووقـع قوائم كلب يركض وراءها في المنزل الواقع فوق بيت كوستال .

وجعلت السيدة دندير تدلك بابهامها التجاعيد المتكاثفة تحت عينيها . ثم رنّ جرس التلفون ، فقام كوستال الى السماعة .

– ...

– هل أظن أن الرواية لونٌ من الادب ولـّى زمانه ؟ لا ، يا سيدي ، فآفة الرواية هي فقدان المواهب . فالموهبـة تقوّي كل لون من ألوان الأدب . ثم انك تعلم ان الرواية بخير ، ولا خوف عليها . أفـلا ترى اننا نضيع وقتنا بهذا الحديث ؟

– ...

– استقبلك ؟ لماذا ؟ أما اجبتُ عن سؤالك ؟ والآن جاء دوري ، أتسمح

لي بان اطرح عليك سؤالاً ؟ اليك به : اود ان اعرف رأيك في هذا الموضوع : ألم يصبح الحديث الصحافي بالهاتف من الاساليب الصحافية التي ولّى زمانها ؟...

— ...

— هذا الرجل الذي يقدر الناس ان لفكره بعض القيمة ، ويريدون معرفته لافادة النوع البشري به ، ربما كان متهمكاً بعمل شيء مهمّ ، ربما كان يفكّر ، مثلاً ؛ او يستريح بعد التفكير ، او يصمم مشروعاً ، او يوجّه شخصاً ما الى مصيره ، او يضاجع امرأة ، او يستريح بعد هذه المضاجعة . فاذا بالهاتف يناديه بشراسة ويزعجه مرتين ، مرة في فكره الذي ينقطع مجراه ، ومرة اخرى في جسده الذي يضطر الى التحرك والانتقال للذهاب الى جهاز الهاتف . اما سبب هذه الحركة المقيت فهو ان مجهولاً يريد ان يعرف رأي المفكر في هل الرواية لون من الادب ولّى زمانه ؟ وفي اغلب الاحيان لا ينشر هذا المجهول الحديث الذي حصل عليه ، لأن مقالته طويلة جداً ، او لأن رئاسة التحرير صرفت النظر عن نشر الحديث . واذاً ، فاني اقول لك ، يا زميلي العزيز ، ان هذه الاساليب المسلكية هي — انتظر قليلاً ، اني ابحث عن كلمة لطيفة ... — هي اساليب وحشية .

ومن حين الى آخر ، كان يُسمع صوتٌ من المنزل المجاور كأنه طلقات رشاش . أتراه كان صوت خرير الماء في الانابيب ؟

اما السيدة دندبو فكانت تداعب عقدها ولا تفكّر بشيء ، بل تنظر بامعان الى مصباح كهربائي على الطاولة ، أشعله كوستال بينما كان يتكلم بالهاتف ، فبدت نواته المتوهّجة كأنها قلب نجم مذنّب .

وما كانت ام سولانج ترفع عينيها عن ذلك المصباح إلا لتحوّلها الى نوافذ البيت المجاور التي بدأت — وقد اقبل الليل — تُضاء واحدة بعد اخرى ، كوجوه اشخاص قيلت لهم كلمة لطيفة ، او حدثهم احد عن

نفوسهم .

وشردت السيدة دنديو في احلامهـا بضع ثوان خلال الفترة السريعة التي مرت بين اضاءة تلك النوافذ ومبادرة اصحابها الى اغلاقها ، كأن المنازل المجاورة قد اباحت حياتها الحميمة لحظـة للانظار ، ثم تستّرت حياءً . ولو سُئلت ام سولانج عن الشعور الذي خالج نفسها آنذاك لما استطاعت ان تعبر عنه ، إلا أنّه لم يكن غريباً عن تفكيرها بالبيت المجهول الذي تشتهي سولانج ان تجد فيه سعادتها الى جانب الرجل الذي تحبه ، وان تمضي تحت سقفه حياتها كلها .

ولما انهى كوستال مخابرته الهاتفية استأنف حديثه قائلاً :

— لا ادري لمـاذا تقر التقاليد المتبعة اتخاذ تدابير دقيقة على يـد الكاتب العـدل لتحديـد الحقوق المادية لكل من الرجـل والمرأة اللذين ينويان الزواج ، ولتعيين الممتلكات التي يستقل بها كلٌ منهما عن الآخر ، ولا تعير اهتماماً كبيراً لحقوق الفكر وحقوق الشخصية . لقد تبنّت جميع دول اوروبا اليوم منهجاً خلقيـاً جديداً تداس فيـه بالاقدام تلك الاعتبارات التي نسميها ، انتِ وانا ، اخلاقاً ، عندمـا يكون الامر متعلقاً بمصلحـة الدولة . وفي اعتقادي ان العمل الفني لا يقل اهمية عن مصلحة الدولة ، وهو يستحق ما تستحقه من التضحيات . لتكن سلامة الانتاج الادبي شريعتنا العليا [1] . اني أسيء اليك اذا تركتك معلقة بـين الشك واليقين . واراني على حق في تصرفي معك ، لان هذا التصرف ينقذني من الزواج الذي قد يضر بانتاجي الفني . ان المواطنين يقبلون ، في سبيل الدولة ، ان تكون لحاكميهم اخلاق لصوص يقطعون الطرق ، فاقبلي انت ، في سبيل انتاجي

---

١ — ثمة شعار لاتيني قديم هو : Salus populi suprema lex esto ، ومعناه : « لتكن سلامة الشعب شريعتنا العليا » ، وقد اتخذه المؤلف شعاراً له بعد ان حذف منه كلمة « الشعب » راحل محلها كلمة Operis ، ومعناها : الانتاج الادبي .

الادبي ، انحرافي عن القواعد الخلقيـة التي تواضعت عليهـا العامـة ، اذا كانت مصلحة مؤلفاتي الادبيـة تفرض عـليَّ هـذا الانحراف . ان حب الفتـاة لاحد رجال الفن يجب ان يكون بالنسبة اليهـا اشبة بحبهـا الموت .

وقال في نفسه : « ليأخذك الطاعون ايتهـا الام الحنون ، مـا اسمج ثرثرتك ! » إلا انه لم يكن قد انتهى بعد من افراغ جعبته ، فاستطرد قائلاً :

— ثمة نوعان من الرجال : الذين يوجِّهون ، والذين يوجَّهون . فالاولون خلّاقون في الادب ، والفنون ، والعلوم ، والسياسة ؛ وبتعبير آخر هم الغزاة الفاتحون . فالكاتب يغزو الفكر بما يؤلف ، والفنان يغزو الجمال ، والعـالم والفيلسوف يغزوان الحقيقة ، والسياسي يغزو السلطة . والغزاة بحاجة الىْ راحة الفكر التي يتعذر وجودها في الحياة الزوجية . ليتزوج اذاً الرجال الآخرون ، وليخلـّفوا ابنـاء ليعوضوا عـن تقصـيرهم في انمـاء الـتراث البشري . اما الغزاة فليأخذوا من الزواج ومن الابوّة مـا يفيد اوضاعهم الاقتصادية وحسب .

قالت السيدة دنديو بلهجة لا تخلو من الدلال ، وعلى وجهها ابتسامة متوتـّرة :

— دع الكلمة الاخيرة لي . فاللياقة تفرض عليك ذلك .

وكانت شديدة التأثر في تلك اللحظة العصيبة ، فبدا دلالها في منتهى القبح والفظاعة . وانفجرت هذه المرة على الرغم من تحفظها ، كما انفجرت عندما تحدثت عن ارادة ابنتهـا ، قالت :

— اما انت ، يا سيدي العزيز ، فلديك عملك الادبي ، وهو يشغلك ويغنيك عن الابناء . اما انا فلديّ ابنتي . والنساء السعيدات يحببن ابناءهن حبـاً عظيماً ، ومن سوء حظهن انهن يحببنهم حتى الجنون . وكل ما لم يعطه السيد دنديو لابنته من العطف والمحبة ، اضطررت انا الى اعطائها اياه .

اجل ، اضطررت ان احبها حب اثنين . والآن انظر ما آلت اليه ابنتي بسببك .

واخرجت من حقيبتها واحدة من تلك البطاقات التي يعطيها الصيادلة لزبنهم الذين يزنون نفوسهم ، وقدمتها لكوستال ، فقرأ فيها ما يلي :

٩ كانون الاول = ٥٩ كيلو و ١٠٠ غرام
١٦ » = ٥٨ كيلو و ١٠٠ غرام
٢٣ » = ٥٧ كيلو و ٢٠٠ غرام
٣٠ » = ٥٦ كيلو و ٣٠٠ غرام

ورأته يرفع رأسه وعلى وجهه امارات الجد والاهتمام ، فقالت له :

– أتدري في اي حال تظهر الدمامل في الجسم ؟ تظهر الدمامل عندما يكون الدم معتكراً . وقد اصيبت سولانج بثلاثة دمامل منذ الشهر الماضي . أتدري ... أتدري علامَ تدل هذه الاصابات ؟

وتناولت من حقيبتها صرّة صغيرة من الورق الحريري . فوضع كوستال البطاقة على الطاولة ، واخذ الصرّة وفتحها ، فوجد فيها سنّاً مكسورة من اسنان سولانج . فقالت السيدة دنديو :

– ألا تعلم خطورة فقدان الكلس من الجسم ؟ ألا تدرك الى اي حد يكون المرء مصاباً عندما تبدو عليه هذه العوارض : الهزال ، والدمامل ، وفقدان الكلس ؟ ان الداء الوحيد الذي تعانيه ابنتي هو داء نفساني ...

– هل لديكم طبيب ماهر ؟

– أقدر انه طبيب ماهر بالنسبة الى الاجور التي يتقاضاها .

– لم تذكر لي سولانج شيئاً من هذا في رسائلها .

– ارى انك لا تعرفها .

وراح يحاول اسكات صوت ضميره كما يضع المرء يده على فم امرأة

ليمنعها من الصياح .

وفي هذه اللحظة قرع الباب الخارجي ، فلازم كلاهما الصمت ، ثم جاء الخادم يحمل رسالة فتناولها كوستال وشمها قائلاً :

– اعذريني ، فشكل هذه الرسالة لا يعجبني . ان لها وجهاً مبروماً كوجه كتاب تهويل وتشهير ...

وبعد ان قرأها اعطاها للسيدة دنديو فقرأت بدورها ما يلي :

استاذي العزيز !

انك تشعر مثلنا ، ولا ريب ، بأن الساعة قد ازفت لاعادة النظر في اوضاع الكون . فنحن ، « الاستوديو ذو الرقم ٢٧ » رهط من الشبـاب فرض على نفسه القيام بادق الفحوص اللازمة لمعرفة طاقة الانسان . وقـد فكر مجلسنا بانه من الضروري ، قبل كل شيء ، ان نفتح مجالاً واسعاً لمناقشة القضايا المهمة التي تتطلب درساً عاجلاً ، وهي : الله ، الثورة ، الشعر . وفي اذار المقبل ، سنعقد مؤتمراً ندعو اليه شبيبة العالم بأسره دعوة اخوية . وبعد هذا الاجتماع الذي نقارن فيه بين مقرراتنا ، ونزن ارادتنا ، نقدم مقترحاتنا ، ونفرضها فرضاً اذا لزم الامر .

وسنقوم بتحقيق تمهيدي من شأنه ان يوفر لنا ادوات العمل . فنرجو منك ان تجيب عن الاسئلة الثلاثة التالية ، مع العلم ان نشرتنا : « الاستوديو ٢٧ » ، قليلة الصفحات ، فيجب ألا يتجاوز جوابك اربع صفحات من قيـاس اوراق الآلة الكاتبة .

الأسئلة :

١ – ما هو الله ؟

٢ – ألا تظن ان الله هو الرسالة الدائمة للثورة ؟ اذا كنت تظن ذلك ، فما هي المرتبة التي يحتلها هذا الظن في حياتك ؟

٣ – أتكون مجانيـة الله ومجانيـة الثورة مترابطتين ، تقويان معـاً وتضمحلان معاً ؟

٤ – أترى ان مذهب « الاستديو ٢٧ » القائل بان الله يبـدأ حيث ينتهي الشعر ، يكفي ليبعث في نفسك الشعور بانك رجل اوروبي ؟

٥ – ما هي أسباب يأسك ؟

وتفضل ، يا استاذي العزيز ، بقبول ، الخ ...

ملاحظة . — سنطبع نشرتنا هذا المساء ، الساعة التاسعة ، أفلستطيع ان نعلل الامل بوصول جوابك قبل فوات الاوان ؟

اعادت السيدة دندبو الرسالة الى كوستال وهي تقول :

— اعترف لك باني لم افهم منها شيئاً .

— لا عجب في ذلك ، يا سيدتي ، فليس فيها ما يُفهم .

— أتلاميذ كاتبوها ؟

طرحت هذا السؤال اذ تذكـّرت ان ابنها كان يكتب اشياء من هذا النوع لما كان تلميذاً في السادسة عشرة من العمر .

فاجابها كوستال :

— لا ، يا سيدتي ، اني اعرف بعض موقعي هذه الرسالة ، وهم رجال يناهزون الثلاثين من العمر . لكن في باريس اوساطـاً يتأخر افرادها في بلوغهم سن الرشد .

ووضع يده على جبهته ، ثم استطرد قائلاً :

— وهكذا ترين اننـا لم نستطع ان نهتم نصف ساعة بالامور الجديّة دون ان يقاطعنا مرتـين اولئك الذين اسميهم « الجانـين » ، لانهم اناس يفتقرون الى تلك الفضيلة الرئيسة والبالغة الأهمية التي هي حسن الذوق . فالحياة الفرنسية كلها مشوبة بتيارات هؤلاء الجانين الذين تجد بينهم النساء العائشات في دنيا من الاوهام ، وانصاف المفكرين الذين يعتبرون الالفاظ كل شيء ، والبورجوازيين الذين اعمتهم اعتباراتهم الطبقية ، وابناء الشعب الذين طغى عليهم الجهل . وهم دائماً بعيدون عن الحقيقـة الواقعية لسبب او لآخر . ومع ذلك فان لهم حق التصويت في مجلس هـذه المأساة التي نحياها . أتشعرين بعظمة هـذه الاوضاع الشكسبيريّة ؟ فالبطل هو الذي يقبض بيده على المصائر ، غير انه لا يستطيع ان يقرر شيئاً ، مهما يكن تفكيره ، مـا لم ينل موافقة الجانين . والذين يُذهلونني اكثر من سواهم ،

هم مجانين الفكر والذكاء الذين انقضّوا علينا منذ قليل ، وملأوا آذاننا بصخبهم بينما كنا نبحث قضية جدّية ... ان جنسهم من جنسنا في اعمق جذوره . فهم طلّاب السوربون [1] الذين تحدث عنهم رابليه [2] ، والمتأنقات والاطباء الذين صوّرهم موليار في مسرحياته ، والمقاتلون الذين اشار اليهم نابوليون . فالغلاظة الحمقاء هي الطابع الابدي الذي تتسم به فرنسا . يقال ان كل شيء عندنا ينتهي باغنية . إلا ان كل شيء ينتهي ايضاً بفكاهة ماجنٍ [3] ، لكن هذا الماجن يعتبر نفسه شيئاً عظيم الاهمية ...

وبعد ، فاين كنا من حديثنا ؟ آه ، تذكرتُ ! كنا في الحديث عن فقدان الكلس من جسم سولانج ... اذاً فقد اتفقنا ، سأتزوج بابنتك .

وكانت السيدة دنديو قد عانت برباطة جأش قراءة رسالة الشباب الفكر وحديث كوستال عن المجانين ... فاصبح عقلها بعيداً عن المكان الذي كانت فيه ، واعتبرت قضيتها منتهية منذ امد بعيد ، ومنتهية لغير صلحتها . فلم تنتفض حين وعد كوستال بالزواج بسولانج ، كأنها فوق متناول كل تأثير ، فاكتفت بان تقول :

— ما برحتَ تؤكد ، منذ نصف ساعة ، انك لا تستطيع الزواج بسبب عملك الادبي ، فهل غيّرت رأيك من جديد ؟

— ان الموقف الذي اتخذته متين كل المتانة . إلا ان هناك مواقف اخرى متينة كل المتانة بالنسبة الى الغرض الذي نحن في صدده . ولا شيء

---

١ ـ مقر الدروس العامة في جامعة باريس ، انشأه الكردينال ريشيليو عام ١٦٢٦ .

٢ ـ فرنسوا رابليه (١٤٩٤ — ١٥٥٣) كاتب وطبيب وكاهن فرنسي . وضع قصة خيالية بطلاها العملاق غرغنتوا وابنه بنتاغرويل . لاذع الفكاهة ، دمث المزاح . حاول تجديد الفلسفة والاخلاق في ضوء الفكر القديم ، ومزج اطرف النوادر المضحكة بفلسفته الطبيعية ، فكان ادبه سائغاً ، سهلاً ، يزخر بالحيوية .

٣ ـ استعمل المؤلف هنا كلمة : Canulard ، وشرحها بقوله انها تعني المزاح في لغة طلاب دار المعلمين .

اسهل عليّ من الانتقال من موقف الى آخر ، كما انتقل من غرفة الى اخرى ؛ فالاثاث هنا مختلف عن الاثاث هناك ، وترتيب كل غرفة يختلف عن ترتيب الغرفة المجاورة لها ، غير أن البيت واحد . ان أفضل طريقة لاستعمال البيت هي ان يقيم المرء في هذه الغرفة او في تلك بحسب مزاجه ، او الساعة التي هو فيها ، او احد فصول السنة . لماذا غيّرت رأيي الآن ؟ لأن هذه (واراها سن سولانج) لم تعد مزاحاً ماجناً . فعندما تذبل فتاة وتفقد صحتها لان الرجل الذي تحبه تركها فريسة للشك ، لا تكون مسألتها تافهة يمكن الاغضاء عنها . ان سولانج تعالج مسائل حقيقية غير مسائل اولئك الصعاليك الذين يريدون « اعادة النظر في اوضاع الكون » ، وكلٌ منهم يرتجف خوفاً امام بوّاب البناء الذي يقيم فيه .

قال هذا ومزق رسالة الشباب المفكرين ارباً . ثم قال :

— ليس سبب عذاب سولانج من الاسباب المضحكة كأسباب ثلاثة ارباع الآلام النفسانية التي يعانيها البشر . وانت ، اذا كنت كئيبة لان ابنتك تفقد الكلس من جسدها ، فلا شيء في الدنيا معقول اكثر من كآبتك . اما انا فحين اقول لك : « لتكن سلامة الانتاج الادبي شريعتنا العليا » ، اعلم حق العلم ان موقفي محترم وقوي ، لكني اعلم ايضاً ان ثمة حالة يصبح فيها هذا الشعار مزاحاً ماجناً . وفي مثل هذه الحال اخرج من المزاح الماجن واتزوج . سأتصل غداً بالكاتب العدل واكلفه وضع صيغة عقد الزواج ، واطلب اليه ان يتصل بالكاتب العدل الذي تنتدبونه انتم لهذه الغاية ...

ورنّ جرس الهاتف في البهو ، فانقضّ كوستال على الخط وقطعه مزمجراً : « ليصمت البلهاء الآن ! »

ولحقت به السيدة دندلو الى البهو كأنها هرّ يحمل عصفوراً في فمه . ولم تكن تشتهي إلا ان تنعم برؤية فريستها على حدة ، في اعماق الجحر

العائلي . وقد ادركت ان الكلام اصبح عديم الفائدة ، فلم يبق عليها إلا ان تتصرف .

وكان الماء يخرّ في المرحاض المجاور ، لان مجاريه كانت معطّلة ، خرير النافورة في صحن دار مغربية .

صافحت السيدة دنديو كوستال ، وضغطت على يده بقوة وهي تقول له : « انك رجل شهم على كل حال » .

وازداد اضطرابها فاستطردت قائلة :

– اتمنى لك ليلة سعيدة .

فاجابها ، وقد بدأ يستعيد قوته :

– اني اتمناها لنفسي ايضاً .

واحست انها متضايقة ، وان وجودها مع كوستال يضايقه ، فمشت الى الباب قائلة :

– ساخاطبك غداً بالهاتف .

احس كوستال انه مخدوع حين قالت له السيدة دنديو انه رجل شهم ، فقال في نفسه : « هذه قفزة الاحمق الى الهوّة [1] » .

---

١ – في اللغة الفرنسية عبارة تدل على التهوّر هي : Le saut dans l'abime ، ومعناها : القفز الى الهوّة . وقد تلاعب المؤلف بالالفاظ فكتب : Le sot dans l'abime ، فتغير المعنى واصبح : « الابله في الهوّة » ، من غير ان يتغير اللفظ .

٤

من

اندريه هاكيو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

١٠ كانون الاول ١٩٢٧

ركبتُ الدرّاجة الهوائية بعد ان هجرت هذه الرياضة مدة سنة ، فارتطمت بينكِ في الحديقة العامّة . وها انا اعاني ألماً في ركبتي ، وأخشى ان اكون مصابة باحتقان زلالي . هذه نتيجة ادعائي القدرة على « الاختلاط بالعالم الخارجي » ، وانا غير مؤهلة له .

تركتني استنقع في جهلي ، في عجزي عن القيام بعمل مفيد ، في اضطراب اعصابي ، في جفافي ، بينما الذكاء الحقيقي يوسّع مجالات الحياة ولا يضيّقها ، يُخصب العمر ولا يعقّمه .

لو عشت في ظل حبنا لتشعّبتُ ، ولوسّعتُ حلقات الحياة حولي ، كما تتسع حلقات الماء حول حصاة ألقيت فيه . ومع ذلك ، كن خالي البال ، مرتاح الضمير ، فشقائي كان مستحكماً بي قبل ان اعرفك ، وظل مستحكماً بعد هجرانك . ان المحنة المهيمنة عليّ لشاملة ، فحدّها الادنى

هو ارتطامي ببنك الحديقة ، وحدّها الأعلى هو عجزي عن الاختلاط بالناس . لقد عشت طويلاً في الكتب ، فلم اعد قادرة على خلق مجال للاتصال بالمخلوقات البشرية .

اشجع نفسي دائماً ، فاقول : « سأفتح غداً هذا المجال » . واحزم امري فاصمّم قائلة : « سأباشر عملي عندما ابلغ الحادية والثلاثين من العمر ... يوم ٢٣ نيسان . ومن الآن الى هذا اليوم ، لا فائدة من بذل المحاولات ، ما دمت قد قررت ان اصبح امرأة جديدة بعد ثلاثة اشهر » .

اني اعطي نفسي هذه المهلة بدافع الجبن المستولي عليّ ، وغايتي منها الحصول على القليل من الراحة الوهمية . وانا على يقين باني ساعود ، في ٢٣ نيسان ، الى ما كنت عليه من العجز والحرمان ، مع اني شابة ، متعافية ، وليس في وجهي ما يثير القرف ، على الرغم من كل ما يخامر ظنك . فكيف تمسي حالي متى ذبلت وغدوت مريضة ؟

يقولون لي : « تزوجي » . بيد اني غير صالحة للزواج ان لم احب حباً عظيماً . لن اخضع جسدياً وجنسياً لسيطرة رجل ، إن لم يكن قد سيطر عليّ معنوياً من قبل . وما دام الحبيب الوحيد المتفوّق قد تهرّب من حبي ، فلن ابحث عن حب جديد . يساورني القرف الشديد كلما فكرت باختلاق حب لا حقيقة له ، او بالتمويه على نفسي بحب اعرفه وهمياً تافه المصدر . ويؤلمني شعوري باني اقود عملية الحب واوجهها لاني الجانب الاقوى فيها ، ثم يؤلمني ان لا اعلم لماذا احب ، وان يكون حبي مقتصراً على حاجتي اليه .

يقولون لي : « انك بلا عمل ، فاذهبي الى اورليان ، وحتى الى باريس ، واشتغلي » . ولاني لم اتعلم مهنة ، فلا بد لي من القبول بوظيفة في مكتب . والحياة في المدينة كثيرة النفقات ، لا تترك لي من راتبي اكثر من المبالغ الزهيدة التي اجدها الآن بين يدي ، ناهيك بان الحياة في

المدينة لا توافق الصحة كالحياة في الريف ، ولا تترك لي مجالاً من الوقت لاعمالي الخصوصية ، فضلاً عن كونها متعبة ترهق الذهن والحواس . ولا اعتقـــد اني اجد في المدينة ، اكثر مما اجد في الريف ، اناساً يعلموني تحطيم الجليد الذي يكبلني ، او اناساً يعلموني كيف اتصرف اذا حالفني الحظ وتمكنت من تحرير نفسي ، وكيف اتصرف لانعش حياتي بـ « حب ثان » . كانوا يقولون في ايام الحرب : « قـــام المقاتـلون بمحاولة ثقب واختراق » اما انا فاراني عاجزة عن اختراق نطاق الانفراد الجهنمي الذي يحيط بي . اني تائهة على الهوامش ، لا على هوامش حياة الرجال ، بـل على هوامش الحياة بأسرها . انظر خفية ، اتنصت وراء الابواب . وها انا شكسة ، عديمـة الحذق ، اذا كنت على علاقة طيبة برجل لا اراه إلا قليـلاً ، فاني اجتنب الالتقاء بـه لعلمي بان سوء تصرفي ينفره مني حتماً .

النساء ؟ انهن يكرهنني . ثم اني لا اهتم بهن مطلقاً .

الرجال ؟ اني لا اعجبهم ، وهذا واقع حالي .

اذا كان الرجل متوسطاً ، واتفق انـه لا يعرفـني ، فانـه يعتبرني ذكية ومفكـرة اكثر من اللزوم . وقد اتهمني احدهم باني متصنعة ! أمتصنعة أنا ؟

في الصيف الماضي ، خلال العطلة المدرسية ، قلت يوماً لشقيق احدى صديقاتي ، وهو طالب : « انك لا تعمل شيئاً مـن الصباح الى المساء . اقرأ ، دوّن ملاحظاتك ، أغنِ نفسك بالمعرفة » . فكانت عبارة : « أغنِ نفسك » ، موفقة جداً في اثارة الهزء والسخرية . ويبدو انها من العبارات التي يجترها خريجو دار المعلمين . اما الرجـل الذكي الوحيد الذي التقيته في حياتي ، فانت تعرف اكثر مني ما هو حظي منه ...

الاولاد ؟ قلت لك مرات عديدة اني لا اجد فيهم ما يجذبني اليهم . فانا من صنف النساء العاشقات ، لا من صنف الامهات . وبين الصنفين

فارق كبير، على ما اعتقد . فبين النساء من تستطيع ان تصير اماً مرات عديدة وان تكون عاشقة ، وبينهن نساء وفتيات اذا احببن رجلاً ، لا يحببن من خلاله إلا الابناء الذين يأملن انجابهم منه . وعلى الرغم من اني لست من صنف الامهات ، أراني شديدة الاسف لاني لم اصبح اماً . ومما يؤلمني ويثيرني اكثر بكثير من حرماني الامومة ، اني لم أحصل على تلك الاشياء الجوهرية ، ومنها المعرفة الكبرى ، واعني بها معرفة الحياة في احوال ما ازال اجهلها كل الجهل ، وما الامومة إلا حالة من هذه الاحوال .

هذه هي كآبتي المزمنة ، الناجمة عن الحرمان . اما الجديد في حياتي فهو ما حدث لي وما شعرت به في تشرين الاول الماضي . فقد اضطررت الى الذهاب مع عمي الى اورليان لتوقيع بعض المعاملات المتعلقة بتركة احدى عماتي . وبينما كنت جالسة في المحطة بانتظار القطار ، رأيت اطفالاً يلعبون ، ثم دنوا مني وراحوا ينظرون اليّ بمحبة واضحة وثقة تثير الدهشة ، ويضعون ايديهم الصغيرة على ركبتيّ . لم يشعروا باللعنة الحالّة بي ، فكان لعطفهم عليّ تأثير عميق في نفسي . غير اني لزمت الصمت ، ولم أدرِ كيف اخاطبهم . ولو قلت لهم شيئاً لما لبثوا ان ابتعدوا عني . فاني لعاجزة عن الاحتفاظ حتى بهؤلاء الصغار . وكانت احدى امهاتهم جالسة الى جانبي ، وكل ما فيها يدل على انها تود التحدث اليّ . إلا اني تهربت من الحديث .

لو حدثتني لخجلت من الاعتراف لها باني عزباء . ولو كذبتُ وقلت لها ما حدثتني النفس بأن اقوله ... لو قلت لها : « انا ايضاً ام ولي طفل مثل هذا » ، لفضحتُ نفسي ، ولاتضح كذبي ، لأني لا اعرف شيئاً عن شؤون الامومة ، فكيف التحدث عن القمط ، والحزائم ، واوقات الرضاعة ، وانا اجهلها كما تجهلها انت ؟ وما الذي استطيع التحدث عنه غير الكتب والحب ؟ اني لا اعرف شيئاً من شيء ، لا احسن السباحة ،

ولا سَوق السيارة ، ولا ركوب الخيل ، ولا الغناء ، ولا العزف على البيانو ، ولا الطهي ، ولا الخياطة ، ولا ركوب الدراجة الهوائية إلا اذا شئت ان ارتطم بشيء ما . عندما افهم برغسن[1] يخيل اليّ اني في مستوى برغسن . اما اذا حاولت عمل شيء من المربيات فهذا موضوع آخر ، ومسألة فيها نظر .

نهضتُ من المكان الذي كنت جالسة فيه بالمحطة ، وابتعدت عن الاطفال ، وفي نفسي مرارة اليأس . وتراني الآن كلما سمعت طفلاً ينادي امه : « ماما » ، احس كأن خنجراً يغوص في قلبي . هؤلاء النساء اللواتي افضلهن بصفات عديدة ، وبينهن كثيرات من الحقاوات ، لهنّ اطفال ، بينما انا ادور بلا انقطاع حول الجنات المقفلة في وجهي ، واسير منفيةً عن البشر ، لا احلّ في مكان إلا واحمل اليه جواً من الصقيع ، والشبهات ، والتفاهة المضحكة ...

الويل للنساء اللواتي لا بيت عائلي لهن ! الويل لهن كلما طاردن ازواج النساء الاخريات واولادهن، تلبية لحاجتهن الى الحب ! انهن كالكلاب الشاردة ، وكالقطط اللاجئة الى غير اصحابها . فعندما اقبض على هر جارتنا ، واضمه الى صدري ، واقبله بحرارة ، ينظر اليّ بدهشة ، ويبدو كأنه يفهم سبب محبتي .

وبعد رحلتي الى اورليان ، ارسل اليّ الكاتب العدل ، كما ارسل الى عمي ، حصتي من تركة عمتي ، وقدرها الف وخمسمائة فرنك ، فكان هذا

---

١ ـ هنري برغسن (١٨٥٩ – ١٩٤١) فيلسوف افرنسي وضع نظريات جديدة في الحدس ومعطيات الوجدان ، واعتمد في جدله على العلم والمنطق . وأبرز ما في نظرياته تجريد معطيات الوجدان من قيود المكان والزمان . اشهر مؤلفاته : « معطيات الوجدان الفورية » ، و « المادة والذاكرة » ، و « التطور الخلاّق » ، و « ينبوعا الاخلاق والديانة » . كان عضواً في الاكاديمية الفرنسية . واحرز جائزة نوبل عام ١٩٢٧ .

الارث هديّةً هبطت عليّ من السماء !

تسلّمته وانا كبيرة الاهتمام بالاولاد ، وباسفي المرير لاني محرومة من الامومة . فخطر في بالي فوراً ان اقدم هذا المال لروضة الاطفال الايتام التي تتولى ادارتها عندنا راهبات القديسة « اوبورتون » . ان مبلغ الف وخمساية فرنك ثروة محترمة بالنسبة الى سان ليونار . فاصبح « المحسنة ! » التي تفتح لها ابواب الروضة متى ارادت ، ولا يُرفَض لها طلب . عجزت عن دخول الانسانية دخولاً طبيعياً بوسائلي العادية ، فقررت ان اشتري حتى هذا الدخول ، وان ادفع مبلغاً من المال ليحق لي الاعتناء بهؤلاء الاطفال كأنهم ابنائي . اردت ان ادفع ثمن سبب يبرر وجودي . وكانت فكرتي في منتهى الفظاعة حقاً ، لكن ما حيلتي ما دمت لا اجد سبيلاً آخر لارواء غليلي ؟

وبعد ان فكّرت ملياً في هذا الامر ، بدأت أرى ما قد ينتظرني في وقت قريب . فالراهبات يقبلن تقدمتي بسرور ، ثم يعملن على تنحيتي واقصائي عن الروضة . لماذا ؟ لاني في هذه البيئة الصغيرة لا استطيع ان اكون إلا شكسة ، عديمة الفائدة . فهي ليست المكان الصالح لي . ولا بد للراهبات من ان يتساءلن : « ما الذي تريد ان تعمله هنا ؟ » لانهن لا يدركن حقيقتي ، لا يدركن حاجتي ...

اواه ! رأيت هذا كله بوضوح : رأيت ارتباك الراهبات المحسنات بين واجب اللياقة المفروض عليهن نحو « المحسنة » ، وبين ما يشعرن به من البعد عني ، وهو بعد له اسبابه وجذوره العميقة ، لاني لست منهن ، ولاني لا استطيع الانتماء الى جماعة ما من البشر . فعدلت عن تقديم المال . فعندما اتشبث بالآخرين لاغنم منهم سعادتي واجد منهم مقاومة ، تظل المصيبة هيّنة ؛ اما ان يطرحني خارجاً الذين أسعى الى اسعادهم وحدهم ، فهذا ما لا يطاق .

ولأكن جدّية وصادقة . فانا اعلم حق العلم اني لم اكن ابحث عن

سعادة اولئك الاطفال ، بل عن سعادتي . اني ابحث دائماً عن سعادتي ، ولا تهمني سعادة سواها . ولو قدمت هديتي لما كان الاطفال إلا وسيلة اخرج بها من نفسي ، من حقيقتي . ومن المسلّم به ان التفاني في سبيل الآخرين ليس من طبيعتي . ان افضل ما تستطيع الفتاة عمله عندما تبلغ من العمر ثلاثين عاماً وتسعة اشهر ، هو ان تصبح اختاً كبرى ، وان تساعد الآخرين . ويبدو ان الاشقياء يجدون في عمل الخير قوةً تخفف آلام شقائهم على ما يقال . لكني اعتقد ان المرأة لا تقدم على هذا التفاني إلا اذا كان لها من ماضيها ما يشجعها — اذا كان لها ماضي امرأة نالت شيئاً من الحياة ، فجاءت تطرح في هذه الحياة التافهة ، وفي هذه العناية بالاشخاص التافهين ، قشرة من حياتها ، بعد ان امتصت كل ما كان فيها من العصارة .

اتاح لي هذا الحادث الصغير ان افهم فئة من الناس ، وان اشفق عليهم ، واعني بهم الذين يملكون مبالغ ضخمة من المال ويبذّرونها يمنةً ويساراً ، فلا يتمكنون من بلوغ السعادة . اما الذين لا يملكون شيئاً ، لا مال ولا سعادة ، فمصيبتهم أشد وادهى . إلا ان من تحل به هذه المصيبة يتعزّى قائلاً : « لست سعيداً لاني لا املك مالاً » ، فيحافظ على حسن ظنه بنفسه . ومن لا يملك مالاً ولا يملك السعادة يقول : « ان فيَّ لشيئاً يبعد عني الناس ومباهج الحياة » .

من الفرنكات الألف والخمساية ، ما ازال احتفظ بألف ومائة . انفقت اربعماية لشراء ثوب ، ولتجليد بعض الكتب ، ولشراء كتب جديدة . اشتريت جميع مؤلفات « سانت بوف »[1] . اردت ان استبدل

---

١ – شارل اوغسطين سانت بوف (١٨٠٤ – ١٨٦٩) كاتب ونقاد فرنسي . بدأ حياته الادبية رومنطيقياً فنظم قصائد واناشيد ، ثم كرّس قلمه للنقد ولتاريخ الآداب . اشهر مؤلفاته : « صور ادبية » ، و« بور رويال » ، و « احاديث يوم الاثنين » .

المال بحياة ، فاخفقت على الرغم من جميع جهودي ، وما استبدلته إلا بـ « لاحياة » . وهكذا يحاول المرء احياناً ان يكون شيئاً آخر غير ما هو ، ثم يتراجع . فاقلّ الاعمال صعوبة هو ان يظل المرء ما هو . ان الكلب يعود الى ما تقيأ ويأكله من جديد .

أ . هـ

(وُضعت هذه الرسالة في ملف خاص من غير ان يفض غلافها)



٥

بعد ان قال كوستال : « نعم » ، للسيدة دنديو ، عاد الى قاعة الاستقبال في منزله ، وارتمى على احد المقاعد الوثيرة . وكانت الفكرة الاولى التي تبادرت الى ذهنه عن كونه « خطيباً » على شيء من التفاؤل .

كان الباب المؤدي الى البهو مفتوحاً ، ومجاري المياه في المرحاض تتابع خريرها الشبيه بخرير نافورة مغربية ، فقال في نفسه : « إيه ! يا عزيزتي سولانج ، ان هذا الخرير في المرحاض سيكون في نطاق اختصاصك » .

ووقع نظره على بطاقة الوزن الملقاة على الطاولة ، فتناولها وقرأها من جديد ، فاحس بموجة من العطف تفيض من اعماقه ، وقال : « يا لها من صغيرة مسكينة ! لكن منذ الآن ستستعيد حمنتها الغابرة كأننا نفخناها بضخة هواء ! »

واستمر الصراع بين عقله وقلبه . فما استجاب يوماً لداعي الخير والسخاء ، إلا انتابته ازمة حادة من الكآبة . وكم مرة افسد عليه ملذاته وافراحه شعوره بانه قام بالواجب ! فقد قام بعمل يدل على الشهامة منذ سبع سنوات ، ومنذ سبع سنوات ما برح يلوم نفسه على ما فعل ؛ واقدم على بادرة طيبة منذ اثنتي عشرة سنة ، ومنذ اثنتي عشرة سنة ما انفك يلوم نفسه .

رأى ، ذات ليلة ، في المنام ، ان الحرب نشبت ، وان الحكومة طلبت متطوعين ، وانه تطوع ، وبينما كان يسير في العرض مع الجنود الذاهبين الى جبهة القتال ، كانت دموعه تجري بغزارة على خدّيه . ولم تكن هذه الدموع ناجمة عن فظاعة الرحيل ، بل عن فظاعة اختياره لهذا الرحيل ، وهو القادر على البقاء بعيداً عن الخطر . ذلك كان « عمل الخير » الذي يؤلمه ويحزّ في نفسه .

ولما تفوّه بالـ « نعم » المتعلقة بالزواج ، توقع ان تحل به ازمة من الكآبة والانهيار المعنوي ، إلا انه لم يشعر بشيء . فقد قضي الأمر ، وتبدد الشرّ المرتقب في جوّ من الشك والغموض . وجل ما شعر به ، في هذه المناسبة ، انه اصبح في موقفٍ حرج ، وان عليه ان يواجه الواقع ، وان يتدبره بالتي هي احسن ، وان يستخلص منه افضل النتائج . هـذا ما كانت تتطلبه منه الرجولة الحقيقية . وعلى هـذا الاعتبار ظل هادئاً بالرغم من اقدامه على عمله الجنوني .

وراح يقول في نفسه : « على كل حال ، ستنتهي هـذه المشكلة بعد سنتين . اني اليوم في الرابعة والثلاثين من العمر ، وفي مثل هـذه السن مات يسوع المسيح . جاء في الكتب انه مات في الثالثة والثلاثين ، لكني افترض انه صغّر عمره سنةً حسب العرف والعادة . وفي السادسة والثلاثين اكون قد استعدت حريتي . والمعروف عن طيباريوس[1] انه بدأ يتنعّم بمباهج الحياة لما بلغ الخمسين من سنيه » .

وتعشى كوستال عشاءً دسماً ليكتسب قوة تساعده على مواجهة التجربة المقبلة . واقام طوال السهرة ينتظر مخابرة هاتفية من سولانج ،

---

١ ـ امبراطور روماني ملكَ من سنة ٤٢ الى سنة ٣٧ ق.م. تبناه اغسطس قيصر ، واشتهر بالمرونة والحذق في ادارة شؤون الامبراطورية ، إلا انه كان مستبداً قاسياً .

ويفكر بصوتها المرتعش سروراً . وكان يبتسم مرتاحاً فتكاد الكلمات التي سيقولها لها تخرج مسبقاً من بين شفتيه : « لك التهنئة ، يا صغيرتي ، فقد انتصر عنادك ! انت بغلة البيت العائلي التي يتغنى بها الناس الطيبون !... ومنذ اليوم ، لا بد لي من اخفاء مخطوطاتي عن ناظريك ، كما كان يفعل تولستوي مع زوجته ... »

لكن جرس الهاتف لم يرن . فدهش كوستال ، واحس بشيء من الخيبة ، ثم فكّر : « ربما كانت مدعوّة الى تناول العشاء خارج البيت » .

وفي اليوم التالي ، لما اتصل هاتفياً بالكاتب العدل ، الساعة التاسعة والنصف ، ليتفق معه على موعد ، لم تكن سولانج قد اتصلت به بعد . واستمر صمتها بعد الغداء ، فراح يخاطب نفسه قائلاً : « ما برحت متشبثة بي منذ ثمانية اشهر لتسمع مني كلمة « نعم » ، فلما لفظتُ هذه الكلمة لم تُسرّ بها . لو كانت لي معرفة بنفوس الناس تساوي قرشين لحزرت مسبقاً ما يحدث الآن . لكني لا املك من المعرفة ما يساوي قرشين . والمعلومات « النفسانية » التي يضعها الروائيون في مؤلفاتهم اصبحت معروفة ، فما هي إلا ذر رماد في العيون من ألفها الى يائها . لن انسى هذه الصدمة مهما يكن المستقبل حافلاً بالمباهج ؛ لن انسى اني ، حين اعطيتها ما كانت تتوق اليه نفسها بكل ما فيها من حرارة ، لم تفكّر بان تتناول سماعة الهاتف لتقول لي كلمة شكر .

« هي البعيدة كل البعد عن اجواء العاطفة والخيال اصبحت الآن في قلب مغامرة جديرة بان تكون موضوعاً لرواية ؛ وانا الشديد الحذر اوقعت نفسي في ورطة كنت بغنى عنها . ان المتردّدين يماطلون ويناورون طوال اشهر عديدة ، واخيراً يستولي عليهم العياء ، فيتخذون قراراً اعتباطياً ، ويسيرون في الاتجاه الأشد خطراً . فالقرار الى الخطر هو ردة فعل الضعفاء . وكل ما اعرفه عن نفسي يقنعني باني لست متردداً تستبد

به الحيرة ، ولا ضعيفاً . غير انها جرّتني الى ميدان ليس هو ميداني ، وهذه هي اساءتها الكبرى اليّ . مهما يكن الضابط في القوى البرية شجاعاً ، فقد يصبح عاجزاً عن العمل اذا وُضع في طائرة او في غوّاصة . لكلٍ منا جوهره الخاص ، ومجاله الخاص ، ولا يجوز اخراجه منها » .

كثيراً ما تستولي الدهشة على بعض المفكرين عندما يلمسون حماقة بعض القادة العسكريين الذائعي الشهرة ، وبعض مارشالات فرنسا عندما يكونون خارج نطاق اختصاصهم . غير ان هذه الحقيقة يجب ان تظل سراً ، وإلا حُرم من يبوح بها ارتداء الثوب الاخضر [1] ، وهذا هو الشقاء الاكبر الذي يعانيه المفكرون . اذا نظرنا الى غالياني [2] ، من خلال ما قاله فيه ليوتي [3] ، رأينا انه لم يكن من هذا النوع . فقد روى لنا ليوتي نادرة عن غالياني جديرة بالتسجيل والحفظ ، خلاصتها ان ليوتي كان يوماً في تونكان [4] يتأهب لخوض معركة في اليوم التالي . ولما شرع يتحدث عن الخدمة والاستعدادات العسكرية ، قال له

---

١ - ثوب من ينتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

٢ - جوزف غالياني (١٨٤٩ - ١٩١٦) مارشال فرنسي ، خدم في السودان وتونكان ، ونظم جزيرة مدغشقر ، وعيّن حاكماً عسكرياً لباريس عام ١٩١٤ ، وساهم في انتصار القوات المسلحة الفرنسية في معركة المارن . تولى وزارة الحربية من عام ١٩١٥ الى عام ١٩١٦ ، ورُقيّ الى رتبة مارشال عام ١٩٢١ ، اي بعد وفاته بخمسة اعوام .

٣ - لويس هوبير ليوتي (١٨٥٤ - ١٩٣٤) مارشال فرنسي ، لمع في الهند الصينية ، ومدغشقر ، والجزائر . من عام ١٩١٢ الى عام ١٩٢٥ ، نظم الحماية الفرنسية في المغرب ، وصان هذه الحماية بقوة خلال الحرب العالمية الاولى ، بالرغم من جميع المحاولات التي قام بها الألمان ليبسطوا نفوذهم على افريقيا الشمالية . تولى وزارة الحربية من عام ١٩١٦ الى عام ١٩١٧ ، وكان عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

٤ - من مناطق الهند الصينية ، وتعرف اليوم باسم فياتنام . كانت مستعمرة فرنسية .

غالياني : « دع عنك هـذا الآن ، فالاوامر قد صدرت ، وكل مـا يجب عمله قد تمّ ، ولا فائدة من العودة الى البحث والتدقيق . انك مثلي في مسيس الحاجـة الى الاحتفاظ بقدرتـك على التفكير . فلنتحدث عـن ستيوارت مِل[1] ، وسنرى ما يحدث غداً » .

قال هذا ، واخرج من معطفه كتابين ، احدهما لستيوارت مِـلّ ، والثاني لدنّونزيو[2] .

تلك بادرة لا تبدو إلا من رجل عظيم . واراهن على انه كان ينظم قواته افضل تنظيم ، ما دام ينظم نفسه بمثل هـذه القوة . كان يسيطر على الاحداث كما يسيطر على نفسه .

وكان من المقرر ان يلتقي كوستال سولانج في ذلك المساء . وما دام قد اتخذ قراره ، فليغنم ، على الأقلّ ، ما يغنمه الناس عادة من القرارات المتخذة ، اي راحة الفكر ، وحرية التصرف في شؤون اخرى .

من الساعة الثانية الى السابعة بعد الظهر ، أكبَّ على تنقيح روايته الاخيرة ، كأنه لم يطرأ على حياته شيء جديد . وبلغ من حرية التصرف حـد التفكير بطريقته في حب النساء ، فوجـد لروايتـه عنواناً هو : « الاحتقار في الحب » .

ولما وصلت سولانج الى منزله ارتعش من رأسه الى قدميه ، فقد كان ثوبها فضفاضاً عليها ، خصوصاً حول نحرها وردفيها . ويا لوجهها كم تغيّر !

---

١ - جون ستيوارت ملّ (١٨٠٦ - ١٨٧٣) فيلسوف انكليزي من المدرسة الاختبارية ، وضع دراسة ضخمة عنوانها : « المنطق بالاستقراء والاستنتاج » .

٢ - غبريالي دنونزيو (١٨٦٣ - ١٩٣٨) كاتب ايطـالي شعري النفس ، تغنى بالحب وبالاحاسيس النـادرة . اشهر مؤلفاتـه : « انتصار الموت » ، و « ابن الشهوة » ، و « عذارى الصخور » ، و « النـار » ، فضلاً عـن قصائد عديدة امتازت بالحرارة ورهافة الشعور . كان من اشد الداعين لدخول ايطاليا الحرب العالمية الاولى الى جانب الحلفاء .

رقّ عنقها ، والتصق جلدها بعظم فكّيها ، وتراخت ملامحها ، وزادها تبرّجها دمامةً . فلا عجب اذا كانت قد احست بحاجتها الى التبرُّج . وكانت تلك المرة الاولى التي رآها فيها متبرّجة . لكن لا تسل كيف تبرجت ! فقد طرشت وجهها بالبودرة بلا عناية ، فملأت بها اذنيها . فلما خلعت قبعتها مسحت بها جانباً من جبهتها التي اصبحت بلونين ، احدهما اصفر والآخر ابيض، فكانت جبهة تجلّى فيها عَلَمُ البابوية . اما تسريحتها فكانت تسريحة زوجة شابة ، ارادت ان يسبق مظهرُها الحدثَ السعيد .

قام اليها وضمها برفق ، وبنوع من العطف ، ثم جلسا على مقعد طويل ، فامسك بجلد مرفقها بين ابهامه وسبابته وشدّه قليلاً ، ثم جعل يمازحها بارتباك ، قال :

— يا صديقتي المسكينة ، ما الذي حلّ بك ؟ منذ هذا اليوم سأراك تستعيدين عافيتك واكتناز جسمك . ستسمنين كخطيبة يهودية في تونس ، يعلفها ذووها علف الدواجن المعدّة للولائم ...

ابتسمت له قليلاً ، ثم عاد وجهها الى خموده السابق ، وران عليها الصمت .

لم يدر ما يقول لها . وكان يبدو له ان من شأن ما حدث بينهما ان يفجّر احاديث طويلة وكلمات عديدة ، لكنه لم يفجّر شيئاً . فاذا به متصنع ، مرتبك ، خجول امام « زوجته » . وكان هذا وضعاً لم يجد نفسه فيه إلا مرةً واحدة ، في بداية حبها ، لما ذهب معها الى الاوبرا الهزلية . قال لها :

— اخبريني ، أمسرورة انت ؟

فلم تجب . لكنه احس بيدها الباردة تنساب الى يده وتستقر فيها ، كما تأوي الافعى الى جراب الحاوي .

وبعد قليل نهضت قائلة :

– أتسمح بان ارتدي معطفي ؟

– أتشعرين بالبرد ؟

– ليس الجو حاراً في منزلك .

– اشتغلت من الساعة الثانية الى السابعة بلا حركة ولم ابرد ...

– ليست صحتي على ما يرام ، يا صديقي ، فارجو ان تعذرني . اما انت فان العافية تتدفق منك . ايطاليا كلها مصوّرة في وجهك !

ولم تنتظر منه جواباً ، بل سبقته الى البهو . وما كاد يفكر بعبارتها الاخيرة حتى لمس ما فيها من التوبيخ الخفي ، ومن البرودة ، اجل ، برودة الدم ، وبرودة القلب .

ولما جلسا الى مائدة الطعام تنهّد قائلاً :

– سنقوم برحلة صعبة ، محفوفة بالاخطار . فعلينا ان نقود سفينتنا على طريق الحياة الطويل ، وان نجتنب الغرق .

فادارت وجهها اليه ، وحدجته بنظرة فيها الكثير من الشفقة ، والاباء ، والعياء ، وقالت :

– طالما اشتهيت اقناعك بان هذه الرحلة ليست مخيفة بقدر ما تظن !

– لا ، لن تكون مخيفة . ثم اننا بحثنا هذا الموضوع كفاية ، ولم يبق لنا فيه ما يحوجنا الى ذكره . لكن لي بعد كلمة اخيرة : اطلب اليك وعداً اريده من اعماق اعماقك ، واناشد افضل ما فيك من المزايا والجوهر ان تعديني بان لا تحاولي الاساءة اليّ يوماً ما ؛ وانا بدوري اقطع لك وعداً مماثلاً في هذه الساعة . اذا كانت في الدنيا كلمات صحيحة وبالغة منتهى العظمة ، فكلمتي هذه منها . إلا اني اسائل نفسي : أعظيمة حقاً هذه الكلمة ؟ كم لفظ الناس كلمات مثلها منذ أن كان العالم !

– قطعت لك هذا الوعد العميق مرةً ، وها انا اقطعه لك من جديد . وبعد ، فدعنا من هذا الموضوع ، فانت على حق في دعوتك الى

الابتعاد عنه .

تناولا طعامها صامتين ، ثم طال صمتها .

وكان كوستال يخاطب نفسه قائلاً في سرّه :

« وقعة الخطبة هذه لا يقوى عليها النسيان . ومن الواضح ان كلمة « نعم » التي قلتها لامها لم تفرحها . اشوّش حياتي واضيّع ايامي لاجلها ، فتذهب بادرتي سدىً ولا تمنحها شيئاً من السعادة . وهذه قاعدة عامة في تصرف النساء . يجازف الرجل بحياته وبسمعته بين الناس ، فيخطف فتاة قاصرة في ساعة حماسة ، او بعد اسابيع من الاستعداد ، والقلق ، ووضع الخطط ، وحين يضمها بين ذراعيه ، بعد ذلك العناء الطويل ، تبدو كأنها هي التي تجود عليه باللقاء ، في كثير من البساطة ، ورباطة الجأش . ومن المؤسف حقاً انها لا تدرك ، او تتجاهل ، ما بذله صاحبها ليصل بها الى هذا اللقاء .

« ومهما يكن من الامر ، فاننا سنسافر الى جنوى لتمضية ايام العسل . هذه قضية مفروغ منها ، ولم يبق علينا إلا تقرير المسائل البسيطة التي لا اهمية لها . ومن الموافق ان نذهب الى جنوى . وبقدر ما يقل الحديث بيننا ، تزداد حاجة سولانج اليّ ، وتبقى لي فسحات من الوقت لاهتم بالاشياء العزيزة عليّ ، وهي ، طبعاً ، اشياء اخرى ، غير سولانج » .

كانت الآنسة دنديو تتناول طعامها في صمت تام . ومن حين الى آخر كانت ترفع يدها كأنها تقي بها عينيها من النور ، غير ان غايتها الحقيقية من هذه الحركة كانت اخفاء ما حلّ بوجهها من الشحوب .

لا ، لم تكن تشعر بالسعادة ، لان انتصارها كان مهيض الجناحين . تألمت طويلاً لتنال ما تشتهي ، فلما بلغت غايتها كانت مرهقة ، فلم تنعم بالفرح الاكبر . ثم انها كانت مرتكزة ، منذ ثمانية اشهر ، على مقاومة كوستال ، فلما استسلم ، فقدت توازنها .

استسلم ؟ اجل ، استسلم ! وها هو الآن الى جانب شخصيته الحقيقية : ها هو خجول ومرتبك امام سولانج !

ما كان اضعف هذا الملقب بـ « الرجل القوي » في اخبار الصحف ! أتراه يستطيع الدفاع عن بيته الزوجي ، وعن مصالح عائلته ، اذا ظل منقاداً كما هو الآن ؟

ربما كانت سولانج قد احترمته لعجزها عن ترويضه كما تشاء . وهي تحترمه الآن ، ولا ريب ، لسبب آخر : فقد ادركت انه لم يقدم على ما اقدم عليه إلا مدفوعاً بعامل الاريحية . إلا ان هذا الاحترام كان مضطرباً ، قليل الصفاء . فالصراع الدائم في الرجل بين أريحيته وأثرته ، بين دمه ومنيّه ، يخلق فيه جواً من البلبلة والتشويش يرهب المرأة ، ويبهرها ، ويثير شفقتها .

وفي تلك الفترة ، كانت الآنسة دنديو في مرحلة الشفقة . كانت تجتر افكارها في ذهنها وهي تأكل بصمت ، وتبذل جهداً كبيراً كيلا تحك يديها ومعصميها . فمنذ بضعة ايام اصيبت بحكاك نجم عن توتر اعصابها وفقر دمها ، فخدشت كفيها تحت الابهامين وما بين اصابعها من شدة الحك .

وهكذا انقضت الوقعة الاولى من عهد الخطبة ، وكانت وقعة لا تُنسى . كانا يأكلان وامامهما شبح رهيب ذو رؤوس عديدة : رأس السأم ، ورأس الانزعاج ، ورأس الواجب ، الخ ... او كأنه تمثال القومندور في وليمة الحجر [1] .

---

١ ـ اشارة الى مشهد من تمثيلية « دون جوان ، او وليمة الحجر » لموليار . وفيه خلا دون جوان باحدى ضحاياه ، وكان تمثال ابيها هناك ، فدعاه الى تناول الطعام معهما على سبيل الامعان في الاستهتار ، فتحرك التمثال ملبياً الدعوة . ويعتبر هذا المشهد من اشهر مشاهد الرعب التمثيلية .

قـــال كزانوفا [1] ان الامراء كانوا يعانون السأم دائمـاً في معاشرة خليلاتهم . أفتقتصر هذه المصيبة على الامراء ؟

لم يكن كوستال ، تلك الليلة ، راغباً في امتلاك هذه الفتاة الكئيبة ، الشاحبة ، الذابلة ، المصابة بالدمامل ، مع انه كان يشعر من حين الى آخر بحرارة عابرة تلهب دمه وتثير شهوته لحظة سريعة كلها عذوبة . وهي ايضاً لم تكن راغبة في الوصال ، لا لأنها لا تجد فيه شيئاً من المتعة ، بل لانها كانت تدرك الخيبة التي سيُمنى بها كوستال إن هو اقدم على مضاجعتها ، وهي على ما رأينا من الضعف والشحوب . إلا انهـا بدأت تحسب حساب الغد – بدأت تستعد لتكون بارعة التصرف : استحمت مرتين ، ففتح الماء البارد عينيها المتعبتين . ولمـا اعتذرت بانهـا مصابة بالدمامل ، وبانها تفضل الخروج من البيت والقيام بنزهة « في مكانٍ ما » ، وافق على طلبها بطيبة خاطر . واتفقا على الذهاب الى المكان الذي لا مفر منه : الى السينما . لكن اي فيلم يشاهدان ؟ تلك كانت المشكلة !

واخيراً قرّ رأيهما على شراء مجلة « اسبوع باريس » لمعرفة الافلام التي تعرض في مختلف دور السينما .

يجهد الناس نفوسهم اكثر من اللزوم ليقتلوا حياتهم ساعةً بعد ساعة . إلا انهم يعجزون عـن القيام وحدهم بهـذا القتل ، فيحتاجون الى مـن يوجههم ويساعدهم . وقد أنشئت مجلة لهذه الغاية ، تدل الباريسيين بكل دقة وانتظام على الوسائل التي تمكّنهم من اضاعة اوقاتهم . انها مجـلة تقوم بمهمتها على الوجـه الاكمل ، وهي حسنة التبويب ، عملية النزعة ،

---

[1] – اسمه الكامل جيوفاني جياكومو كزانوفا دي سنغال (١٧٢٥ – ١٧٩٨) ، مغامر ايطالي ولد في البندقية ، واشتهر بالحوادث الغرامية المدهشة حتى ضرب المثل بقدرته على الاغراء والفتنـة . روى قصة حياتـه في « مذكرات » ترجمت الى اكثر لغات العالم .

يجد القارىء فيها بسهولة ما يبحث عنه . ومن المدهش ان الذين يتولون تحريرها واصدارها فرنسيون .

لما خرجا من البيت ، جعلت سولانج تتصفح « اسبوع باريس » ، ثم قالت :

– هناك فيلم « السيد فان المدهش » ، والناس يتحدثون عنه كثيراً .

– فيلم اميركي !... أتريدين ان اتقيأ عشائي ؟... اي خطيئة تُرتكب بحق الفكر افظع من وضع الكمال التقني والفني في خدمة البلاهة والسخافة ؟

– وما رأيك في « شرطة الاخلاق » ؟

– كم مرة يجب ان اقول لك اني لا استطيع ان اشاهد فيلماً فرنسياً . ألم تجدي فيلماً انكليزياً ؟ فالافلام الانكليزية تنقذ شرف السينما . وممثلو السينما الانكليز ، من رجال ونساء ، هم والروس الاولون في اوروبا ؛ انهم يمثلون على الطراز الرفيع بطريقة طبيعية ، ولا يعرف اسماءهم احد ، بينما العالم بامره يردد اسم قحباء من هوليوود خالية من المواهب ، ولم تشتهر إلا لأن الذين اطلقوها بذلوا الملايين في سبيل الدعاية لها .

– هوذا فيلم باللغة الانكليزية اسمه « رنباو » ...

– فلنذهب اليه .

ولما وقفت بهما سيارة التكسي امام الدار التي تعرض هذا الفيلم في حيّ مونبرناس ، القى كوستال نظرة على الواجهة ، وقال :

– إيه ! يبدو لي ان هذا الفيلم عاطفي ، وعندما يجتهد الانكليزي ليكون عاطفياً ، فلا بد له من الوقوع في السخافة والابتذال . يجب ان اعلم اولاً ما هو موضوع هذا الفيلم .

وطلب الى الفتاة التي تبيع اوراق الدخول ان تسمح له بالقاء نظرة على البرنامج ، فسألته :

– أتريد ان اقطع لك ورقتين ؟

– اشتري ورقتين اذا اطلعت على البرنامج واعجبني ما فيه .

– لا يُعطى البرنامج إلا للذين حجزوا مقاعدهم .

– لا اطلب منك ان تعطيني البرنامج ، بل ان تبيعيني اياه .

– ان البرنامج لا يباع ، بل يُعطى عطاء . اشترِ ورقتين اعطك اياه . اعمل ما يعمله الجميع .

فكاد ينفجر غيظاً . ثم استدار ومضى في سبيله يجر وراءه سولانج . ولما اصبح في الشارع ، قال :

– أليس هناك فيلم تجري حوادثه في الغابات والادغال فنجد في مناظره ، على الأقل ، ما يغنينا عن القصة ؟

– بلى ، هناك فيلم « ساحر سكرامنتو » ، واظنه من نتاج اميركا الجنوبية ... (كذا) [1] ؛ وهناك ايضاً « ليلة في وايكيكي » . هل وايكيكي ...

فقاطعها بنزق قائلاً :

– نعم ، وايكيكي جزيرة في اوقيانيا . هكذا يقولون . فلنذهب الى وايكيكي . ايها السائق ، خذنا الى وايكيكي .

وانطلقت بهما السيارة الى الشانزيليزيه . ومن حين الى آخر كان يأخذ يدها بحركة عصبية . وما كادا يصلان الى امام دار السينما حتى نظر الى الصور المعروضة في الواجهة وقال :

– لم تخبريني بان هذه البغي القذرة تمثل في هذا الفيلم ! ما اجلها متنكرة تتخذ اوضاعاً فنية في الغابات البكر !... لا ، يا سولانج ! فكّري بي كما يطيب لك ، لكن اعلمي انه يتعذّر عليّ ان اشاهد هذه

---

١ ـ هذا الفيلم فرنسي ، وقد نُخدعت سولانج باسمه فاخطأت ، وكان خطأها سبباً لتهكم كورستال وسخره .

القردة طوال ساعتين . هذه تجربة تفوق قواي ، ولا قبل لي بها . عودي الى البحث في « اسبوع باريس » . ألا تجدين فيلماً روسياً ؟ اذا وجدتِ فيلماً روسياً فاني اعدك بالذهاب اليه ، وبمشاهدته الى نهايته .

— هناك فيلم « نوتيّو نهر الفولغا » .

— هذا ما كنا نبحث عنه .

وانطلقت بهما السيارة من جديد ، فشرعت سولانج تدندن بلحن نشيد النوتيين ، كما كانت في جنوى تدندن بلحن « سولي ميو » . ففكر كوستال بان في كل امرأة قحباء مستعدة دائماً للظهور ، وبان ظهورها يبدأ عندما تبدأ المرأة تدندن بالألحان .

وفي بولفار الايطاليين ترجلا من السيارة ، وألقيا نظرة على الاعلانات ، فتبين لهما ان جميع الممثلين فرنسيون ، وان الفيلم روسي الموضوع ، غير انه من انتاج مدينة جوانفيل الفرنسية .

وقفت سولانج امام احد الاعلانات ، ووقف كوستال ينظر الى اعلان آخر على مسافة بضعة امتار منها ، فصفر لها لتأتي اليه كما يصفر القوّاد لاحدى بغاياه ، فانتفضت وسألته :

— أندخل ؟

وكان العياء ظاهراً في ملامحها يزيد قسمات وجهها توتراً ، فاجاب :

— ابـداً !... لن اشاهد المهـازل الفرنسية ... لن اشاهد متشردين تافهين ، ومتنكرين بثياب امراء روسيين ...

وجعل يضرب الارض بقدميه من شدة الغيظ . وكثيراً ما كان يعبر عن غضبه بهذه الطريقة ، كالاطفال وكملوك الفرس .

قالت له :

— لندخل ، اذاً ، الى احد المقاهي .

وكان دمّل قفاها ينخسها ويؤلمها لشدّة ما خضّها ركوب التكسي ، ناهيك بان هـذا الرجل ارهقها ، ارهقها حتى الموت بمـا فيه من نزوات

الطفل المدلّل ، إن لم تكن نزوات العازب المزمن ، او نزوات الفنان المتحذلق . واتعبتها دقته في التوقيت كأنه فيلياس فوغ[1] ... بقدر ما اتعبها رماد سيكارته الذي كان يتساقط في كل مكان : على معطفها وعلى قفازيها ، كأنه الروث ... واتعبتها اخيراً غلاظته ، وقلة تهذيبه .

اجابها بعنف :

— لا ، لم نتجوّل في جميع احياء باريس لننتهي الى الجلوس في مقهى . لنتابع سيرنا في البولفارات ، فهناك دور سينما عديدة ، وقد نجد فيلماً جديراً بان نشاهده .

تأبطت ذراعه ، فاستفظع بادرتها هذه ، وخيّل اليه انها تقول له : « اني قابضة عليك ، فالى اين المفر ؟ » واطبق يده على معصمها ، فما احس بشيء من المتعة ، كأنه قبض على جانب وسادة من المطاط . ولو لامست يده معصم امرأة اخرى من اولئك اللواتي يملأن الشارع لارتعش جسمه وثارت فيه الشهوات ... لم يكن ينظر الى سولانج ، بل الى نفسه ، الى اعماقه ، ثم الى النساء الاخريات اللواتي لا يملكهن . ولم يكن يحب الآنسة دنديو . كل ما في الامر انه احب فترة عبرت من حياة الآنسة دنديو .

استرعى انتباهه اعلان مضيء عن فيلم غساوي ، فتوقف . ولما اقتربا من مدخل السينما رأيا الناس صفاً طويلاً ينتظرون دورهم لشراء بطاقات الدخول . فاعلن كوستال انه مستعد لمشاهدة هذا الفيلم ، غير انه يرفض الوقوف بالصف لينتظر دوره ، ثم قال :

— لا بأس اذا انتظر المرء دوره ليحضر مسرحية ، او حفلة

---

١ - بطل قصة « دورة حول الارض في ثمانين يوماً » لجول فيرن . وميزته الاولى حرصه الشديد على توقيت تنقلاته بكل دقة مهما تراكمت على طريقه الصعوبات .

موسيقيـة ؛ امـا ان يقف بالصف على باب السينما ، فهـذا مـا لا ارضى به .

والمعروف عن الفرنسيين انهم شديدو الحرص على التمييز بين اصناف الانتاج الادبي والفني ، فثمة اصناف نبيلة ، واصناف اقل نبلاً ، الخ ...

وتابعا سيرهما ، فراح كوستال يفرغ الغيظ المتراكم في صدره ... راح يفرغه ضحكاً وتنكيتاً ومزاحاً . كان رجلاً يؤمن بالانضباط ويطبقه على حياته . كان رجلاً يعتقد ان كل ساعة من العمر لها قيمتها ، ويجب ان تـؤدي الى كسب شيء ، او الى عمل شيء ، فكيف تراه صرف الساعتين الماضيتين ؟

اجل ، لا بد له من الضحك والمزاح ، اذا كان لا يريد ان يستولي عليه الغضب .

في بولفـار « بون نوفيـل » ، رأيا سينما صغيرة تعرض فيلمـاً روسياً ممثلوه روسيون . إلا ان الدار حقيرة ، ورسم الدخول اليها ثلاثة فرنكات .

قال كوستال لصاحبته :

— لا استطيع ان ادخلك الى سينما من هذا النوع !

وكان يأمل ان تجيبه : « لا اهمية لرسم الدخول ، ما دمنا قد وجدنا فيلماً يعجبك » . غير انها ضحكت ، وكانت ضحكتها تعني الموافقة على قوله ، مما يدل على انها لم تكن خاليـة من ذلك الحب السافل للبذخ ، ومن ذلك الخضوع الارعن لما يجري « حسب العرف والعادة » !

قال لها :

— لنعد من حيث جئنا .

وعادا يسيران في البولفارات ، وقد بلغ الغيظ في نفس كوستال حدود الانفجار . فهذه السهرة لا تطاق إلا اذا انقلبت الى مهزلة . ان رجل الفن الحقيقي يهتم احياناً بالدور الذي يقوم بـه في مناسبة معينة اكثر من اهتمامه بشخصيته الحقيقية . وفي مثل هذه الحال يجب عليه ان

يقول للذين حوله ما يقوله ابن مرسيليا في القتال : « امسكوني كيلا اضرب ! » وعلى الكاتب ان يظل جدياً في نظر الشعب ، مهما يكن خفيف الروح ، ميالاً الى المجون ، لانه اذا تخلّى عن جدّه خسر هيبته ، على الرغم من قول فكتور هوغو :

« يظل الاولمب عظيماً عندما يقهقه ضاحكاً » .

وكانا قد وصلا الى جوار سينما في حي « مادلين » تعرض افلام الاخبار العالمية ، فقالت سولانج :

— ما رأيك في هذه ؟ ليس في الاخبار ما يزعج .

فاجاب ، وهو يسحب ساعته من جيبه وينظر اليها :

— الساعة الآن الحادية عشرة والنصف . وانت متألمة من دمّل قفاك . ونرتكب خطيئة اذا تأخرنا في ارسال هذا القفا المريض الى الفراش . ثم ما الفائدة من دخولنا الى السينما للاقامة فيها نصف ساعة ؟

وكانت هذه الكلمات من النوع الذي لا يتمخّض به سوى دماغ زوج عتيق من عباقرة الحياة الزوجية . فكادت سولانج تختنق غيظاً ، وقالت في نفسها : « آه ! انه خُلق ليكون زوجاً . واستعداده للقيام بهذه المهمة اعظم بكثير مما يظن ! » وبعد ان جرّت نفسها بضع خطوات هوت جالسة على الدرج الحجري الى جانب درابزون كنيسة « مادلين » .

وجلس كوستال الى جانبها على الحجر ذاته . وكان المارة عديدين في تلك الساعة ، فجعلوا ينظرون بدهشة الى ذينك الشخصين الحسني الهندام ، الجالسين على درج كنيسة مادلين ، كما يجلس الريفيون المتعبون على ادراج المعارض في هذه الليلة الباردة من كانون الثاني . فاطلق كلاهما معاً ضحكة مرحة ، ثم خلع كوستال قبعته ووضعها مقلوبة بين ركبتيه قائلاً :

— ارجو ان يلقي فيها المحسنون صدقاتهم .

وجعل يقلّد المتسوّلين فيقول :

خمسة قروش ،

خمسة قروش ،

لنقيم بيتنا الزوجي !

وظلّا جالسين بعض الوقت . غير ان ضحكها كان قد خمد واضمحلّ ، فلزما الصمت . ثم شرعت سولانج تمزق « اسبوع باريس » ارباً ، وتضعها بكل عناية الى جانبها على الحجر . ورأى كوستال انه من الضروري ان يحول دون انقلاب تلك الفترة الى الكآبة ، فصاح بسرور :

— اجل ، اني رجل فكر وقلم ، واني أفضل هدية تُقدم الى فتاة مثلك ! لقد دفعتني قوة خفية ، خارجة عن ارادتي ، الى بناء السهرة الاولى من ايام خطبتنا كما تبنى التمثيلية المرحة او الفلم السينمائي . اعترفي بان ابتكاراتي الفكاهية كانت موفقة . وها انت تشتركين معي في هذا العمل ، وتبتكرين هذه الجلسة على الحجر . وما اطرف طريقتك في تمزيق « اسبوع باريس » ، فقد جاء فيها اللون العاطفي بعد اللون الهزلي ... لا ريب في ان كلّاً منا خلق ليتفاهم مع الآخر .

فرددت قوله بهدوء وعذوبة :

— اجل ، كلٌّ منا خُلق ليتفاهم مع الآخر .

ورافقها الى بيتها . إلا انه لم يصل معها الى سطح الدرج كما كان يفعل في ما مضى . لقد اصبحت احاديثها الطويلة ، ساعة الافتراق ، في عالم الماضي البعيد . وقبل ان يفترقا سألته :

— متى نلتقي ؟

لم يجب فوراً ، بل جعل يقيس نوع العذاب الذي يبعثه هذا السؤال عندما يطرحه علينا شخص لا يهمنا امره ، ولا نحرص على الاحتفاظ به . آه ! ما اجمل وما اعذب ان يفترق المرء عن شخص من غير ان يكون مجبراً على الاتفاق معه لضرب موعد آخر !

ولما عاد الى منزله ، نظر الى وجهه في مرآة المغسل ، فرأى لطخات حمرة حول شفتيه ، فمسحها بالمنشفة فتلوثت .

وراح يفكر بان سولانج لم تكتفِ بتحمير شفتيها — وكانت تعلم انه يكره هذا النوع من التبرج ويحتقره — بل استعملت حمرة من الصنف الرخيص ... فما اقبح ان يرتكب المرء حماقة وان يكون احمق في ارتكابها ! تباً لها ! تركته يتجوّل معها اربع ساعات في شوارع المدينة ، وهذه الحمرة حول شفتيه ! فإما انها لم ترَ الحمرة ، وهذا أمر يدل على انها بلهاء ، او انها رأتها ولم تنبّهه اليها خوفاً من إغضابه ، وهذا ادهى بكثير من البلاهة .

قال في نفسه : « اعطى فمي الوف القبل فما ظهر عليه شيء . وكانت قبلة واحدة من فتاة حمقاء كافية لتفضحه ! »

وتذكر ضحكتها حين حدثها عن السينما الرخيصة ، فتبين له بوضوح ما تنم عليه هذه الضحكة من السخافة ومن عنجهية المرأة التافهة التي لا تذهب الى سينما رسمُ الدخول اليها ثلاثة فرنكات .

وتراءت له تلك اللطخات الحمر على شفتيه كأنها بقايا دم تقيأها فم جريح في الحرب ... وخيّل اليه انه هو ايضاً جريح ، وان جرحه بالغ الخطر .

٦

ذهب وراءها لوقته كثور يذهب الى الذبح .

سفر الامثال ، الاصحاح السابع ، الآية ٢٢ .

– هل بين الناس من تتحدّث اليه اقل مما تتحدث الى زوجتك ؟ – لا احد تقريباً .

اكسينوفون [1] ، علم الاقتصاد ، الجزء الثالث ، الفصل الاول .

والآن ، اليّ بالديانة والخرافات ، بالأدب والتاريخ ! ولنتحمس حماسة تستحق الذكر ! كيف انتقد الثقافة ، بعد اليوم ، ما دامت تحلّي مرارة حياتنا اليومية ؟

في المكتبة الوطنية ، بينما كان الموظفون يفرغون قوارير العطور ولا يتمكنون من التغلب على رائحة النتانة التي تفوح من رجال الفكر ، كان كوستال يفترس كتباً طال رقادها في الغبار كزجاجات الخمور المعتقة ،

---

١ – مؤرخ وفيلسوف وقائد آثيني ، ولد حوالى سنة ٤٢٧ ق.م. وتوفي حوالى سنة ٣٥٥ . تتلمذ على سقراط ، ولمع في حرب البيلوبونيز حيث قاد تراجع الجيش الآثيني . ثم قاتل مواطنيه في كوروني فنفوه ، ولم يعفوا عنه إلا بعد عشرين عاماً . الّف كتباً قيمة ، منها : « اناباز » ، و « كيرو بيديا » ، و « ذكريات سقراط » ، و « وعلم الاقتصاد » .

ليطلع على العادات والتقاليد والخرافات المتعلقة بالزواج ، في العصور القديمة ، والقرون الوسطى ، وبلاد الشرق ، الخ ... فقد اراد ان يعصر بعناية واقع الزواج ليستخلص ما فيه من الشعر الحقيقي والزائف حتى القطرة الاخير .

كان ممسكاً بقلمه ، يلخص ما يقرأ ، ويكتب ملاحظاته ، ليكون « الشيء » الذي ينوي بناءه متين الاساس ، قادراً على الصمود في وجه التجارب .

ولما خرج من المكتبة الوطنية ، ذهب الى مكتب الكاتب العدل ، وكان كاتب آل دنديو قد خابره هاتفياً .

ولم يستطع الكاتب العدل إلا ان يصارح كوستال بان السيدة دنديو كانت مثال التساهل في هذه القضية . فهي ايضاً لها « صفاتها السلبية الرفيعة » : لا شريرة ، ولا مغرورة ، ولا مغرضة ، ولا انتهازية .

ولكن كوستال لاحظ انه لا يقل ترفعاً عن السيدة دنديو . واذا كانت هي لم تسأل عن ثروته وممتلكاته ، فهو لم يسأل عن قيمة الاسرة التي يدخل فيها . فربما كانت السيدة دنديو ربيبة احد بيوت البغاء ؛ وربما كان المرحوم اخوها قد سافر الى مدغشقر لان سجله العدلي غير ناصع البياض . وقد رضي الجانبان بان يتم عقد زواجها في الظلام . لكن من المزعج ان تكون السيدة دنديو كريمة الى هذا الحد : فالرجل النبيل ، عندما يأخذ ويعطي في سوق التجارة ، يحرص على ان تكون الخسارة في جانبه .

وعملاً بنصيحة الكاتب العدل الذي هاله جهل كوستال في شؤون الزواج ، ذهب هذا الى دائرة شيخ البلد ، فاعطاه الموظف المسؤول فيها ورقة صفراء تتضمن « معلومات عامة تتعلق بالزواج » . غير ان هذه الورقة المتلئة بالنبوغ الاداري الفرنسي لم تكن مفهومة . كانت شبيهة بالبيانات المتعلقة بالضرائب . والشيء الوحيد الواضح فيها ان الزواج نوع

من اصدار « الاسهم » .

وعاد كوستال الى الكاتب العدل ليحصل على تفسير لما في الورقة الصفراء . ففي جميع هذه الامور يستطيع الاستعانة بنصائح الناس . إلا ان هناك قضية واحدة لا يستطيع ان يطلب بشأنها نصيحة من احد هي قضية ابنه .

ان سولانج التي لا تحب الصبيان لن تحب برونيه . وبرونيه سينقم على سولانج ، او انه سيحبها اكثر من اللزوم ، وهذه سعادة كبرى . غير ان من يحترم ابنه لا يعرّضه لمثل هذا الخطر . ومهما يكن من الامر ، فان وجود هذه الغريبة بين الابن والأب شيء في منتهى الفظاعة !

لماذا جعل من ابنه سراً مكتوماً ؟

لأنه يحبه ، ولا يريد ان يكون موضوعاً للتساؤل ، او ان تكون تربيته لهذا الابن مادة لمناقشة . لذلك أصر اصراراً شديداً ، اصراراً يفوق التصور ، على الاحتفاظ بهذا السر ، كما يحرص بعض الشعوب على حجب النساء عن عيون الناس .

اما اذا تزوج فسيتبدّل كل شيء ، ويتعذر ابقاء برونيه بعيداً عنه . واذاً ، فسيتمهر برونيه في هذا الخليط من التافهين ، ومع هذه المرأة الشابة الخالية من الذكاء ، الخالية من الجوهر ، السخيفة ، البلهاء ، ناهيك بالخالات والعمات وابناء الاعمام ، فلا يظل نسيج وحده ...

وبعد ، فلماذا يكون كوستال قد ذلّل الصعوبة الكبرى عملاً بقول الحكماء[1] ؟ ولماذا جاهد ونجح في الحصول على ابن من دون ان يرتبط

---

١ – « أيجوز الاذعان للمرأة املاً بانجاب البنين ؟ » ، الجامي في كتابه بهارستان . – المؤلف .

والجامي الذي استشهد به المؤلف في هذه الحاشية هو مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامي (١٤١٤ – ١٤٩٢) آخر شعراء العصر الذهبي في بلاد فارس . نظم الشعر على غرار الفردوسي ، ووضع ملحمة « يوسف وزليخا » ، واهداها الى السلطان حسين ميرزا ، وفيها اخبار ملوك فارس .

بامرأة ، ما دام عازما الآن على ادخال هذه المرأة في حياته ؟

كيف يستطيع ان يخبر ابنه بمجيء هذه الام ؟ بل كيف يمكنه ان يفرضها عليه ؟

ان المسألة سهلة بالنسبة الى سولانج . فهو يستطيع ان يقول لها : « انذرك بان لي ولداً » . واذا كان هذا لا يعجبها ، فما عليها إلا ان تعدل عن الزواج . اما برونيه فكيف يتدبر الامر معه ؟

أيكتب اليه : « اني عازم على الزواج ، وزوجتي كذا وكيت ، وستكون سعيداً معها ، الخ ... » ؟

هذه فظاعة لا يجوز الاقدام على ارتكابها . لا بد اذاً من الذهاب اليه ، وبصحبة سولانج . فما اصعب هذه المقابلة ، وما اقساها !

وراح عقله يدور حول هذه الفكرة ولا يهدأ حتى رسخ في يقينه انه كان عليه ان يستشير ابنه قبل ان يرتبط بوعد .

لقد قفز فوق العقبة التي كانت تحول دون تصميمه على الزواج ، فلم يعد يتردد ، ولم يعد يتألم ، ولم يعد يفكر . إلا انه لم يقفز بعد فوق عقبة اخرى هي قضية علاقة برونيه بسولانج . وحيال هذه العقبة ما يزال يتردد ويتألم . ولان سولانج اسهل منالاً بالنسبة اليه ، فقد قرر ان يبدأ بها ليحل هذه العقدة .

اما الطريقة التي خطرت في باله فهي ان يدعو سولانج في اليوم التالي الى تصفح مجموعة صور ، متذرعاً بانه يريد ان يعرّفها الى افراد اسرته ، حتى اذا رأت صورة برونيه قال لها انه ابن احد ابناء عمه ، ثم اتخذ قراراً بالنسبة الى ما يلاحظ فيها من ردة الفعل ، فاما ان يطلعها على الخبر اليقين ، او يلزم الصمت .

وكان الخطيبان يمضيان بعد الظهر معاً ،مرةً كل يومين ، فينظر كوستال الى هذه الغريبة اللاصقة به ، الى هذا الوجه الذي بدا له في جنوى كأنه ذائب في الحب ، هذا الوجه الساجي كأن صاحبته نائمة في اليقظة ، وقد

اصبح الآن بارداً ، وجافاً ، وقاسياً ... وحتى كتابة هـذه الفتاة تغيّرت فاضحت مسنّنة كأنها تتعمد النخس .

وكان قد نسي قول السيدة دندبو : « ان سولانج عديمة الارادة ، ففي وسعك ان تفعل بها مـا تشاء » ، ولم يعـد يتذكر إلا قولهـا : « لهذه الصغيرة ارادة حديدية » ، وقـد صمّمت على القول في نفسها : « هـذا هو الرجل الذي اريده » .

وقاده هذا التفكير الى الاعتقاد ان السيدة دندبو وابنتها تآمرتا عليه واوقعتا به .

اذا ُحقنت غدّة الخروف الدرقية بمصلٍ مقوٍّ فانـه يعض حديـد قفصه كالأسد ؛ اما اذا ُحقنت غـدّة الرجل القوي بمصل الزواج فانـه يضعف ويصبح كالحمـل الوديـع . وحين ُيرهق الرجـل بالسأم ، وُيحشى بالهموم ، والمسؤوليات ، والوساوس ، ويضطر الى اتخاذ مقررات ، ويدور على نفسه ، فانه يقع في الذهول ، وتنهار فيه كل عزيمته ، فيفقد قدرته على مقاومة الارادة المسيطرة عليه ، حتى لو كان يعلم انها ارادة شريرة . والنساء يعرفن هذه الحقيقة ، فادخال المرأة الى مكانٍ ما لا يعني إلا ادخال القلق والمتاعب اليه . وعمل المرأة في هذا المجال شبيه بعمل السفينة الحربية التي تنشر الدخان وتتقدّم وراءه الى هدفها .

كان كوستال ، في مـا مضى ، « مسحوراً » ومكبّلاً بكثافة السأم المنبعث من سولانج . وها هو الآن يعتقد انها سحرته من جديد بارادتها المتفوّقة على ارادته ، ويشعر بضعفـه وعجزه كأنه يرافق شخصاً مغامراً شديد الخطر ، اسرع منه حركة ، وامضى عزيمـة ، واوسع حيلة في انزال الضرر بالآخرين .

وعندما يحاول الرجل إيهام الناس بأنـه مسلّح وهو اعزل ، فانـه يضيف الى شعوره بالعجز شعور الخجل باقدامـه على الغش والخـداع .

ولم يعد كوستال يجرؤ على مصارحة سولانج بمـا يريد ان يقول لهـا ،

خصوصاً في ما يتعلق بابنه . وكانت الايام تمر وهو حريص على كتمان سرّه .

واصبح يشعر بانــه مضطر الى بذل جهود كبيرة لاحتمال قربهـا الى جانبه . فاذا نظرت الى عينيه بقوة وصراحة ، لا يقول في نفسه ، كما كان يقول من قبل : « ما اجمل ولاءها ! » بل يقول : « انها تتحداني . انها تحاول ان تأتيني من فوق لتسيطر عليّ » . وكان يُخيّل اليه ان نظره يميع بحضورها ، وانها تقرأ في ملامحه حقيقة سيطرتها عليه . وفي بعض الاحيان كان يحس ان قواه كلها قد تلاشت امامهـا . فتفوّقها الطاغي عليه كان يبعث فيه النعاس .

يقال ان في بعض مناطق الجزائر وجنوب فرنسا تقليداً بان يدوس الخطيب اصابـع قدم الخطيبة في حفلة الخطبة ، ليثبت انه هو السيد في الحياة الزوجية ، أفلا يجوز ان تدوس الخطيبة على قدم الخطيب احياناً ؟

ومنذ ان اصبحت سولانج منحرفة الصحة ازدادت عنايتها بنفسها ، وحرصها على ان تكون دائماً مرتاحة ، فكانت تأكل اكـثر من المعتاد ، بعد ان حظر الطبيب عليها شرب الخمر والقهوة بسبب دماملها .

وربمـا كانت تشعر بالمرارة والخيبــة على الرغـم من انتصارها ، الى جانب شعورهـا بالأمان ، لانهـــا لم تعـد تخشى عدول كوستال عن الزواج بها ، مع ان امهـا لم تكن مطمئنة ، بـل كانت كثيرة الشكوك تخشى المفاجآت . ولعل هـذه الحالة النفسية جعلت سولانج تبـادر الى الانتقام من كوستال ، عن قصد او عن غير قصد ، فتمادت في اطمئنانها ، وراحت تحثه على بذل المال بلا حساب .

وتضايق كوستال منها حتى كاد ينفجر لما رأى انها لا تستطيع ان تقيم معه نصف نهار من غير ان تطالب بالذهاب الى المقهى . فمها تكن مشاغلها كبيرة الاهمية ، فلا بد من التخلّي عـن كل شيء للذهاب الى المقهى وتناول الشاي . وهذا التصرف العجيب شبيه بتصرف الهر الذي

يكون راكضاً وفي ركضه ما يدل على الحزم والتصميم ، فاذا به يتوقف فجأة ليجلس ويلحس قفاه .

وكان تناول الشاي يستغرق ساعة ، مما يثبت ان سولانج لم تكن تقصد به إلا قتل الوقت .

وبعد تناول الشاي ، كان كوستال يبدأ البحث عن مطعم لتناول العشاء ، فيعمل ما عمله قبلاً في بولفار « بون نوفيل » امام دار السينما الرخيصة ، اي انه يتظاهر بان هذا المطعم او ذاك « غير لائق بها » ، فتوافق سولانج فوراً على وجهة نظره ، كما فعلت تماماً بالنسبة الى تلك السينما . ولم يخطر في بالها مرة واحدة ان تقول له : « لا بأس ، فلندخل ، او فلنذهب الى مكان آخر ، فالمهم ان نكون معاً » . وقد ايقن انها تفضل المطاعم الفخمة ، او التي يقال انها فخمة ، وهو الذي كان يعتقد ان حب البذخ اول دليل على ان النفس ليست في مستوى محترم من النبل الحقيقي ومن سلامة الذوق ، وقد رسخ في ذهنه ان هذه القاعدة عامة ، لا يشذ عنها إلا افراد نادرون .

من يدري كيف يتصرف اصحاب المطاعم الفخمة ؟ ربما كان الخادم يبول في الحساء ، والاجير يبصق في المرق ، والمستخدم يغسل اصابعه القذرة بالليمونة الحامضة التي يعصرها في الطعام ؛ وربما كانت الخدمة سيئة ، مزعجة ، ترغمك على الانتظار طويلاً ؛ وربما كانت الاسعار باهظة حتى الفضيحة ؛ إلا ان هناك اشياء مطلية بذهب زائف ، واعمدة من الرخام الكاذب ، وسلة انيقة توضع فيها زجاجة الخمر ، وموسيقى كلها ادعاء فارغ ، ولوائح مزركشة تحمل اسماء الطعام ، وفوق هذه الاسماء كلمات لادباء عاطلين عن العمل ، لا يهمهم ان تتمهر اسماؤهم بمثل هذه الترهات .

لا ! لا ! لا شيء افظع من مطعم كبير اشتهر بالبذخ والفخامة . ومع ذلك كانت سولانج تجد الهناء والسعادة في مثل هذا المكان ، ولا

تضجر لو بقيت فيه طوال بعد الظهر .

تبادرت هذه الافكار الى ذهن كوستال فقال في نفسه : « ان لهـذا المطعم مزية حسنة هي ان فيه موسيقى تسمح لنا بالصمت وتنقذنا مـن التحدث . ولا ريب في ان موسيقى المطاعم اختُرعت خصيصاً للازواج » .

وكانت سولانج تأكل بكثرة وشاهية ، وتختار دائمـاً الاطعمة الباهظة الثمن كأنها تنفـّذ خطة مرسومة ، ليقال انهـا من اسرة عريقـة الحسب والنسب . اما كوستال فكان يراها تقشـّر الموزة بالشوكة والسكين كيلا تلوث اصابعها الثمينة ، فيقول في سره : « هذه اناقة كاذبة ، يحاول السخفاء بها ان يظهروا بمظـاهر الاشراف والنبلاء فيدلـّوا على انهم من حثالة الناس . وهـا هي سولانج اللطيفة ، النحيفة ، الخفيفة التي لا يشعر بهـا مقعد السينما عندما تجلس عليه ، تأكل كالغول ولا تشبـع ! »

وكان يغريها باسلوبه الساخر لتتناول مزيداً من الطعام ، ولـيرى الى اي حد يبلـغ بها النهم ، فيقول لها : « لا بأس اذا طلبت صحفة مـن الحلوى المصنوعة بالدرّاقن . وما رأيك في هذا القرص المغمّس بالروم ؟ » فاذا هي مترددة ، حائرة بين رغبتها في الأكل وخوفها من أن ُيهزأ بها . وكان خوفها يتغلب في اكـثر الاحيان على رغبتها ، فتمـد شفتيها بحركة تعني « لا » ، بينما عيناها تقولان « نعم » . إلّا انها كانت دائماً تختم هذه المناورة بقولها : « حسناً ، لا ارفض ... ما دام هذا يَسرك » .

في تلك الاثناء كان قرفه منها يبلغ حده الاقصى ، خصوصاً لما كانت تعتذر قائـلة : « يجب ان آكل كثيراً لأعود كما كنت » . فيعلـّق على اعتذارها قائلاً في نفسه : « انهـا على حق ، فهي خالية من المخزون الاحتياطي » .

وفي اواخر الوقعة ، كان يتكتف قبالتها ، وينظر اليها بصمت ، وهي تزدرد ، وتزدرد بلا انقطاع . وكلما القت عليه نظرة استفهام اشتهى ان يقول لها : « انتظر منك ان تأكلي قشرة الجبنة ! »

وكان يفكر بكآبة ويأس ان المال الذي يستنتجه من ذكائه وفنه وجهوده يـذهب هدراً الى مصارين امرأة ، فيخاطب نفسه قائلاً : « أيمكن ان يكون المرء نهماً وجديراً بالاحترام ؟ اعتقد اني كنت افضل ان يبذل هذا المال في شراء ادوات التبرّج والزينة » .

وهكذا كانت تمر الساعات ، ويتلاشى الوقت الذي لا يقدر بثمن ، فيردد الكاتب كلمة الاسكندر لما جرفته مياه نهر هيداسب [1] : « ايهـا المجتمع ، ما اكثر الاعمال التي يضطر المرء الى القيام بها ليستحق ثناءك ! »

يقول البعض في انتقاد « الدونجوانية » : « ان امرأة واحدة تكفي ، شريطة ان نتعمق فيها ، وان نستخرج منها انغاماً تزداد روعة يوماً بعد يوم ! » وهذا اقتراح مغرٍ حقاً ، لكن كيف السبيل الى امرأة على شيء من العمق لنتعمّق فيها ، ولنستخرج منها الانغام الساحرة ؟ وما العمل اذا كانت للرجـل امرأة واحدة وفارغـة ؟... اني افضّل الفـاً وثلاث نساء فارغات على امرأة وحيدة فارغة . وهذه سولانج متشبثة بي الآن ، وهي لا تحبني ولا تحب عملي ، ولا تحب الحب » .

مـا الذي فعلته لتنسجم معي ؟ لا يستطيع المرء ان يحب شخصـاً آخر إلا اذا كيّف حياته بالنسبة الى هـذا الشخص ، اي اذا اضاف اليها شيئاً ، او حذف منها شيئاً ، لاجله . اما سولانج فانها تدنّسني اذ ترغمني على تناول طعام يستطيبه الشرهون ، ولا اجد فيه اقل لذة ، بل امقته ؛ وتجرّني الى اماكن فخمـة لا تعجبني ، بـل استفظعها الى اقصى جـدّ . ان في المرأة ، في جميع النساء ، وحتى في افضلهن خلقاً ، شيئاً من البغيّ يتوارى حيناً ويظهر احياناً ، ويتجلّى عندما تدندن باحـد الألحان وهي راكبة في السيارة التكسي .

تريدني ان اكون مثلها ، اي ان آكل دائماً ، وان اتابع الاكل ، وان

---

١ ـ نهر في الهند يُعرف اليوم باسم « نهر جلام » .

اجلس مسترخياً في المقعد الوثير ساعات طوالاً . تريد ان تجعل مني رجلاً فرنسياً عادياً ، وبورجوازياً له كرش صغير ، يشرب كأساً من الخمر قبل الطعام ، ويدخّن السيكار ، ويركب السيارة . فهذه هي في نظرها « الحياة الجميلة » .

انها باردة ، وتريد ان تخصيني من شدة غيرتها عليّ . انها خامدة الهمة ، وتريد ان تفقدني كل نشاط . ما اكثر جولاتها في الاسواق لشراء اشياء لا فائدة منها ، ثم للذهاب الى السينما ، او الى المسرح ، او الى مكان آخر ، شريطة ان يكون زاخراً بالسخافة والتفاهة . فالمهم في نظرها ان تخصيني هنا ، وان تجعلني أبله هناك ، على ان يجري كل شيء بحكمة وروية ، كيلا يرانا احد ، لاننا في مرحلة حداد ، ولان الفتاة الحزينة تدوس بسرور ذكريات ابيها العزيز .

هذه هي الحضارة التي صنعتها النساء ، فالانسان فيها ينظر الى الآخرين ، وينظم حياته بالنسبة الى الآخرين ، ويرتعد خوفاً مما يتبادر الى اذهان الآخرين ، ثم ينصرف الى الأكل ، الى البلع بلا انقطاع .

انها تهتم الآن بتثبيت وضع يدها عليّ ، وببدء عملية الامتصاص . تزعم المرأة دائماً انها تعطي ، غير ان عملها الوحيد هو الأكل والبلع . ولكي ندرك حقيقتها ، يكفي ان تتذكر الوضع الذي تتخذه في اثناء الوصال ، وهو وضع ضفدعي مضحك .

تحسبني سولانج انساناً ُخلق خصيصاً لها . وهذا حلم كل امرأة . وتظن ان مهمتي الوحيدة هي ان اجعلها سعيدة ، وان اقدم لها مرتبة اجتماعية مرموقة ، وضمانة مادية ثابتة ، واداة دائمة للعمل والتسلية ؛ كأن العناية الالهية عهدت اليّ بان ابعد عن هذه الفتاة اسباب السأم .

هذه الفتاة البسيطة سابقاً ، او البسيطة المزيّفة ، كم بلعت من قواي ، ونشاطي ، ومادتي ، ووقتي ، ومالي ! انها تبتلع كالوادي . فهي المرأة الوادي ؛ انها وادٍ في عناقها ، وادٍ باعضائها ، وادٍ بمادتها وجوهرها ، محصّنة دون

العالم ، لا ترى إلا ما هو في متناول يدها ، محاطة بجدران هي احياناً حبها ، واحياناً غريبة عن الحب ، وفيها ايضاً ما في الاودية من المناخ المرهق الذي يذيب العافية .

كيف يستطيع الرجل معايشة امرأة لا يدري ما يقول لها ، ولا يعلم الى اين يذهب معها ، ينتقل من مكان الى آخر بلا سبب ، يحاول عبثاً ان يُخرج شيئاً من عقله او من قلبه ، ويمضي قسماً من اوقاته في السيارة التكسي ، لان المرأة التي تعتبر نفسها محترمة لا تتحرك إلا بالسيارة لتملأ عيون الناس ، لتماشي اسخف ما في العادات والتقاليد . فابسط امرأة بين النساء تحسب نفسها مدى الحياة ملكة سبأ في ذروة عزها .

والنساء لا يعلمن كم يكون الرجل مرتاحاً ومسروراً اذا سمحن له بان يعاملهن بلا تكلّف ولا مجاملات ، وكم يربحن من الهناء في هذه المعاملة .

كيف استطيع العيش دائماً مع امرأة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدّل كأني طير البجع ؟ وكيف يمكنني ان اسمع باستمرار قرقعة حقيبتها كلما فتحتها واغلقتها ؟ ان هذه القرقعة تثيرني فاكاد انفجر غيظاً ، كما كان يغيظني حفيف المروحة التي كانت احدى صديقاتي الاسبانيات تفتحها وتغلقها ثلاثين مرة في الدقيقة ، وكان هذا السبب الوحيد الذي اثار نقمتي عليها فهجرتها .

وادهى ما في الامر ان كل يوم من هذه الايام الضائعة التي تدمّر الفكر ، وتسحق الروح ، يكلفني مئات عديدة من الفرنكات ، من هذه الفرنكات التي تفض مشاكل عدد كبير من المحتاجين ، وتكفي لشراء اشياء مفيدة ...

وفي مساء احد هذه الايام الزاخرة بالثرثرة ، والتفاهة ، والعقم ، الحافلة بالنشاط المبذول في محاولات مضنية للاهتمام بآراء سخيفة تبديها امرأة « محبوبة » او محسوبة كذلك ... في مساء احد هذه الايام ، بعد

ان حاول كوستال ان يجعل من سولانج امرأة ذكية وممتلئة بالحياة ، وهي الخامدة الذكاء ، الخالية من الحيوية ، وبعد ان قال مئات من الكلمات العديمة الجدوى التي تركت في فمه طعم الطين والرماد ، عثر في احدى مفكراته على كلمة لعزيزه الأب دي سان سيران[1] هي : « اذا تحدث الكاهن الى احدهم حديثاً لا لزوم له ، ولا فائدة تُرجى منه ، فهذا سبب كافٍ لمنع الكاهن من اقامة الذبيحة المقدسة في اليوم التالي ، لأنه يكون في حال الخطيئة » .

وما كاد كوستال يقرأ هذه الكلمة حتى قال في نفسه : « ما ابرع هؤلاء الكهنة ، ففي وسعهم ان يصالحوك بمثل هذه الاقوال الحكيمة مع الدين المسيحي مهما تكن قليل الاكتراث بهذا الدين . حقاً ان حياة النسك في الدير اصفى جواً وافضل مناخاً من الحياة الى جانب خطيبة ! »

غير ان كوستال تعمد ان يعامل سولانج باكثر ما يستطيع من الحرية ليعوّض عما كان يحلّ به من السأم والغيظ ، حتى انه كان احياناً يصافحها بيده اليسرى اذ يهم بالابتعاد عنها كأنه يريد ان يتهرب اكثر مما يريد ان يعطي من نفسه . ولم يعد ينظر اليها ، بل اصبح يجتنب النظر اليها ، فثمة نساء يعايشهن الرجل ، ويضاجعهن ، ولا ينظر اليهن ، ثم لا يعرف منهن اكثر مما يعرف عن البحر مسافرٌ امضى رحلته كلها في حجرته ، وما القى على البحر نظرة واحدة .

وكانت سولانج قد حافظت على تبرجها وعلى تلك التمشيطة التي تبدو فيها كأنها « امرأة شابة » ، مع ان كوستال افهمها انه لا يطيق هذا التبرج ولا يحب هذه التمشيطة . وقد تمادى يوماً في صراحته ، فقال لها :

---

١ - اسمه الحقيقي جان دوفوجيه دي هوران . لاهوتي فرنسي (١٥٨١ - ١٦٣٤) خدم في دير بور رويال وكان له فيه تأثير كبير .

« قبل ان اقبلك نظّفي وجهك من هذا الطلاء » ، فلم تأبه له لأنها كانت تحب ان تبقى كما هي ، وتعتقد انه حان لها ان تفعل ما يطيب لها بعد ان تحملت ما تحملت من العذاب .

لم يعد كوستال يشتهيها جسدياً ، وكان يعلم انها هي ايضاً لم تعد تشتهيه . فالشهوة الجنسية تدعم الزواج الى حين ، اذ يقابل كلّ يوم من ايام الخصام او الصمت وصالٌ يستغرق عشرين دقيقة من الليل . اما اذا تلاشت الرغبة في الحصول على هذا التعويض ، فكيف يستمر الزواج ؟

وفي هذه الغمرة من القلق، لم يشأ ان يخامرها ظن بان دماملها وشحوب وجهها هي سبب نفوره وبرودته . وقد ساوره الخجل لكون حبه لها قد تقلّص لما ذبل جمالها . وتأثـّر مرة في اعماق نفسه لانه نظر اليها من قريب ، فوضعت يدها امام عينيه لتحجب عنه ما في وجهها من الغضون التي حفرتها الكآبة . وفي مثل هذه المواقف كان يحتضنها ، ويداعبها باعصاب متوتـّرة قليلة الاحساس كاعصاب مرضى جيـاج [1] ، وليس في مثل هذه المداعبة شيء من المتعة .

ولما كانت تلقي رأسها الى وراء وتفتح فمها في اثناء الوصال ، كانت تخطر في باله افكار عجيبة ومضحكة ، كـأنْ يقول في نفسه : « ماذا ؟ أتريد ان انتزع من فمها ضرساً نخر فيها السوس ؟» كم يتعب المرء نفسه حين يتظاهر بانه مغتبط بالوصال ، يجني منه المتعة الكبرى ! الى اي حد يتمكن جسده من تلبيته في تمثيل هذه المهزلة ؟ لا بد من يوم يحزن فيه هذا الجسد كالحيوان ويرفض العمل رفضاً باتاً .

يظل البعير على الناقة ربع ساعة مفكراً بغير ما يعمل ، فيضربه الجمّال بالعصا ، فيعود الى عمله مرسلاً جعجعة مدوّية ، ثم يعود الى

---

١ ـ منطقة فرنسية مؤلفة من ٣٣٠ قرية ودسكرة ومزرعة ، فيها مستشفى للمصابين بالامراض العصبية .

تأملاته السابقة ، فيضربه الجمّال من جديد ويبعث فيه الحمية لمتابعة الجماع ، إلا انه لا يلبث ان يعود الى التأمل ...

وكان كوستال شبيهاً بهذا الجمل . فقد اصبح الوصال سخرة مزعجة بالنسبة اليه والى سولانج معاً ، حتى كاد يقرف من عمل الحب ، إلا اذا كان يريد ان يغوص في الفجور غوصاً جنونياً لا مبرر له .

إلا ان الاحسان كان يفرض عليه هذه التضحية ، كما يفرضها عليه اللطف ، والواجب . فشيطان الشر يزمجر فرحاً وهو يحمل الشمعة فوق هذا التمرين البالغ ذروة الفظاعة .

في الساعات القليلة التي كانت سولانج تبتعد خلالها عنه ، كان ينقضّ على عمله انقضاض السكّير على الخمر ، والمدمن على المخدّرات . فقد كان جائعاً الى العمل المنتج ، لأن هذا العمل كان ينقذه ، ففيه كان يلمّ الفترات التي عاشها مع سولانج ويصفّيها . ان الفن هو خلاصة الحياة ، يطهّرها من حثالتها ونفاياتها ، ويقدم لها دماً طاهراً نقياً . فلو لم يعمل في الصباح لما استطاع احتمال سولانج بعد الظهر وفي المساء دون ان يمرض . ومن حسن حظه ان صفاء ذهنه وقدرته الخلّاقة لم يفقدا شيئاً من قوتهما ، فلا تكاد خطيئته تزول من وجوده ، ما عدا عمله الادبي الذي دمجها فيه ، حتى يعود رجلاً قوياً كما كان .

وكان يرجيء دائماً اطلاع سولانج على مجموعة صور اسرته ، ليؤجل حديثه معها عن ابنه . وقد تأخر في الكتابة الى برونيه . وخطر في باله يوماً ان يركب الطائرة الى لندن حاملاً كل ما لديه من رسائل سولانج ، وصورها ، وما كتب عنها في مذكراته الحميمة ، وان يضع هذه الاشياء تحت انظار ابنه ، وان يحدثه ساعتين عن سولانج ، ثم يسأله : « أتريد ان اتزوج بها ؟ فاذا كنت لا تريد ذلك فأن الوقت لم يفت بعد ، واستطيع ان اهجرها ! » مع العلم ان برونيه كان في الخامسة عشرة والنصف من العمر ، وادراكه ادراك ولد في الثالثة عشرة او

الرابعة عشرة . غير ان هذه الفكرة مـا لبثت ان تبخّرت وتلاشت ، لانه لما خطب سولانج كان قد بلغ اقصى حد من حدود ارادته ، فاذا به الآن يترك امره لمشيئة القدر .

وكان الخطيبان في هذه الاثناء يهبطان الى الاعماق ، كأنهما غريقان ، وقد بدت على وجهيهما ملامح عـالم آخر ، ويغوصان في الظلمـات ، لا يمس احدهما الآخر ، مع ان المسافة بينهما لم تكن تتجاوز بضعة امتار .

وذات يوم ، لمعت في السماء بارقة امـل خاطفة ، فقد سأل احـدهم كوستال ، وكان علجاً كسائر علوج الحي الرابع عشر في باريس : « مـن هذه الفتاة الفاتنة التي رأيتك معها في غابة بولونيـا ؟ » فادرك الكاتب ان بعضهم سيرى زوجته فاتنة ، فاعتز وتباهى .

ان جميـع الناس ينتقدون العالم ، والعالم راسخ في قلوب جميـع الناس .

٧

من

اندريه هاكيو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٢٢ كانون الثاني ١٩٢٨

اني وحيدة! نعم، وحيدة، تعال حالاً. هـا انا افتح لك الباب. كم انت مقرور، تفوح منك رائحـة الشتاء والجليد المنعشة! يجب ان ادفئك. اخلـع معطفك، وقبعتك، وعصبة عنقك، لاراك جيـداً، يا من تصورته منـذ امدٍ بعيـد لاملأ بـه حياتي. احبك ان تمدّ اصابعك الخمس معاً الى قفازك الكبير المصنوع من الجلد والفرو، فهـذه حركة يختص بها الرجل القوي... ماذا ارى؟ اشرقت الشمس على الثلج! فلنخرج. انتظرني لحظة قرب سبيل المـاء ريثما اغيّر ثيـابي. اي ثوب تفضّل ان ارتدي؟

قريتي الصغيرة هادئة، هادئة. اني مسرورة للغاية لأنك عرفتها اخيراً. جميلٌ منك ان تكون مقداماً فلا تخشى ان يرانا النـاس معـاً. فلنسر طويلاً حتى يرهقني التعب والتمس منك الرحمة. أمقرورة انا؟ لا، اني

دافئة بك . انا مستاءة لانك نظرت باعجاب الى ابنة جارنا برناردو ؟ الغيرة شعور لا يساور إلا النساء التافهات . لا تخاطبني . انك لا تحدثني إلا عن نفسك . وما الذي اودّ ان أعرفه عنك بعد ؟ اني اعرفك كما اعرف جيبي . جلّ ما اريد ان احتفظ بك قليلاً ، لا لشيء إلا لانتعش بك ، لاحس باني احيا ملتصقة بك . لنسر صامتين . فانت الرجل الوحيد الذي لا اشعر بالسأم وانا الى جانبه . وكيف يجد السأم الينا سبيلاً ما دمنا نحيا ، نحن الاثنين ، وروحانا متعانقتان ؟

انك تجعلني سعيدة ، في منتهى السعادة ، وانت على حق ، فقد اصبحت جديرة باحسانك . ما ألذّ هذا اليقين بانك فهمتني اخيراً ! فقد ادركت ، بعد تردّد طويل ، انك تحبني .

الحياة جميلة !

تقام اليوم حفلة ، في قرية مجاورة لقريتنا ، احتفاء بعودة ابن عمي من الخدمة العسكرية . واني مضطرة الى صحبة عمي لتمضية يومي الاربعاء والخميس فيها . وفي هذين اليومين ساهجر قراءة « سانت بوف » والاستماع الى الراديو ، وسالتقي عدداً كبيراً من ابناء الاعمام والاخوال .

يقال ان معاشرة البسطاء تريح النفس من اتعابها . في هذا القول هراء . فقبل ان احبك كنت احتمل هذه السخرة بشيء من الصبر ؛ اما اليوم فانها ترهقني ، ولا اقوى على احتمالها طويلاً . يوم الجمعة اعود اليك ، فنقوم بنزهة ثانية .

اقبلك .

أ

(وضعت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يُفض غلافها)

٨

كان كوستال مدعواً لتناول الغداء في منزل سولانج . فقد عقد خطبته منذ عشرة ايام ولم يرَ السيدة دنديو ، خلال هذه المدة ، إلا مرتين ، عند الكاتب العدل ، ولم يتحدث اليها إلا في شؤون « الاعمال » .

اما اليوم فانه يواجه موضوعاً دقيقاً اعتبره في بادىء الامر بسيطاً ، وحاول معالجته بشيء من المرح ، غير انه احس ان هذا الموضوع مهم ، وانه يتطلب معالجة جدّيّة ، وخلاصته هي : كيف يدعو حماتـه عندما يخاطبها ؟

أيقول : « يا امي ! » لهذه المرأة الحمقاء ، المغمورة ، المبتذلة ؟ لهـذه الكراكوزة ؟ لهذه البغلة ؟

ما إن بلغ هذا الحد من تفكيره ، حتى جعـل يخاطب نفسه قائلاً : « لست من السخافة بحيث اعتبر كلمـة : « ام » ، مقدسة ، ففي العـالم نساء من مختلف الاصناف والطبقات ، واكثرهن امهات . اذاً ، في العالم امهات من مختلف الاصناف والطبقات . إلّا انـ امي كانت من النوع الممتاز ، فكيف انادي هذه الغريبة كما كنت أنادي امي ؟ هذا ما لا اريده ، وما لا استطيعه . فكلمة : « ماما » ، لا تخرج من بين شفتي اذا اردت توجيهها الى السيدة دنديو . اذا قلت لها : « يا سيدتي العزيزة » ، اهنتها ، واذا ناديتها : « يا صديقتي العزيزة » ، أتجاوز حدود العلاقة القائمة بيننا ، لاننا لم نصبح بعد « صديقين » . فما العمل ؟ الحلّ الوحيد الذي لا ارى

سواه هو ان لا اناديها مطلقاً . أفليس هذا الحل منطقياً ومريحاً ؟ »

وكان ذلك الغداء فترة عذاب مرير بالنسبة الى كوستال ، لأنه عجز هذه المرة عن الهرب الى عمله ، وعن الغوص في التعب الخلّاق ، فاستلقى على سريره ، على هذا السرير الذي كان منذ ساعات ينام عليه ويحلم بتينك المرأتين . فالاشباح المخيفة التي تقض مضاجعنا ليست اشباح الموتى ، بل اشباح الاحياء .

جلس يفكر بانه من الضروري ان يحدد موعد الزواج ، وبانه لا بد من اتخاذ قرار نهائي بشأن برونيه ، فقال في نفسه وهو يتميز غيظاً : « ما الداعي لهذا التعب ؟ لماذا افرض على نفسي ما لا اطيق ؟ لا ارى لهذا الزواج مبرراً » .

في بداية هذه الازمة ، كان الخطيب المرتمي على سريره من شدة العياء يعلـّل نفسه بالأمل ، فتشرق على وجهه ابتسامة عابرة ؛ اما الآن فقد توارت تلك الابتسامة لانه احس بانه مريض ، مريض في جسده ، وربما كان سبب هذا المرض ما يعاني من الاضطراب الروحي ، او تلك السيكارات التي كان يدخنها بلا انقطاع منذ ثلاث ساعات ، وهي مصنوعة من تبغ رديء طعمه كطعم شعر القفا .

نهض ليتناول زجاجة الكولونيا ، فرأى صورة وجهه في المرآة ... ففي عشرة ايام اكتهل هذا الوجه وكاد يشيخ ، وارتسم في قسماته طابع الكآبة .

قال يخاطب نفسه : « سأهزل بينا هي تسمن . هذه سنّة الطبيعة ، فاتصالي بها يصبُّ فيها ما يذهب مني » .

ورأى نفسه دميماً ، فقال : « لا ، لا تستطيع ان تحبني ، وكل ما نقوم به مهزلة ، لا يمكن ان يكون إلا مهزلة سخيفة » .

واحس بدوار ، واكفهرّ وجهه ، فاستلقى على سريره من جديد وهو يقول : « يجب ان اسكر قبل ان اذهب الى مكتب الشيخ لعقد

الزواج ، فقد تستيقظ فيّ غريزة المحافظة على البقاء في اللحظة الاخيرة ، وقبل فوات الأوان . لو كنت استطيع القول ، كما قلت مرات عديدة : « هذه فترة على هامش الحياة لا تلبث ان تزول » ، لكان يهون الأمر؛ ولو كان الزواج صحبة رجل جلف في القطار تنتهي بعد عشر ساعات ، لخف عبء المصيبة ؛ لكن لا ، فسترفض سولانج الطلاق ، واني اقرأ هذا الرفض في وجهها منذ الآن ، واراه في تبدّل هندامها ، وتغيّر تسريحتها وخطها . ومن المحتمل ان اتعلّق بها في النهاية لكثرة ما اعطيها . اني اغذي العطف الزهيد الذي اكنّه لها ، ولو تركته وشأنه لتلاشى واراحني من وقره ؛ غير اني قويته بالاحسان كما يُقوّى المعدن بمعدن آخر لتصنع منه النقود ، وتكون نقوداً متينة . ان الشرّ مقيم فيّ ، وهو هذا الاحسان الذي ارزح تحته فيسحقني » .

انتصف النهار ، ولم يكن كوستال قد اغتسل بعد ، ولا حلق ذقنه ، ولا ارتدى ثيابه ، فنهض ثانيةً ، إلا انه اضطر الى الاستلقاء على سريره من جديد .

يا لها من مأساة !

كيف يفرض على نفسه العيش مع اناس ، لو اقام معهم ساعةً وقتَ الغداء لاضطر الى ملازمة الفراش وعلى وجهه اصفرار الموت ؟ كيف ينزلق الى هذا المصير الرهيب ، ما دام الوقت لم يفت بعد ، وما دام يستطيع ان يقول : « لا » ، فينجو بنفسه ؟

اتصل هاتفياً بالسيدة دنديو ، واخبرها انه سيتأخر لانه متوعّك ، فظنت انه لن يأتي ، اذ كثيراً ما كانت تلجأ الى هذه الحيلة ، وتزعم انها مصابة بألم في معدتها كيلا تتناول الطعام من زوجها عندما تكون ناقمة عليه .

إلا ان كوستال صبّ ماءً بارداً على صدغيه ، وتنشق كولونيا ، فانتعش ، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف استطاع ان يغتسل ،

وفي الساعة الواحدة والنصف وصل الى بيت سولانج ، فاستقبلته السيدة دنديو قائلة :

– اعتبر هذا البيت بيتك منذ اليوم .

فلزم الصمت ، لان هذا القول من النوع الذي لا جواب له إن لم يكن خارجاً من اعماق القلب .

وكان على احدى الطاولات اطـار يحتوي صورة كوستال وصورة سولانج . فبعد ان قال الكاتب : « نعم » ، بيوم واحد ، طلبت اليه السيدة دنديو صورة من صوره لم تنشر في الجرائد ، ووضعتها في هذا الاطار الى جانب صورة ابنتها . وامام هاتين الصورتين الزاخرتين بالمعاني الرمزية ، راح يفكّر بذلك الـ « هو » وتلك الـ « هي » اللذين اكتشفت صورتاهما بالفسيفساء في خرائب بومبايي . اما هي فومس ، واما هو فطلج . انها مثال الزوجين الابديين منذ القدم . وهما ، بالنسبة الى الحياة الزوجية ، كلوحة « عائلة كارلوس الرابع » لغويا بالنسبة الى العيلة [1] .

اما في ما يختص بشؤون المعلف فكان كل شيء على ما يرام . فقد ارادت السيدة دنديو ان تجعل من هذا الغداء وليمة الخطبة ، فاعدت الكافيار ، والدجاج ، والكمء ، وزجاجات من الخمر مغرية تثير الشهية . فالناحية المادية من المأدبة لم يكن عليها غبار ؛ اما الناحية المعنوية فكانت مؤسفة ، كما هي الحال في الافلام الاميركية . وجعلت السيدة دنديو

---

١ – فرنسيسكو دي غويا (١٧٤٦ – ١٨٢٨) مصور اسباني كبير اشتهر برسم اللوحات التاريخية ، ومنها لوحة عنوانها « كارلوس الرابع وعيلته » . والمعروف عن كارلوس هذا انه كان عاملاً اسبانياً اقترن بابنة عمه ماري لويز دي بارم وخضع لسلطانها وسلطان صاحبها الداهية غودوي الذي فرض استبداده على المملكة . وقد تنازل كارلوس عن عرشه وتاجه لنابوليون بونابرت عام ١٨٠٨ ، واعتكف في روما حيث وافاه الاجل . وكان مثال الرجل الذي حطمته عيلته .

تروح ، وتجيء ، كالبغلة النشيطة ، وتبدي اهتمامها بكل شيء . اما سولانج فكان وجهها متجهماً ، متوتراً ، كما كان يوم زارها كوستال للمرة الاولى ، فمثّلت دور الفتاة التي لا تعرفه ، ومثّل دور الرجل الذي لا يعرفها :

– صباح الخير ، يا آنسة .

– صباح الخير ، يا سيّد .

وما إن تبادرت هذه الذكريات الى ذهنه حتى زمجر في سرّه : « ليت الارض تنشقّ وتبتلعني ! » إلا انه ما لبث ان غنم شيئاً من الطمأنينة وراحة البال لما تبيّن له ان المرأتين لا تريدان التحدث عن الزواج .

وبعد الغداء ، ساد بينهم صمتٌ مزعج ، ولم يجد احد ما يقوله . ولا عجب ، فهذه قاعدة عامة في الصالونات والاستقبالات الاجتماعية .

وكانت المرأتان قد فكّرتا بكل شيء ، فاعدتا الراديو والفونوغراف لهذه المناسبة ، وادارت السيدة دنديو اسطوانة لموزار [1] ، ثم نظرت الى ما حولها متحدّية ، كأنها تهدد بسحق من يحتج على ذوقها الرفيع . فاذعن المدعوون الاثنا عشر لقواعد العرف والعادة في تذوّق الفن ، وتعلّقت انفاسهم بالانغام المنبعثة من الفونوغراف . ولم يكن من المحتمل ان لا يعجب احد بموزار من اناس عام ١٩٢٨ . ففي هذا العام ، كان اقطاب المجتمع يعظّمون موزار ، كما كان اقطاب الفكر يعظمون

---

١ – ولفانغ اماديوس موزار (١٧٥٦ – ١٧٩١) موسيقار نمساوي ، ومن اعظم المؤلفين في هذا الفن ، خصوصاً في التعبير الموسيقي عن المآسي . اشهر مؤلفاته : « عرس فيغارو » ، و « دون جوان » ، و « الناي المسحور » ، و « نشيد الموت » الذي يُعزف في المآتم . وله ايضاً سمفونيات دينية عديدة . كان سيداً كبيراً من سادة النغم . توخّى في تآليفه الصفاء ، والاناقة ، فبلغ ذروة العظمة من خلال اللطف والبساطة .

راسين [1] .

وحاولت سولانج ان تنسجم مع ذلك الجو الحافل بالوقار الموسيقي ، فجعلت تداعب قطتها الرمادية ، فارسلت همدرة ملأت بها القاعة ، وراحت تتأمل صاحبتها كما يتأمل المؤمن لهيباً مقدساً . إلا ان هذا الجلال لم يحل دون اهتمام الفتاة بنفسها ، فاخذت توجّه الى كوستال ، من حين الى آخر ، نظرات خفيّة كنظرات البنات الصغار والعجول .

وانفجرت السيدة دنديو مؤنّبة : « دعي هذه القطة وشأنها ! » فخيّل الى الكاتب ان ام سولانج عادت الى الماضي ، اذ كانت تمقت زوجها ويعتلج في نفسها الغيظ كلما رأته يداعب القطط بلطف ومحبة .

واخيراً ، تفتق ذهن السيدة دنديو عن اكتشاف ناجح : لم تجد كلمة تقولها ، فتناولت احد كتب كوستال وشرعت تقرأ فيه بصوت مرتفع مقطعاً كانت تقول انها « تعبده » .

اما الكاتب فراح يسائل نفسه : « الى متى تستمر هذه اللعبة ؟ » واغمض عينيه من شدة الحياء . فبعض الكتّاب يعتبرون قراءة كتاباتهم بصوت مرتفع ضرباً من الفحش والفجور .

وأطبقت السيدة دنديو الكتاب متهلّلة : « عظيم ! مدهش ! » ثم عبّرت عن اعجابها بصيحات مدوّية تدل دلالة ساطعة على انها من سيدات المجتمع الحقيقيات ، وقالت لكوستال :

— والآن ، أتسمح لي بان اسألك ما تعني بهذه الجملة التي لم افهمها جيداً ؟

---

[1] — جان راسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩) شاعر فرنسي اشتهر بنظم المآسي المسرحية . كرّس حياته للمسرح ، ووضع « اندروماك » ، و « بريتانيكوس » ، و « بيرينيس » ، و « بايزيد » ، و « ميتريدات » ، و « إيفيجيني » ، و « فيدر » ، و « استير » ، و « عتليّة » . وتعتبر هذه المسرحيات مثال الكمال الكلاسيكي بسهولتها ، ووضوحها ، وتسلسل حوادثها تسلسلاً طبيعياً .

وقرأت الجملة من جديد ، فلم يتذكر الكاتب فوراً ما عنى بها ، لأنه كتبها منذ عشر سنوات ، ولأن السيدة دنديو قرأتها وحدها فانتزعتها من سياق الحديث الذي وردت فيه . فاعترف بكل بساطة بانه لا يتذكر ما عنى بهذه الجملة . وكان في اعترافه كأنه يخاطب اناساً اذكياء . فانفجرت المرأتان ضاحكتين ، فادرك ان الام وابنتها لا تتحسسان الجو الذي يعيش فيه ، ويتنفس هواءه ، ويحيا به .

وتذكر جملة قالتها سولانج لامها يوماً ، ونقلتها الام اليه بكل امانة وهي : « لو كان بقالاً يبيع بضاعته بالجملة لاحببته كما احبه الآن . وكم افضّل ان يكون بقّالاً ، لأن عدد النساء اللواتي يطاردنه يصبح اقل مما هو الآن ... »

وكانت السيدة دنديو مضطرة الى مغادرة البيت ، فبقي الخطيبان فيه وحيدين .

اذا كانت عبارة : « متى نلتقي ؟ » مدمرة للاعصاب ، فان عبارة : « ما الذي يجب ان نعمله الآن ؟ » ، لا تقل عنها قدرة على التدمير .

اقترحت سولانج ان يذهبا الى منزله لترى مجموعة صور تمثل الهندسة المصرية القديمة كان قد حدّثها عنها ، فقال في نفسه : « من البديهي ان الاهتمام بهذه الهندسة لا يخطر في بالها ، إلا انها تريد ان تقتل الوقت ، وان تتظاهر بانها تهتم بما يهمّني » .

ومضت الى غرفتها لترتدي ثيابها . وكانت حتى ذلك الحين تحظر عليه دخول هذه الغرفة لخجلها بما فيها من اشياء حداثتها التافهة التي كانت متشبثة بها لا تستطيع الاستغناء عنها ، ناهيك بما فيها من قلة الترتيب والفوضى الداعة .

اما هو فقد راودت ذهنه النظرية التالية : « تعتبر سولانج هذا المكان مقدساً اكثر منها . واذا كان بين الناس من لا يحترم نفسه ، فانه يحترم ، ولا ريب ، الادوات التي تستعمل لاقامة الشعائر الدينية ، وينقل الى

الاشياء الخارجة عنه الاهتمام الذي يجب ان يحصره في نفسة ».

وختم نظريته قائلاً : « كثيراً مـا وضعت برنامجـاً لعملي ، وحدّدت فيه اوقاتي بكل دقة ، فاصبحت عبداً له ، اكره كل جديد غير منتظر حتى لو كان موافقاً وممتعاً ».

وبينما كان في منزله يتصفّح مجموعـة صور الهندسة المصريـة ، خطر في باله ان ينتقل الى مجموعـة صور اسرتـه . واشتدت رغبته في عرض هذه الصور اشتداد دويّ القنبلة الهابطة من الجو ، ثم انفجرت القنبلة ، وآتّخذ القرار الحاسم ، فجيء بالمجموعة وبوشر تصفـّحها .

فلما رأت سولانج صور ابويه وجدوده ، قالت فيهم اقوالاً حسنة ، وتكلمت عليهم بعذوبة ولطف . وبقدر ما كان كوستال يقلب الصفحات ، كان يشعر بهدوء عجيب يصعد من اعماقه ، هدوءٍ غامض الاسباب ، مجهول العوامل ، احس الكاتب فيه كأنه يقوم بمباراة ركض على مسافة مائة متر ، لا يتنفّس ملء صدره إلا في نهايتها .

واخيراً قلب احدى الصفحات ، فظهرت صورتان من صور ابنـه ، فقال :

– هذا ابن احد اعمامي . يقولون انه يشبهني ، واني كنت مثله ايامَ حداثتي ، فما رَأيكِ ؟

– لا ! كنتَ ، ولا ريب ، اجمل منه بكثير .

– ألا يعجبك ؟

– اقول بصراحة : لا . ففي ملامحه ما يدل على انه اناني ، يحاول الحصول على ما لا يستحق ، وهذه صفة لا تعجبني .

فقلب كوستال الصفحة .

واحس بهدوء عميق شامل اسبـغ عليه فيضاً من الارتياح والطمأنينة . وكانت هذه طمأنينة تجتاز مدخل الميناء فترتاح من العاصفة .

وتذكر ، في هذه اللحظة ، جملة قالتهـا له في جنوى : « من حسن

حظك ان ليس لك ابناء » . ولو كان ثمة من يراقبه لرأى ان وجهه ، الذي كان بالامس متجهماً ، متوتّراً ، كئيباً ، قــد اشرق ، وصفا لونه ، وفاض عليه البشر ، كوجه شهيد في اللهيب ، يبتسم عندما يلفظ الروح مستبشراً برؤية وجه ربّه .

وللمرة الاولى، منذ عودته من جنوى، ضمّ سولانج الى صدره بحرارة وحب حقيقيين .

٩

في اليوم التـالي ، كان كوستال ينتظر وصول سولانج الى مـنزله في الساعة الخامسة بعـد الظهر . وكان قد وجّه اليهـا صباحاً برقية هـذا نصها : « تعالي الى منزلي الساعة الخامسة بعد الظهر ، وكوني شجاعة ، يا صغيرتي . فـاطلعك على خبر مزعج جـداً بالنسبة اليك » . ثم قطـع خط الهاتف .

وكان كلما تذكر وجهها ، خيـّل اليه ان هـذا الوجه عـائم على سطح المـاء ، وان فيـه نظرات توسّلٍ واستجداء تقول : « رحمـاك ! انقذني ! » غير انـه كان يضربه بالجداف ليغرقـه في اللجـة ، ويقول لنفسه : « اجل ، اني اقتلها ! » ونظر قليلاً الى المرآة ، ثم استطرد قائلاً : « ان وجهي لوجه قاتل ، وعملي وحشي فظيـع ، لكني على حق . اني مائة مرة والف مرة على حق في اقدامي على هـذا العمل ، ولا بـد لي من تفضيل نفسي عليها لاني لا احبها » .

وقرعت الباب ، فراح يفتحه لها . وكان شديد التأثر . إلا انه لم يستطع اخفاء ابتسامة عريضة شاعت في جميع قسمات وجهه . ولم تكن ابتسامة عطف ، بل ابتسامة لهوٍ وعبث ، حتى انه وقف لحظة وراء الباب قبل ان يفتحه ليعيد الى ملامحه شيئاً من الجد والرصانة .

ثم فتح الباب ، فـاذا بسولانج غير متبرّجة ، لا بودرة ولا حمرة . فادرك انها فهمت غايته من دعوتها . وجمد كلاهما لحظةً كمن اصيب بجرح ،

فوقف ينتظر ظهور الدم .

وفي صمت تام ، بلا سلام ولا كلام ، قادها الى غرفته . وكانت الكهرباء مطفأة ، فلم يشعلها . وتهالكت على احد المقاعد خائرة القوى تلك التي حدّقت يوماً الى قرص الشمس ، وتدلّت حقيبتها على ساقيها ، ثم سقطت على الحضيض . فجثا الى جانبها ، وجعل يقبّل يديها الباردتين ، وقد بدت فيهما شرايين شديدة الزرقة كأنها انهار متعددة الفروع والروافد تمر تحت جسر سوار الساعة اليدوية ، فخيّل اليه انها قطة فقدت جراءها ، فجلس يحك رقبتها لتنسى همها وتهمدر .

ورأى على حذائها الاسود غباراً باقياً من اليوم السابق ، فقال في نفسه : « انها مهملة ، وبيتها خالٍ دائماً من الترتيب » . ثم لثم وجهها مراتٍ ، فما بادلته قبلةً واحدة ، ولم يدرِ أناجم جمودها عن الاستياء ام عن الانهيار التام ؟

وكان وجهها ابيض في الظلام كجبل الجليد في الليل . فالضربة التي تلقتها على رأسها جعلت نظراتها شاردة ، مضطربة ، عميقة الغور . وما كان اجمل الحركة التي عبّرت بها عن حزنها مرات عديدة ، اذ رفعت ذراعها قليلاً ثم تركتها تسقط على مسند المقعد في صمت ثقيل . اما الرجل فحين يقوم بمثل هذه الحركة اليائسة يشد بقبضته كأنه يريد ان يلكم .

وكان كوستال بارعاً في تخفيف حدة التوتر كلما تأزمت الاحوال ، يستدرج المرأة الغاضبة بلطفه وكياسته حتى تبتسم على الرغم منها . اما حيال حركة سولانج المعبّرة عن اقصى حدود اليأس ، فقد احس بعجزه ولزم الصمت . لكنه لم يلبث ان احس بان جفونها مبلّلة بالدموع ، فقطع الصمت قائلاً لها : « اذا كنت ترغبين في البكاء فلا تكبتي نفسك » . فنهضت فوراً ، وانطرحت على السرير . انطرحت على بطنها كالفتيات

الصغيرات ، واجهشت في البكاء ، ثم صاحت :

– لا ! لا ! لا اريد !

– ما الذي لا تريدين ؟

– لا اريد ان اخسرك !

وانهالت عليه تقبّله ، وتتلمّس بيديها قسمات وجهه ، وتداعب شعره ، وتدخل يدها بين سترتـه وقميصه، وكلمـا همس في اذنها : « يا صغيرتي الحبيبة ... » ، اجابت بكلمة واحدة : « نعم ... » وهكذا الهر ، كلما خاطبته اجابك بمواء واحد قصير .

همست في اذنه بصوت خافت يكاد لا يسمع :

– قلبي ... قلبي غريق !

تلاشى كل ما كان فيهـا من القساوة خـلال الايام الاخيرة ، فغدت تذوب لطفـاً وعذوبة ، ككلب يحس بانه يموت ، فيهز ذنبـه في حركة وداع مؤثـّرة .

وكانت تعلم ان كل شيء قد انتهى ، فشعرت بان حبها يزداد احتداماً بعد ان خفّ ، نوعاً ما ، على اثر عودة كوستال من جنوى .

كانت تحبه بقوة ليساعدها حبها على المضي في عذابها الى آخر حدود اليأس ، وكانت تحبه لانه لم يعد حملاً وديعاً بين يديها ، بل جعل يقاومها واصبح سيداً من جديد .

ولما توقف عن الكلام ، بعد ان سرد اقواله المعروفة ضد الزواج ، كأنه يخاطب نفسه في حلم ، قالت له :

– أتذكر قول بولس في كتابـه « عطلة الصيف » : « مهما تمعن في تعذيبي ، فلن آتي عملاً يسيء اليك » ؟ هذا ما اقوله لـك الآن . مهما بذلتُ من المحاولات فلا استطيع ان استاء منك ، ولا ان انقم عليك . لا اقوى على قهر حبي لك . كان يجب ان تكون شريراً معي لانجو من هذا الحب ، لكنك لم تكن قط شريراً ...

اجابها بهدوء :

– انا ايضاً غير ناقم عليك .

وكان يفهم جيداً مـا يقول ، إلا ان سولانج لم تفهم ، فانتفضت قائلة :

– ما كان ينقصني إلا ان تنقم عليّ !

– كنت استطيع ان اكون شريراً اكثر مما كنت ، لو استعملت ما اعطيتني من السلطة في سبيل الشر . إلا اني اعطيتك نواة احلام عذبة لايام شيخوختك . وسترين كم ستكون احلامك جميلة يوم تفرخ هذه النواة وتزهر . أريتك بلداناً لا تعرفينها ، وعلمتك فـنّ الحياة ، وجعلت لـك مصيراً . بفضلي انا اكتشفتِ نفسك ، وغصتِ في طبيعتك حتى بلغتِ اعماقها ، بينما هناك نساء كثيرات ما برحن تائهات على الطرق يبحثن عن نفوسهن .

– هذه الحالة التي اوصلتني اليهـا هي التيـه على الطرق . وكم يؤلمني التفكير بانه كان من المحتمل ان نجد معاً السعادة في الزواج ، وباننا لم نقم بهذه التجربة ، وباننا تألمنا وتعذبنا سدىً !

– لم تتألمي سدىً . فالرجل وحده يتألم للاشيء ، لا المرأة . أجل ، عذّبتك ، فماذا تريدين اكثر مـن هذا العذاب ؟ ان المرأة بحاجة دائمـة الى العـذاب . من يحرمهـا العذاب يقتلها . وثمـــة نساء أصبن بالجنون لانهن لم يتعذبن ، اعني لم يتعذبن عذابـاً طبيعياً . لو استطاعت النساء ، يوماً مـا ، ان يلدن ابناءهن بـلا ألم لفقدن عطف الامومة ومحبتهـا . لذلك ترين جميـع النساء تقريبـاً شقيات . وهـذا افضل لهن . وبعد ، فمـا قيمة يأسك ؟ فكري بالملايـين الثمانيـــة من البشر الذين هلكوا في الحرب . فكري بانـه كان من الممكن ان تموت امـك ، بـدلاً من اهتمامك بزوال رجل مـن حياتك لا تعرفينـــه إلا منـــذ ثمانية اشهر .

– ألا يكفيني عذابي حتى تزيده بحديثك عن موت امي ؟

غير ان حركاتها كانت تناقض اقوالها ، لانها كانت توبخه وهي تداعبه وتقبّله ، وتدير اليه وجهاً يشع بالحب والاخلاص . إلا انه لم يكن يفهم هذا النوع من التعبير . قالت له :

– كنتُ ، ايامَ حداثتي ، استنكر عمل القديس مرتينوس لانه لم يعطِ الفقير إلا نصف ردائه . ما الفائدة من نصف الرداء ؟ وانت لم تعطني سوى نصف ردائك . وهذا لا يجوز . كان عليك ان تعطيه كله ، او لا تعطي منه شيئاً .

– اعطيت ما استطعت .

ولم يكن صادقاً ، لانه اعطاها ما استطاع بقدر ما رأى انها تستحق العطاء .

استطردت قائلة كأنها لم تسمع جوابه الاخير :

– لو عشتُ الى جانبك لكانت لي شخصية لا استطيع تكوينها وانا بعيدة عنك . لولاك لكنتُ شيئاً زهيداً . هذه حقيقة اعرفها واعترف بها .

وبعد سكوت قصير ، استأنفت حديثها قائلة :

– لكني اساوي شيئاً على كل حال !

– ماذا تريدين ان افعل لاجلك ؟ أتريدين ان نتابع علاقاتنا كما كانت ؟ اسمعي : اني اقترح عليك ان نحقق جميع المشاريع التي خططناها لمستقبلنا ما عدا الزواج . وبكلمة اخرى ، اني مستعد ان اخصص لك غرفة في منزلي تقيمين فيها بضعة ايام كل اسبوع . وهذا يعني الزواج بكل ما فيه من المعاني ، من غير تحديد موعد للعقد الرسمي .

– تريد ان اكون خليلتك ! طبعاً ، هذا الحل يوافقك انت ، اما انا فانه يهدم حياتي . اكاد لا اصدق انك جادّ في هذا الاقتراح .

— أولستِ خليلتي منذ ثمانية أشهر ؟

— لم اساكنك قط ، في باريس على الأقل ، اما في جنوى فلم يكن احد يعلم حقيقة امرنا . وليست هذه المساكنة ممكنة هنا ... ثم ، يوم اقمنا في جنوى كان يمكن القول اننا خطيبان ، اما الآن فلا . لا ريب عندي ان ثمة نساء عديدات يقبلن باقتراحك ، فكن واثقاً باني لست من طبقتهن . لست مستعدة ان اكافيء امي على عطفها وتفهمها وتساهلها بقبول هذا النوع من الحياة الذي يجعلني واياها على هامش الحياة ، ويوصد في وجهينا جميع الأبواب ، ابواب اسرتنا وابواب المجتمع جميعاً .

فتساءل كوستال في سره : « اي مجتمع ؟ » واحس باحتقاره لسولانج يحتل نفسه من جديد .

واستطردت الفتاة قائلة :

— وفضلاً عن ذلك ، فان عمي « ميركادياه » يحرم امي ارثه اذا علم اني اعيش معك بلا زواج . من المدهش انك لا تفكر بهذه الامور . فمن هن النساء المحتقرات اللواتي عرفتهن في حياتك ، يا صديقي المسكين ؟

يُستخلص من هذا القول ان الآنسة دنديو كانت تتحدى التقاليد وقواعد اللياقة اذا رأت ان هذا التحدي ضروري للحصول على الزواج ، ثم تصبح بورجوازية محافظة اذا كان الحب وحده يدفعها الى التحدّي .

وسُرّ كوستال بانه اكتشف فيها هذه النزعة الانتهازية ، فقال لها بعذوبة ولطف :

— يبدو لي هذا الكلام جديداً بين شفتيك ، ولا استطيع إلا ان اوافق عليه . وعلى هذا فلم يبقَ عليك إلا ان تتزوجي . أتريدين ان ابحث لك عن عريس ؟

— أمجنون انت ؟ ستمضي سنوات وسنوات قبل ان اتزوج . فمن

يدعوني الى الزواج الآن كمن يطلب اليّ ان احمل وجهي مبروماً الى وراء ، الى ناحية الظهر . الزواج بك هو الوحيد الذي لا اعتبره نوعاً من الموت . وليست المأساة الحقيقية في انك لا تحبني ، بل هي في كوني لا استطيع ان احب سواك . كم من النساء لم يلتقين قط برجل ذكي ! اين اجد رجلاً مثلك يتمتع بهذا الجوهر من النضج في هذا المظهر من النضارة والرواء ؟ اين اجد رجلاً يفهمني ؟

هذه الصيحة الاخيرة ، التي تحدث تأثيراً عميقاً في النفس لو اطلقها رجل من وزن ارسطو [1] ، او من مستوى هنري بوانكاريه [2] ، جعلت كوستال يشمئز لانه سمعها من فتاة عادية . وكان متأثراً في تلك اللحظة ، فغاص في بئر من الكآبة كثيراً ما تحاول النساء طرح الرجال فيها ، كلما حاولن جعل معاملة الرجال لهن جديّة ، فتبوء محاولتهن بالاخفاق .

وكان كوستال من ابعد الرجال عن الرغبة في « تنشئة » النساء وتعليمهن فنون الحياة ، فلم يفكر قط إلا بتربية ابنه . وكان اهتمامه حتى بهذا الابن متقطعاً لا لحمة له ولا مثابرة فيه . وقد أثـّرت فيه سولانج لما قالت له : « اشعر الى جانبك بان لي شخصية مرموقة » ، لانها لم تكن كاذبة في مديحها هذا ولا متزلفة . اما الآن فقد اصبح هذا القول يزعجه ، لانه يذكـّره بالمقالات المضحكة التي تنشرها الصحف في صفحتها النسائية ، ويرد بها قلم التحرير على رسائل القارئات بامضاء « المرشدة سيلفيد » ، او « ابنة العم حنّة » ، ليعلم « الاخوات العزيزات » كيف يُكوّنّ شخصياتهن .

---

١ - فيلسوف يوناني (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) كان معلم الاسكندر المقدوني الكبير وصديقه . له مؤلفات عديدة في المنطق والسياسة والطبيعيات والفيزياء ، ويعتبر رائد الفلسفة الكلاسيكية .

٢ - عالم رياضي فرنسي من اعظم علماء عصره (١٨٥٤ - ١٩١٢) .

وهذه المحاولات التي تبذل لاعطاء المخلوقات التافهة شيئاً من الاهمية هي من الاعمال التي تثير الدهشة وتدعو الى الرثاء .

قال لها :

— أتعتقدين اني فهمتك ؟

فاجابت :

— بكل تأكيد !

فاستولى عليه الذهول ، لأنه لم يكن يجد فيها ما يُفهم او لا يُفهم . ثم سألها بكثير من اللؤم :

— أمختلفة انت الى هذا الحد عن سائر النساء ؟

— ألم تلمس فيّ هذا الاختلاف بعد ؟

فكر كوستال بان كل امرأة تحسب نفسها مختلفة عن سواها مهما تكن شبيهة كل الشبه بجميع النساء ، فقال لسولانج :

— ليس المهم ان تكوني مختلفة عن النساء الاخريات ، بل ان تكوني مختلفة عن نفسك . اما انت فتظلين دائماً ما انت ، لا تتغيّرين مقدار ذرة .

وكان في الغرفة وعاء فيه ازهار تتساقط اوراقها كرجل يرمي نساء من حياته ، فاستأنف كوستال حديثه قائلاً :

— ما اسخف تصرفات المرأة !

وخطر في باله ، كما يخطر في بال جميع الرجال ، ان سولانج مستعدة لان تستسلم لكل رجل يشتهيها ، لانها استسلمت له ، فقال :

— ان المرأة لا تتعلّق بالرجل الذي تحبه إلا اذا كانت خالية من الذكاء . فكوني ذكية قليلاً كالهر الصغير الذي يرى الباب مشقوقاً ، فيفتحه بيده ليخرج . اجل ، تعلمي كيف تخرجين . ففي العالم رجال كثيرون مثل كوستال يستطيعون الانسجام معك على احسن ما يرام . اما نحن فمن الواضح ان احدنا لم يولد للآخر . وفي وسعك ان تكوني على حذر في المستقبل ، برفع النظر عن الفوائد التي جنيتِها من تجربتك

معي . كان الآخرون يفكرون عوضاً عنك حتى الآن ، فعليك منذ اليوم ان تفكري بنفسك ولنفسك . فالغاية التي تسعين اليها ليست الحب ، بل الزواج . وانا مستعد ان اشترك معك في خيانة زوجك بقدر ما تشائين .

— واذا احسستُ اني لا استطيع ان احيا حياةً مزدوجة ؟ فانت تعلم اني لن اخون زوجي مهما يكن الامر ، فليس هذا سبيلي في الحياة .

— وماذا تريدين اذاً ؟ ماذا استطيع ان افعل لاجلك ؟

وخطرت في باله فكرة رجل ، فكرة غليظة ، خشنة الى اقصى حد ، إلا ان الحوادث التالية اثبتت انها فكرة ممتازة ، قال :

— تعلمين اني واثق كل الثقة باننا لو تزوجنا لما كان لنا مفر من الطلاق ، فقد كنت احلم بالطلاق بقدر ما احلم بالزواج ، فالطلاق هو العمل الاساسي والأهم في الزواج ، عليه يجب ان نلقي اتكالنا ، واليه يجب ان نوجه اهتمامنا ، واني لأرجو ان تجعله الكنيسة سراً مقدساً كالزواج ...

ابتسمت له ، فسرّه هذا الشعاع من نور الشمس بعد فترة طويلة من الظلام ، اذ حسب ابتسامها دليلاً على الانشراح كما يعتقد علماء النفس ، لكن ليس بين السخفاء من هو اسخف من عالم نفساني ، أفلا يبتسم المرء احياناً من شدة الألم ؟

واكمل حديثه قائلاً :

— ... لهذه الاسباب قلت لك يوماً اني ساقدم لك خاتم الخطبة في حفلة الطلاق ، لا في حفلة الزواج . فاسمحي لي بان اقدم لك هذا الخاتم الآن . انه مرصّع بحجر وحيد من الألماس . وهذا رمز لصديقك كوستال الذي يحتّم عليه مصيره ان يظل وحيداً .

— لا استطيع ان اقبل منك خاتماً في هذه الساعة !

ففتح صندوقه الحديدي ، واخرج منه خاتماً جميلاً كان لامه التي

قالت له وهي على فراش الاحتضار : « أما خواتمي فقدمها لصديقاتك الحميات » .

كانت الغرفة ما تزال غارقة في الظلام . فما كادت سولانج تأخذ الخاتم حتى انارت الكهرباء لتراه ، فادرك كوستال ان حالتها قد تحسنت . ومدّت يدها كأنها تريد ان تعيد الخاتم اليه ، فسألها :

— ألا تريدينه ؟

فلزمت الصمت .

قال لها :

— التمس منك ان تقبليه !

فابرزت شفتيها كما كانت تفعل لما كان يقدم لها صنفاً من الحلوى في المطعم ، ثم قالت :

— لا بأس ! اني اقبله . غير اني لا اعتبره هدية ، فهذا غير لائق بي ، بل اعتبره تذكاراً منك .

— طبعاً ! فانا لا اقدمه لك الا بمثابة تذكار ، ولم افكر بانه هدية .

فحرّكت الخاتم لتفحص بريق الألماس ، ثم قالت :

— من المؤسف ان صنعة الذهب قديمة ولم تعد دارجة .

— ساوصي لك على خاتم حديث وارصّعه بهذا الحجر .

وقال في سره : « يا لها من بغي مسكينة ! انها الفتاة التي قالت عنها امها اكثر من مرة انها لا تحب الحليّ . وها هي تتعهّر لتحصل على الزواج ، ثم تقبل ثمن تعهّرها لتداوي به خيبتها . انها لا تختلف بشيء عن عامة النساء . أجل ، ليس في العالم امرأة لا تتعهّر . ثم انها طفيلية ، نفعية ، فمنذ ثمانية اشهر ما برحنا نخرج معاً الى المدينة ، فما فتحت حافظة نقودها إلا مرة واحدة لتشتري خيطاناً بخمسة قروش . فلم يبقَ عليّ إلا ان اعطيها شهادة بانها تستحق ٥ على ٢٠ في القابلية الجنسية ، وان ادوّن على هذه الشهادة اوقات الدخول الى مخدعها والخروج

منه . لكن ، هل كنت ارجو الوصول الى افضل من هـذه النتيجة ؟ اصبحنا الآن متعادلين : لا عليّ ولا لي » .

يوم كانت « الفتاة المرشحة لتصبح زوجتـه » ، ثم امست خطيئتـه ، جعلته في جوٍّ بالغ السمو لا يألفه ولا يستطيع البقاء فيه . اما الآن وقد غدت بغياً فانه يجد الى جانبها الطمأنينة والارتياح ، ويعود في معاشرتها الى حياته الطبيعية .

دفع لهـا خاتمـاً ثميناً كما يـدفع السجين رشوة لحارسه كي يتسنى له الفرار . هذا هو المقدّر للمرأة في هذه الحياة .

وعاد اليـه اسلوبـه الساخر الخبيث في الحديث ، لأنه لم يكن ليهتم طويلاً باعماله الشريرة ، فقال لسولانج :

— متى تزوجتِ ، قولي لزوجك انك ورثت هذا الخاتم من جدتك التي كانت تزيّن به يدها في الحفلات الراقصة التي كان يحييها الامبراطور نابليون الثالث . ونبّهي امك الى هذا الامر لئلا تقول الحقيقة فتخونك .

— تخونني ؟ يبدو لي ان الخيانة من شأنك انت !

— جميع افراد اسرتي اقدموا على الخيانة . خانوا ليخونوا ، كمـا حاربوا ليحاربوا . هذه النزعة متأصلة في دمنـا منذ خمسة قرون . ولو كنتِ من بنات فرنسا لعاملتك معامـلة اخرى لكونك امرأة اخرى . يطيب لك التفكير بانك حدثٌ فريد ، فلو كنتِ حدثاً فريداً حقاً لما اقدم رجل على خيانتك .

وبقساوة فظة ، طلب منها ان تخلع ثيابهـا . فقـد اشتهاها في تلك اللحظة للمرة الاولى بعد عودته من جنوى ، لانه لم يعد يخشاها ، ولانها اصبحت في نظره بغياً .

قالت ، كأن شيئاً لم يحدث بينهما : « أتريد ان أحلّ شعري ؟... »

أخذها مرتين بحماسة كأن شهوته موجة عارمة لا قِبَل له بمقاومتها . واحست هي ، للمرة الاولى بعـد عودتها من جنوى ، انهـا جنت من

الوصال متعة كبرى .

كانت رخوة ومتخاذلة لما كان هو عاشقاً شارد الفكر ، وخطيباً متخوفاً من كل شيء ، فاضحت شعلة محتدمة لما اصبح حازماً في قراراته ، قوياً في مداعباته . ثم انهما لم يكونا في تلك الفترة إلا خليلين ، فرأيا أن يقوما بعملهما في هذا النطاق على الوجه الأكمل .

ولما همت سولانج بالذهاب ، اخذت علبة السواكير التي كان كوستال قد أفرغها ، ووضعتها في حقيبتها لتكون لها آخر تذكار من ايام خطبتها . فقال لها الكاتب :

— ان الذين يحتفظون برسائلي او بعلب السواكير الفارغة التي ارميها ليتظاهروا برقة العواطف ، يثيرون استيائي حتى الجنون كالذين يصلّون لاجلي . اخذتِ الخاتم ، وهو يكفي .

وانتزع منها علبة السواكير ليطرحها في سلّة المهملات .

وبعد العشاء ، اتصلت به السيدة دنديو هاتفياً ، وتحدثت اليه حديثاً كان مثال الحكمة والرصانة . فقد تخلّت ، هي وابنتها ، عن كل شيء ، بسهولة مدهشة ، كما قبلتا في ما مضى كل شيء بسهولة مدهشة . وهذه هي فضيلة الاذعان التي تتحلى بها النساء الفرنسيات . اما ارادة هذا النوع من النساء التي تتبجّح بها كثيرات ، فانها ركيكة سريعة الاهتراء . فالام عندنا تمنع ابنها اربع مرات عن ارتكاب حماقة ما ، وفي المرة الخامسة ترفض التدخل في شؤونه ، فيستطيع ان يكسر ساقه بكل راحة بال .

وفي نهاية المخابرة الهاتفية ، سأل كوستال : « أيجب عليّ ان احافظ على علاقتي بسولانج ، وان التقيها من حين الى آخر ؟ » فاجابت السيدة دنديو بالنفي .

وكان يود ان ترد الام عليه بهذا الرفض ، لأنه كان يفكر بالذهاب الى المغرب ليزور صديقته خديجة التي لم يرها منذ ثمانية عشر شهراً

تقريبـاً .

وعلم ان احدى البواخر مزمعة على الابحار في اليوم التالي الى الدار البيضاء ، فركب القطار وتوجه الى بوردو من غير ان يرى سولانج ، وهو يقول في نفسه : « لا احسن القرار وحسب ، بل احسن القرار في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان » .

ثم جعل هذه الحادثة بين هلالين ، واعتبرها في ذمة الماضي .

اصبتُ بالشهقة ،
الله ارادها لي ؛
ابتهلت الى يسوع
فشفيت منها [1] .

---

[1] - هذه العبارة من الازجال الشعبية الفرنسية المقفاة التي يتعذر نقلها بامانة الى العربية ، ويرددها البسطاء عندما يصابون بالشهقة لاعتقادهم ان لها كرامة سحرية شافية ، وهي :

J'ai l'hoquet .
Dieu m'l'a fait .
P'tit jésus ,
Je n'l'ai plus .

١٠

من

اندريه هاكيو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٢٧ كانون الثاني ١٩٢٨

اشتريتُ من احد محلات الآثار القديمة في مدينة اورليان قطعة من ورق الأرزّ الصيني عليها صورة عصفور مرسومة باليد . وهـذه التحفة هي الشيء الوحيد الجميل في غرفتي ، وحتى في منزلنا كله . فجميع الصور الاخرى نسخ لا قيمة لها .

اني انظر الى صورة العصفور ولا ارتوي ، ثم افكر بان رجلاً رسمها ، واتذكر تمثالاً من الخشب رأيتـه يوماً في متحف دينري ، يمثّل افعى ملتفة على سلحفاة ، وقد بدا جسم الافعى منبسطاً قليلاً حيث يضغط على بيت السلحفاة ، فكان ذلك كافياً ليعطي التمثال مظهراً من مظاهر الحياة . وعلى مسافة الوف الكيلومترات ، منذ مئات السنين ، صنع رجلٌ آخر هذا التمثال من الخشب .

كنت احسب الفن من الكماليات العديمة الفائدة التي تهم تلاميذ

المدارس والنساء ، لاني ربيت في بيئة خالية من الثقافة ، ولم تكن الدروس الابتدائية التي تلقيتها كافية لتنير عقلي وتغيّر افكاري .

ولما بدأت ادرك ان الانتاج الفني مقتصر على الرجال اقتصاراً يكاد يكون كلياً ، وانه اسمى تعبير عن نشاط الرجولة ، انتابني ذهول لم يزل تأثيره في نفسي حتى الآن .

واليوم ، عندما ارى تحفة تحرك احساسي ، او اقرأ صفحة تصبغ وجهي بالاصفرار ، افكر بان رجلاً كتب هذه الصفحة ، ورجلاً آخر ابدع تلك التحفة ، فيملأني شعور عميق بالاحترام وعرفان الجميل ، وارى ان علينا ، نحن النساء ، ان نلزم الصمت . فلوحة العذراء في متحف اوتون [١] ، ولوحة اندروماك ممسكة بابن هكتور [٢] ، ولوحة ماوغلي [٣] وهو يودع الادغال ، وكاتدرائية شارتر [٤] ، والبارتينون [٥] — هذه التحف كلها

---

١ — مدينة فرنسية على نهر لوار فيها ابنية رومانية قديمة ، وكاتدرائية فخمة ، ومتحف شهير .

٢ — زوجة هكتور بن بريام ملك طروادة وام استياناكس . بعد سقوط طروادة وهلاك زوجها اصبحت أمة لبيروس بن اخيل الذي خيَّرها بين ان تقترن به او ان يقتل ابنها ، فصممت على الاقتران به لانقاذ استياناكس ، ثم على الانتحار بعد حفلة الزواج فوراً لتظل امينة على عهد هكتور ، إلا ان بيروس قُتل قبل الزواج ، فنجت من الموت . تغنى بها هوميروس في الالياذة واعتبرها مثال الأمانة الزوجية ، واتخذ الشاعر الفرنسي راسين من قصتها موضوعاً لتمثيلية من اشهر تمثيلياته .

٣ — بطل « كتاب الادغال » لمؤلفه رديارد كيبلنغ ، نشأ مع الذئاب وعايش حيوانات الادغال كأنه منها .

٤ — شارتر : مدينة فرنسية فيها كاتدرائية تعتبر من روائع الفن الهندسي في العالم ، ومن اجمل الآثار القديمة واثمنها . يرقى تاريخها الى القرن الثاني عشر .

٥ — هيكل قديم في آثينا ، بني في القرن الخامس قبل الميلاد . وهو من اجمل الآثار المعروفة في العالم .

ولدت من الحب ، من ذلك الحب الذي يحذقه الرجال ويعطونه بطريقة غير العناق والضم بين الذراعين . لكن ، ليبعث الفن في نفسي ذلك الحب الذي تمخض به وابدعه ، يجب ان اتذوّق ، ولو مرة واحدة ، عناق رجل لاعرف ما هو ، ولاستطيع بعدئذٍ أن اصرف عنه اهتمامي .

لو أخذني رجل مرةً واحدة بين ذراعيه ، لكان عالم الفن كله لي ، ولانطلقتُ في مجراه العذب الوسيع المتدفق بين الفنّان والمخلوقات والاشياء ، عوضاً عن بقائي على ضفته . ان رفضك القاسي ، رفضك الذي لا يرحم ولا مبرر له ، حرمني كوناً فسيحاً ، ومع ذلك احس ، في هذه اللحظة ، اني غير ناقمة عليك .

في اليوم التالي . — انك تعلم كيف تجري الامور معي : يجب ان ابوح بما في صدري . لن احاول التمويه ، بل اصارحك بانك آلمتني . في الخريف الماضي عرفتُ من الصحف انك سافرت الى ايطاليا ، ففهمت قصدك ، وادركت انك تريد اطالة المسافة التي تفصل بيننا . ثم ان السفر يساعدك على صرف ذهنك عن التفكير بي . وقد اخترت لحديثك في الراديو اليوم الذي كنتُ فيه عند عمي ، وليس في بيته راديو . واتذكر جيداً اني كتبت اليك : « خلال يومي الاربعاء والخميس ساعيش بعيدة عن الكتب والراديو ، وستكون هذه الفترة صعبة عليّ ! »

وصل عمي . فالى اللقاء . ساعود الى اكمال هذه الرسالة بعد قليل .

اسمع هذه الحكاية .

منذ ساعة تقريباً ، كنت عائدة الى منزلنا مع عمي ، فلما وصلت الى المفترق بين شارع الجمهورية وشارع الدباغين ، احسست كأني تلقيت قبلة . وكان احساسي بها قوياً حتى ان وجهي اصطبغ باحمرار الحياء . ولا ريب في ان نسمة قوية من الهواء هبّت وصفعت شفتي ، فبعثت فيّ هذا الشعور . ولأني امرأة مائة بالمائة ، اي اني استحق الدوش

البارد [1] في فترات حماستي الغرامية ، فقد آمنت بصحّة تبادل الافكار .
واخيراً وصلت الى البيت ، فماذا قرأت في الجريدة ؟ قرأت ان حديثك في الراديو أُرجىء الى بعد غـدٍ . أفي وسعي ان اعتقد ، او أكون مغرورة اذا اعتقدت ، انك احسست بتبكيت الضمير لما قررت القاء حديثك في يوم لا اتمكن فيه من الجلوس الى جهاز الراديو لاسمعك ، فأرجأته الى بعد غدٍ ؟ اذا كنتُ قد حزرت الحقيقة فاذكر عبارة « تبكيت الضمير » في الجملة الاولى من حديثك . قل ، مثلاً ، : « سيداتي ، سادتي ، كان من المحتمل ان اعاني « تبكيت الضمير » لو لم اتمكن ، الخ... »

كتبت هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة ، وهرعت الى صندوق البريد لاضعها فيه كأنها ستصل اليك على الفور ، مع العلم انك ستتسلمها غداً صباحاً ، فتعطيك قليلاً من السرور ليومك كلّه .

أ.

رفقت برسالتي هذه قطعة من قماش الثوب الجديد الذي يعده لي الخيّاط لتشتري ثوباً مثله لصاحبتك في هذه الايام .

(وُضعتْ هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يُفض غلافها)

---

[1] ـ طريقة متبعة في مستشفيات الامراض العصبية لتهدئة اعصاب المجانين عندما تنتابهم ازمات حادة من الهيجان ، ولاسيا الهيجان الجنسي .

١١

من

اندريه هاكيو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٢٩ كانون الثاني ١٩٢٨

كوستال ، عزيزي كوستال ، لستَ خطيباً . لستَ موهوباً في الخطابة . انتظرت الموعد المعيّن لحديثك بالراديو ، وكنت اخشى ان تبدأ قبل الوقت بخمس دقائق .

منذ الساعة السابعة جلستُ انتظر ، فتعلمت من حديثك ان اللابونيين[1] يأكلون السمك مغمساً بالنفط ، وان السيد كلود فارير[2] « كاتب كبير » ، وان معجون « فيبو » للشعر يلمّع حتى الصوف . فما اكثر ما اتعلمه بفضلك !

---

١ - شعب متخلف يعيش على صيد السمك وتربية الأيائل في المناطق القطبية الشمالية . عدده حوالى ٣٠ الف نسمة .

٢ - اسمه الحقيقي فريدريك برغون فارير (١٨٧٦ - ١٩٥٧) ، روائي فرنسي كان ضابطاً في البحرية . اشهر مؤلفاته : « المتمدنون » ، و « المعركة » .

انتظرت عبارة « تبكيت الضمير » تلفظها شفتاك ، فما سمعتها . ومن المحتمل ان تكون فاتتني لأن لفظك سيّىء . إلا اني وجدت في حديثك ما اداوي به خيبتي لما ذكرت ما ورد في كتابك : « ارجوان » ، من قول الأم لابنتها :« احبك حباً عظيماً لا اجد فيه مجالاً لابوح لك به »، ورأيت ان لا شيء في حديثك يوجب ايراد هـــذه الجملة ، فاعتبرتها موجهة منك اليّ ، وتبادر الى ذهني انك تعمدت قولها لي .

اجل ، ان لفظك سيّىء . فانت عصبي المزاج ، يستولي عليك النزق ، فيصبح صوتك قاسياً ، ويتدفق كلامك كالسيل الجحاف .

أتدري ما هي افضل كلمة قلتها في حديثك ؟ انها الكلمة التي قلتها بصوت خافت للموظف الذي سجّــل صوتك ، فقــد سألتَه : « أتراني اتكلـّم بسرعة ؟ » وسمعك مائة الف نسمة مــن المستمعين ، على الرغم من ان صوتك كان خافتاً للغاية .

خطر في بالي اني اسأتُ باطلاعك على اني ساستمع اليك ، فقد يكون علمك بهذا الامر سبب ما انتابك من الاضطراب . اني اشوّش حياتك . فرسائلي تفقدك شطراً مــن وقتك ، وربما كان تفكيري بــك يسيء الى مشاريعك الغرامية ، لاني احبك لنفسي . اما متعتك انت فخذها مــن سواي . يجب عليك ان تبذل كل ما أُوتيت من القوى لتتملـّص مني ، فاصفح عنيَ .

يا للغرابة !

كنت اعتبرك علجاً جميلاً على جانب من الذكاء ، يــداه غليظتان ، قاسيتــان ، فاستطعت التخلـّي عــن تفوقي الحقير ، هــذا التفوق الذي رضيت به فترةً من حياتي في معاشرتي للرجال الضعفاء ، وهم الوحيدون الذين عرفتهم قبل ان اعرفك . إلا اني اشعر بقوة تدفعني اليك لاسعفك ، وآخذ بيدك ، كلما رأيتك تتعثر وتــكاد تسقط . اغتبطُ حــين تكون مسروراً ، لاني اجد في سرورك ما يعزيني في حياتي الخاملة . واعتقد اني

اغتبط اكثر حين تعمل اعمالاً تسبب لـك بعض الانزعاج ، او حـين تكون منزعجاً ، لاني اشعر باقترابي منك وباني غدوت اختك في العذاب . فقلبك الاصم ، هذا القلب الذي يُصمُّه دائمـاً ضجيج انتصاراته ، قـد يرضى بان ينصت اليّ قليلاً اذا خفت هـذا الضجيج . ولا ريب في ان حديثك الهزيل ، في راديو باريس ، قد خيّب المعجبين بك . وفي مختلف انحاء فرنسا يتساءل الناس اليوم : « لمـاذا يتكلّم مـا دام لا يحسن التكلّم ؟ » وربما رأى البعض ، كما رأيت انا ، ان معنى حديثك ، فضلاً عن مبناه ، ليس على شيء من الجمال . ومـن واجبي ان انبهك ، يا صديقي ، الى انـك بدأت تردد آراء ابديتهـا في ما مضى . ويخامرني شعور عميق بان ثمة الوفاً من الرجال والنساء ابتعدوا عنك قليلاً . ولهذا السبب احس اني اقرب اليـك بكثير مما كنت قبلاً . اني مخلصة لـك ، أمينة على عهدك . وما احسن حالنا حين يكون كلانا معزولاً عـن الناس ، تشد الالفة احدنا الى الآخر بين جماهير المستهترين الذين يتخلون بسرعة عن احبائهم !

يا للشيطان ! هوذا عمي يدعوني الى العشاء . انه يصيح « ديدي !... ديدي !... » كأني طفلة . فيا لي من طفلة بلغت من العمر ثلاثين عاماً وتسعة اشهر ! ولو كنتَ انت تناديني هكذا لهان الامر .

الساعة التاسعة ليلاً

اشعلت الضوء لاروي لك هـذا الخبر : لمـا اطفأت النور في غرفتي ارتفعت ذراعاي وتعاقدتا كأنهما تضمان جسماً حبيباً ، فتألق وجهي ابتهاجاً وخاطبتك قائلة : « اني هنا ، الى جانبك ! »

الساعة الواحدة صباحاً

يا حبيبي المعبود ، اكتب اليك بانتظار فنجان الازهار المغلية على امل ان يزيل عني الأرق فانام . وقد اغتنمت هـذه الفرصة لاقول لك كم احبك .

فيـا حبيبي ، ويا اعز الناس عليّ ... لا استطيع ان اموت قبل ان اقول لك هذه الكلمات العذبة . وكيف اموت دون ان اكون قد قلت شيئاً ، او عملت شيئاً ؟ كيف اموت دون ان انال ما ينال احقر الناس، وهو لا يكلف شيئاً ، ولا يسيء الى احد ؟

انك تستطيع ان تجد السعادة بسهولة في كل عناق ؛ اما انا فلا اجد سعادتي إلا في عناقك انت . انك تعلم هـذه الحقيقة ، وتحبني . غير انك بلغت من قلّة الشرف حداً اصبحت فيـه لا تريـد ان تعطيني شيئاً . ومع ذلك ، فان غرفتي ، في هذا الليل ، مفعمة بك ، يملأهـا صوتك ، يملأهـا وجودك معي . انت الذي جـاء اليّ ، ولست انا التي دعتك . خرجتَ من جهاز الراديو خروج الروح من القمقم المسحور . وهـا انت بوجهك المتسم بطابـع الخيبـة والهزيمة ، لان زملاءك قالوا ان في حديثك كلمات لاذعة ، ظاهرها عذوبة وباطنها مرارة ، من طراز : « لا ! لم يكن هذا الحديث رديئاً ولا تافهاً ... ولا ريب في ان اجادتك ستأتي مع الوقت حين تألف التكلم بالراديو ... »

كم انا جائعة اليك ! وكم اعاني من الألم في هـذا الجوع الفظيع ! يوم كنت غارقة في الصمت ، لا اشعرك باني مـا ازال في قيد الحياة ، كنت انتظرك . وحين كنتُ اكتب اليك ، كنتُ انتظرك . ولما كنت اوجّه اليك الاهانات ، كنت انتظرك . وها انت الآن معي ، وليس وجودك الى جانبي من مبتكرات خيالي .

يا إلهي ! اجعلني قادرة على ان اكون جديرة بهذه السعادة .

الكهرباء معطلة ، فاشعلت شمعتين كما فعل « فرتر »[1] في الفصل الاخير

---

١ ـ رواية الشاعر الالماني « غوته » وُضعت بقالب رسائل متبادلة بين فرتر وحبيبته ، وقد شحنها المؤلف بالعواطف الرومنطيقية اليائسة ، مقتبساً حوادثها من حياته ، فكان لها تأثير ادبي عظيم في مختلف انحاء العالم . وقد كانت من اقوى العوامل التي ساعدت على انطلاق التيار الرومنطيقي .

من روايته ، فامتلأت غرفتي بالاشباح والظلال والاطياف الرهيبة ، حتى خيّل اليّ ان هذه الغرفة ليست غرفتي ، بل غرفة مجهولة . اني اتــألم . ليتك تدري كم أتألم في جسدي ، في اعماقي ! فانك تخضّني خضاً . ليتك تعلم كم تتوق اليك — وكم تتطاول لتبلغك — هذه المرأة التي اردتها هكذا ، وخلقتها هكذا ، فهي لولاك لما كانت في الوجود ، ولم يكن لهـا وجود قبل ان تعرفك !

اجلس هنا لأجلس الى جانبك ، وألتصق بك ، واقول لنفسي انك هنا ، وان هذه ثيابك .

والآن ، ارفعني بـين ذراعيك ، اطرحـني عـلى هـذا السرير الذي لا اعرفـه ، فهـو ليس سرير « ديــدي » ، ولا السرير الذي كنت اتـلوّى عليـه شوقـاً وألمـاً كأني مسمّرة فيـه بسهم اختـرق جسدي .

انك تأخذ رأسي بـين يديك ، وتمد اصابعك من تحت الشعر الى صدغيّ . مـا ألذّ هذا البرد الذي تسكبـه فيّ !... انك تمـد ساقيّ برصانة وجدّ .

لماذا لا يعود نور الكهرباء ؟ اننا بحاجة الى الضوء . لست دميمـةً في هذه اللحظة ، وانك لترى ذلك عن كثب . اريـد ان اراك كلك لانك اصبحت ماثلاً للرجل الذي به حلمت .

لم تعـد العلاقة القائمة بيننا تسلّلاً زهيداً منك اليّ كما كانت حتى الآن ، بل يبدو لي انك بدأت تبني عليّ ، انت بيار كوستال [1] ، بكل جسدك ، وكل انتاجك ، وكل حياتك . مـا اطيب مداعبتك العميقة ،

---

[1] ـ تلاعب المؤلف هنـا بكلمة « بيـار » التي تعني « بطرس » لـيرمز الى ان الدريـه هاكبو تحلم بان يبني كوستال عليها بيعتـه كما بنى بطرس الكنيسة .

العميقة ، التي تبحث عني في مكان يفوقني مداه ، كأنها تريد التقائي لا ادري اين ! وكم تملأ هذه المداعبة كياني كله ! وكم تريح جسدي الذي أثخنته جراحاً لما حرّضته على التوق اليك ! احس ان آلامي تزول كما تزول آلام الجروح الصغيرة في الاصابع عندما نضغط عليها بشدة .

عانقني . شدّني اليك بقوة . اسحقني . اجعلني اصيح ، اجعلني اتوسّل ، اجعلني اشكو من شدة السعادة .

انك تسمع انيني ، وتعلم انك تجعلني سعيدة ، فتسعد بسعادتي . انك لا تتعب من الحب ، بل تبقى فيه طويلاً بقدر ما انتظرتك .

وبعد ، يا صديقي ، فقد اضحيت تعلم الآن ما هو الحب .

ستقول لي ، يوماً ما ، الكلمات التي أعرتك اياها ، وامليتها عليك مرات عديدة بصوت خافت ، في انفرادي الطويل ... تلك الكلمات التي تربط المستقبل ، والتي كنتَ بقولها لي يوم كنتُ احبك قبل ان اعرفك ، كما تحب الام ابنها الذي لم تلده بعد . وسابقى الى جانبك طائشة بالسعادة ، أندس بك لأحتمي كما تندس الغنمة الصغيرة بكبش القطيع لتحتمي من الشمس .

ثم استلقي على السرير من جديد ، واقول لك : « خذني اكثر ، لم اشفَ بعد ! »

اني اغلق بسرعة غلاف هذه الرسالة . ولا اريد ان اعلم ما كتبت اليك فيها .

ان سعادتي بحاجة الى عقوبة . فلن اكتب اليك قبل يوم السبت المقبل .

أ

(وُضعت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يُفض غلافها . إلا ان كوستال وجد عليها طابعاً لم تختمه دائرة البريد ، فانتزعه عنها)

الجزء الثاني



في المغرب عام ١٩٣٣

١٢

سألها كوستال :

— ما الذي سبب هذا البخار ؟

— الحرارة .

— الحرارة ؟ اين هي الحرارة في شهر شباط ، وفي جبال الأطلس [١] حيث تحيط بنا الثلوج ؟ ألا ترين البخـار يتصاعد من افواهنـا ، لشدة البرد ، مع ان هذه الغرفة مُدفـّأة ؟

— الشمس حارّة ظهراً .

كانت النافذة خالية من درفتيها ، وليس عليهـا ستار (اذا صح ان نسمي هذا الثقب الصغير نافذة) . كانت ثقباً في غرفـة مخفر عسكري قديم اصبح اليوم فندقاً رثاً في بلدة تغرمت ، يتولى ادارته عريف متقاعد .

وكان كوستال نزيل هـذه الغرفة ، وقد علق رداءه الكبير جـاعلاً منه ستاراً للنافذة التي تدخل منها نسمات باردة ، ثم رفع طرفـه ليرى ما في الخارج .

على مسافة ثلاثمائة متر تحت الفندق ، كانت النار تلتهم ادغالاً ، وقد امتد اللهيب شريطاً طويلاً عرضه حوالى خمسين متراً ، كأنه يشن هجوماً

---

١ — سلسلة جبال في افريقيا الشمالية ، يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ، في المغرب ، ٤١٦٥ متراً .

على البلدة ، وعلى بيوتها المبنية بالتراب المصفرّ ، القائمة في منحدر متدرّج كأنها صاعدة الى هيكل القمة .

كان اللهيب يزحف كحيوان عازم على الافتراس . هكذا كانت الغيوم تزحف امس على المنحدرات كأن فيها حياة حيوانية . وقد رآها كوستال تجتاز الطريق بسرعة السيارة على مسافة بضعة امتار منه .

ومن طرف الشريط الناري ، كان يرتفع دخان كثيف فيبلغ عنان السماء ، ويحجب اسراب النجوم ، ثم يبتلعه فراغ الفضاء اللامتناهي . وفوق القمم المكسوّة بالثلوج ، كانت السماء اكثر صفاءً ، كأن فيها هالة مشعّة تنبثق من هذه الثلوج .

سألها كوستال من جديد :

– أخارج القصبة بيتك ؟

– اجل ، انه هناك .

– أتظنين ان لا خطر عليه ؟

– لا خطر عليه مطلقاً .

وسأل كوستال نفسه : « لو كان عليّ ان اقتحم اللهيب مجازفاً بحياتي لانقذ خديجة ، أفكنت افعل ؟ » فكان جوابه : « نعم » .

كانت ترتدي ثوباً من الصوف الرمادي ينحدر الى ركبتيها ، وقد شدّته بزنار من الصوف الأزرق ، وزيّنته ، في جوار الكتفين ، بدبوسين كبيرين من الفضة المنقوشة . وكانت عارية العنق ، عارية الذراعين من الابطين ، فراح كوستال يتنسم رائحتها الشبيهة برائحة البهارات . كانت رائحة جنس آخر من البشر استقبلته ، واستولت عليه ، وسحرته على رصيف ميناء الاسكندرية يوم وصل الى افريقيا للمرة الاولى ، فكان يشتهي ان يعض هذه الرائحة بكل ما أوتي من قوة ، كما يعض الكلبُ السكرانُ فوّارة الماء .

كانت تثبت وجودها معه بالصمت الدائم والجمود المستسلم ، المذعن ،

فتجعل مـن الكلمات التي يقولها مخلوقات جهيضة ، ممسوخة . وكم احب ، في ذلك اليوم ، ان يطلعها على ما يبعثه في ذهنه مشهد ذلك الشريط من اللهيب ، اذ تذكر خطاً آخر من النار امتد امامه عام ١٩٢٤ ، يوم كان رجال عبد الكريم [1] يطلقون الرصاص .

وكان كوستال يومذاك بين الفرنسيين يطلق الرصاص على الثوار ، إلا انه كان مدنياً ، لحق بالجنود الى خط القتال « ليرى العاقبة » ، كما فعل بطرس في جبل الزيتون لما تبع الجنود الذين قبضوا على يسوع (متى ، الاصحاح السابع ، الآية الثامنة والخمسون [2]) . اخذ بندقية ، في ذلك اليوم ، لان البندقية هي عضو الذكورة الثاني في الرجل ، ولم يكن ليبالي باحد من الفرنسيين او المغاربة . إلا انه كان الى جانب فرنسا لانه يتكلم اللغة الفرنسية ، ويجد الحياة في فرنسا اسهل منها في بلد آخر وامتع .

ومن حين الى آخر ، كانت تراوده الرغبة في التحدث الى خديجة عن هذه الذكريات ، وعن الشعور الذي بعثته فيه الثورة . إلا انه كان يلزم الصمت لاعتقاده بان لا فائدة من هذا الحديث . فالكلام عديم

---

١ - الامير عبد الكريم الريفي زعيم افريقي ولد عام ١٨٨٢ . اعلن الثورة على الاستعمارين الاسباني والفرنسي في المغرب والجزائر ، وبعد معارك ضارية القى السلاح واستسلم للفرنسيين سنة ١٩٢٦ ، فنفي الى جزيرة ريئيون في المحيط الهندي . وعام ١٩٤٧ نُقل الى فرنسا ، فتمكن من الفرار الى مصر حيث كرّس نفسه لخدمة جامعة الدول العربية .

٢ - وردت هذه الآية في الفصل السادس والعشرين من انجيل متى ، لا في الفصل السابع ، وهذا نصها في الانجيل الصادر عن مطبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت ، عام ١٨٧٨ : « وتبعه بطرس من بعيد الى دار رئيس الكهنة ودخل وجلس مع الخدم حتى ينظر العاقبة » . اما في « الكتاب المقدس » المطبوع في بيروت سنة ١٩٥٢ على يد « جمعيات الكتاب المقدس المتحدة » البروتستنية ، فقد وردت الآية هكذا : « واما بطرس فتبعه ... لينظر النهاية » .

الجدوى مع الخديجات اللواتي يقتصر فضلهن على بعث الذكريات الشق في اذهان الرجال .

خلعت معطفها وجلست على الكرمي الوحيد في الغرفة . وقـام كوستال يحرّك النار طالباً الدفء ، فردّت النـار عليه بهجوم مضاد كأنها ضيغم ثائر ، وتصاعدت منها موجة من الدخان فاحتلت الغرفة .

جلس كوستال على السرير ، بينا كانت خديجة تنخر على التوالي كما ينخر الطفل بعد نوبة من البكاء ، فسألها :

– أمزكمة ؟

اجابت : نعم .

وامتخطت ، فرأى انها مصابة بالرعاف .

كانت في السادسة عشرة والنصف من العمر ، لكنها تبدو كأنها في التاسعة عشرة او في العشرين ، صافية البشرة ، مشدودة العينين ، صغيرة الانف ، سمينة الشفتين . قسمات وجهها متجانسة ، منسجمة ، فيها طلاقة ونقاء كأنها من بنات الهند الصينية ، لا من بنات المغرب . وكانت قد ألقت على السرير رباط الرقبة الاحمر والاخضر الذي رفعته عن رأسها ، فبدا شعرها كستنائي اللون ، حريري الملمس ، كشعر الفرنسيات .

وعلى الرغم من السكوت الذي خيّم عليها ، ومن ندرة الكلمات التي تبادلاها ، احب كوستال ان يطيل فترة انتظاره للمتعة . ولم يكن من المحتمل ان يخلّ بواجبه نحو خديجة التي كانت تقابل انضباطه بانضباط مماثل ، فلا تكاد تخرج من السرير وترتدي ثيابها حتى تجلس على الكرمي في صمت وهدوء . وكان هذا احد الاسباب التي جعلته يحبها ، اذ لم يكن مضطراً الى الخوض معها في حوار رفيع المعاني . فقد كان يؤمن ايماناً راسخاً بان جميع الاحاديث باطلة خلال عمل الحب ، وخصوصاً الاحاديث السامية الموضوع .

عرف خديجة منذ اربع سنوات في الدار البيضاء ، حيث كانت تقيم في دار احد اعمامها . جلست يومذاك الى جانبه على البنك ، في حديقة « ليوتي » العامة ، فلم يخطر بباله ، في البداية ، ان يشتهيها . إلا انها تسوّكت بدبوس ، فرأى لسانها ، فانفجرت شهوته انفجار البركان .

كانت بيضاء البشرة ، هزيلة الجسم . وقد حدّدها كوستال بقوله : « انها جناح ديك في مطعم رخيص ! »

كانت تبدو في اغلب الايام صفراء اللون ، وعلى وجهها مسحة كهنوتية كوجوه الآسيويين ، وابتسامة عذبة ناعمة كابتسامات « ارباب الحكمة » .

لما اخذها كانت عذراء . ثم طاب لها الوصال ، فامعنت فيه طولاً وعرضاً . لم تكن تحترم ذويها ، ولا تؤمن بالله . وقد حسب كوستال ، في بدء علاقته بها ، انها تتظاهر بالاستهتار لترضيه ، فلما عاشرها واختبرها ، تبين له انها لا تتقيّد بشيء من تقاليد قومها وعاداتهم .

وكانت دائمة التحفّظ مع كوستال ، تشغل مكانها بكل تأدب وتهذيب . وكانت هذه ميزة نادرة في فتاة لم تتلقّ شيئاً من قواعد التأدب والتهذيب . وكان اجمل ما فيها ذلك الهدوء الذي كانت تتجلبب به دائماً ، وشعورها بالكرامة ، وبطئها في العمل ، فضلاً عن عذوبتها ، ودقتها في المواعيد ، ووجهها الغريب عن وجوه ابناء قومها ، وجمودها الخالي من الحركات التافهة .

في بعض الاحيان ، تبدو المرأة كهنوتية الملامح لانها بلهاء ؛ اما خديجة فكانت ذكية . وكان ذكاؤها من النوع الذي لا يلمع . تعلمت وحدها اللغة الفرنسية فغدت تتكلمها بطلاقة . وتعلمت القراءة والكتابة بمقدار يساعدها على التعبير عن افكارها تعبيراً كافياً .

نشأت في اسرة متواضعة ، ولما اصبحت بغياً ظلت بعيدة عن السفالة والفلاظة اللتين كثيراً ما تقع فيهما مثيلاتها . ولم يكن تصرفها شبيهاً

بتصرف الشباب المثقف من ابناء قومها ، فبدت كأنها من غير بلدهـا ، كأنها من « منطقة » بـين جبهتين ، كالمناطق اللائقة بان يحتلهـا انصاف الآلهة اليونانية وارواح العباقرة الهنود ، كما كان يقول كوستال .

اكملت مراهقتها يوم استسلمت للمرة الاولى ، فنجا كوستال من مرافقة تغيّرها ، ومن مراقبة الازمات التي لا بد من ان تنتابها لو كانت فتـاة اوروبية .

كانت دائمة الاعتدال ، دائمة الهدوء كالمخلوقات نصف الالهية . وما اروع الامان الذي كان مخيماً عليها ، فقد كان شعار خديجة : « هدوء وامان » .

اما استقامتها فكانت مطلقة ، فضلاً عن ترفعها الابي . فمنـذ اربع سنوات ما برحت تأخذ المال الذي يدسّه كوستال في يدهـا دون ان تلقي عليـه نظرة . فلو اعطاها مائة قرش لمـا احتجت ، ولما طالبت بأكثر . هذا ما كان كوستال واثقاً به تمام الثقة . لم تطلب اليه خدمةً قط ، ولا مـالاً ، ولم تلتمس منـه حتى « سلفـة » . لم تلقِ مرة واحدة تلك النظرة المزعجة التي تلقيها البغي الاوروبية على حافظة نقود الرجل كلما فتحها ، بل قالت له يوماً : « انـك تبذّر الكثير من المال لاجلي » .

ولم تكن تشكره على شيء ؟ بلى ، كانت تشكره اذا ناولها قلماً او دبوساً ؛ اما اذا اعطاها مبلغاً محترماً من المـال ، فلا شكر ولا مـــن يشكرون .

هكذا كانت خديجة : لا تصنّع ، ولا لصقة ، ولا دين مسيحي ، ولا جشع ، وهي ما برحت كذلك منذ اربع سنوات .

ما كانت طبيعة علاقاتها بكوستال ؟

يكفي ان تقول المرأة مرةً واحدة للرجـل : « ان حبك يطيب لي ويفيدني » ، ليجن من شدة السرور . فمتعتنا هي ما نغنمه من اطلاعنا

على متعـة الآخرين . غير ان خديجة لم تقل قط لكوستال قولاً من هذا النوع ، ولا شيئاً يشبهه من نمط : « انك تحب حباً فريداً لا يجيده سواك » ، الخ ... ولم تكن تلمّح الى علاقتها به ، ولا الى علاقته بالنساء الاخريات . لكن من الثابت انها كانت تحب الوصال ، وتجد فيه متعتها الكبرى . فكل شيء في وجهها كان يعبر عن ابتهاجها ، ولا يجوز لنا ان ننسى زلازلها[1] .

كان وجهها يتألق فوراً اذ يدخل كوستال فيها ، كحجرات الهاتف في بعض المقاهي ، لا يكاد بابها يُفتح حتى تتلألأ فيها الكهرباء اوتوماتياً . وكان كوستال يجتاز مسافة ألفي كيلومتر ليرى وجهها في فترة تألقه .

رأينا ان هـذا الكاتب لم يكن يرغب في ان يحبه احـد ، وكان يفضّـل ألّا يكون محبوبـاً ، لأن فقدان الحب يكسبـه حرية القلب ، والعقل ، والوقت . وهذا ما كانت خديجة تقدمه له . فقد كانت جامدة ، باردة في جميع الاعمال التي لا علاقة لها بالوصال ، حتى ان كوستال بات يعتقد انها لا تكنُّ له اقل عاطفة ، وان شعورها ، بالنسبة اليه ، يقتصر على شيء من عرفان الجميل السطحي . وحتى هذا الشعور لم يكن وجوده فيها اكيداً ، لانها لم تُبدِ قط اقل عاطفة ، او رقة ، او حنان . وهذا ما كان يسر كوستال لأنه كان ينفر من تدليل النساء له وحدبهن عليه .

كان في ايام حداثته اذا رأى فتاة تريد تقبيله بادرها بقوله : « اذا كان لا بد من ذلك ، فهيا بنا ! لكن اسرعي ولا تضغطي بشفتيك ... » وقد نقم على جدته لانها كانت تقبله كثيراً .

اما خديجة فكانت له جهازاً محركاً يحدث فيـه ردّة فعل ، وكان هذا يكفيه . ولا بد مـن الملاحظة انـه كان لها ، هي ايضاً ، ردات فعل في اثناء الوصال . غير ان جودها ، الذي كان يمتد احياناً الى كل

---

[1] - راجع الاشارة الى هذه الزلازل في « شيطان الخير » . — المؤلف .

ما فيها ، كان يذهله اذ يبلغ درجة خالية من الاحساس الانساني ، فيخيّل اليه انـه لمّ حجراً على الطريق ، وداعبه ، وزيّنه بالازهار ، ودفأه في الايام البـاردة ، ووضعـه في مجرى الهواء في ابّان القيظ ، وغسله ، وضمّخه بالطيب ... فخديجة كانت هذا الحجر كلما خرجت من الوصال ، وكانت هذه الناحيةَ اللاانسانية فيها ، والناحيةَ اللاانسانية فيـه ايضاً ، لأنه تعلق بها في مثل هذه الاحوال . وربما كانت هذه الميزة فيهـا هي التي تغذّي تعلقه وتبقيه في قيـد الحيـــاة . فلكلٍّ منـّا طريقـة في هذه الحياة .

والدليل على تعلقه بها انه منحها ثقته بعد ان عرفها بيوم واحـد ، فكانت تسرح وتمرح وحدها في غرفته وجميع الجوارير مفتوحة امامها . وفي اليوم الثالث بدأ يحترمها ، ثم راح يعطف عليها . واخيراً استقر على شيء بين التعلّق والمودّة .

لم يكن ثمـة حب ، طبعاً ، ولا غيرة من الزبن العديدين الذين كانوا يعاشرونها .

هل كان في وسعها ان تعذّبه ، وهذه حالها ؟

اجل ، كان يخشى شيئاً واحداً ان يحلّ بها ضرر . كان هذا الخوف الوحيد الذي يعكر صفاء علاقته بها ، كما تعكر المويجات العابرة سكون البحر الهادىء .

لم يكن يحبها ، إلا انها كانت المخلوقة التي يؤثرها قلبه وعقله .

كانت تعطيه ما يطلب من النساء : المتعـة لكليهما متدثرة باللامبالاة وبغياب الفكر . وكانت علاقتها تتحلّى بالنقـاء الذي لا يمكن الحصول عليه مع امرأة اوروبية .

ليس الجماع بحد ذاته عملا دنساً ومبتذلاً ، انما الدنس والمبتذل هو ما يحيطه به الناس . فعضو الجنس في الانسان أقل حماقة من الدماغ ومـن القلب .

قال كوستال في نفسه : « أموت حباً بيديها النقيتين ، المسكوبتين من البرونز الاصفر » . واخذهما بين يديه اللتين بدتا كأنهما يدا عامل يضرب بالمعول ، فرأى في إسفل ابهام احداهما بقعة سحياء تحيط بها دائرة اقل احمراراً من البشرة ، فتساءل : « أتراها مصابة بالسفلس ، ما دام الطبيب يقول ان ثمانين بالمائة من سكان هذا البلد مصابون بهذا المرض ؟ »

وما كادت هذه الفكرة تخطر في باله حتى سأل الفتاة :

– في يدك بقعة غريبة ، فما هي ؟

– الجذام [1] .

– وما معنى الجذام ؟

– عاينني الطبيب لما مرّ من هنا ، فاعطاني ورقة ...

وتناولت من جيب تنورتها البيضاء حافظة نقود ، ففتحتها واخذت منها حقيبة صغيرة من الجلد فيها ورقة صفراء كُتبت عليها سطور باللغة العربية ، ثم وجّهت الى كوستال ابتسامة من ابتساماتها العذبة وهي تقول :

– هذه اعطاني اياها احد النساك الصالحين .

– أما قلتِ لي انك لا تؤمنين بالله ؟

– بلى ، لكن الناسك اعطاني هذه التعويذة .

وكان كوستال قد سمع مثل هذا الجواب من احد اصدقائه ، وكان كافراً لا يؤمن بشيء ، لكنه كان يعلّق في سيارته صورة القديس « كريستوف [2] » . فلما ابدى كوستال تعجبه من هذا التناقض ، برر

---

١ – كتب المؤلف هذه الكلمة بالعربية كما قالتها الفتاة « El jdem » ، فلم يفهمها ، فسأل عن معناها .

٢ – شفيع سائقي السيارات والمسافرين .

الكافر تصرفه بقوله : «اعطاني احدهم هـذه الصورة فاخذتها» . حقاً ، ان حب الكسب يشمـل العـالم . وليس ضعف الانسان في عجزه عـن مقاومة الشر ، بل في عجزه عن مقاومة الحماقة .

وكانت في الحقيبة الجلدية الصغيرة ورقة ثانيـة الى جانب التعويذة ، فاعطتها خديجة لكوستال ، فقرأ فيها :

الاسم : خديجة بنت علي .

العمر : ١٦ سنة (؟)

من مواليد : تغرمت .

مرضهـا : الجذام ، والزكام الدموي . بقعـة جذام في ابهـام يدها اليسرى .

العلاج : فحص المادة المخاطية ، وارسال خديجة الى مراكش اذا ثبت انها مصابة .

ملاحظة : حالتها العامة مرضية ، لا دليل على انها مصابة بالسفلس .

التاريخ : ٢٩/١/٢٨

الامضاء : الدكتور مايبون

قرأ كوستال هذه الورقة ثانية ، فاخذ قلبه يخفق بقوة كأن قفص الصدر ضاق به ، وكأن هذا القلب مضطر الى رفع الضلوع المحيطة بـه كلما خفق ، كما يفعل قلب الحرذون .

قال لها :

— خديجة ! هذا مرض عضال وشديد الخطر . فكيف كتمته عني حتى الآن ؟

— قال الطبيب ان شفائي منه اصبح الآن ممكناً . وسيأتي باير يحقنني بها في زيارته المقبلة .

— وهكذا تبقين هنا ، تنتظرين ، كأن الامر لا يعنيك ؟

ولم يكن كوستال يعرف عن الجذام إلا الصور المبتذلة التي رآها في الكتب ، وبعض الذكريات المدرسية ، واخبار الناس القائلة بان جسم المجذوم يتقطع ارباً ، وبان هذا المرض شديد العدوى ، وبان المصاب بـه يُعزل كلياً عن الناس .

وتذكر كتاباً مصوراً رآه في ايام حداثته ، وقد جاء فيه ان المجذوم كان يستمع الى صلاة جنازه وهو حيّ يستره غطاء ابيض عن عيون الناس ، ثم يتلقى على رأسه رفشاً من تراب المقبرة لاعلان موتـه ، ثم يُبعد عن المدينة بعد احراق بيته .

وعاد يسأل خديجة :

– ألم يقل لك الطبيب ان تعني بنفسك ؟ ان تتخذي بعض التدابير الوقائية ؟

– بلى ، قال لي : لا تدعي ابويك يأكلان بالاوعية التي تأكلين بها .

فخطر في بال كوستال ذلك الطبيب الكبير الذي كان مديراً لاحـد مستشفيات المصدورين ، فسأله الكاتب عـن التدابير الـتي تُتخذ لحـماية الناس من المرضى الذين يبقون في بيوتهم ، فاجاب بشيء من الارتباك : « اننا نقدم لهؤلاء المرضى مباصق » .

وسأل الفتاة من جديد :

– وماذا يقول ابواك ؟

وكان التأثر قد جعله ابله ، فاجابت خديجة :

– لا شيء .

– أفي جسمك بقع اخرى ؟

– لا ، ليس في جسمي إلا هذه البقعة .

– وهل كانت لك علاقة باناس مجذومين ؟

– كان عمي مجذوماً . لا اعني عمي المقيم في الدار البيضاء ، بل عماً آخر كان يقيم معنا ، وقد توفي منذ ثلاث سنوات .

– كان يقيم معكم ؟ ألم تتخذوا تدابير وقائية ؟

– لا .

– ألم تعالجوه ؟

– بلى ، كان يذهب مرتين في السنة الى مسجد « ابي النور » ، في مراكش .

هذه غريزة الجهلة . انهم يذهبون دائماً الى من يداعب اوهامهم . وكثيرون منا يفضلون دجل الكاهن على معهد « باستور [1] » .

قال لها :

– ساوصي بك الاطباء في مستشفى مراكش ، عندما تذهبين الى هناك ، ليُعنَوا بك عناية جديّة .

وللمرة الاولى تجلّى القلق على وجهها وقد كان حتى ذلك الحين هادئاً ، فقالت :

– لا ، لا تفعل . اذا علموا انك تعرفني اخبروا ابي .

– ان اطباء مراكش لا يعرفون اباك . وساطلب اليهم كتمان هذا السرّ .

– لا ! لا !

– لا استطيع ان ادعك بلا علاج ، وانا قادر ، بكلمة واحدة ، ان اجعل الاطباء يهتمون بك . اسمعي ، يا خديجة ! اريد ان يُعمل كل ما يمكن عمله لشفائك . وربما ارسلوكِ الى فرنسا اذا لزم الامر .

وكانت جالسة ، فاطرقت ، وخفضت رأسها ، حتى انه لم يعد يرى سوى شعرها . ولما حاول ان يرفع هذا الرأس قاومته كطفل حردان ،

---

١ – طبيب فرنسي شهير (١٨٢٢ – ١٨٩٥) اكتشف المصل الواقي من الكلب ، وبعض الامراض الجرثومية الاخرى ، فاحدث ثورة في الطب ما تزال قاعدة حتى الآن .

وهي لا تبالي بمرضها الرهيب ، بل تخشى خطراً آخر لا وجود له . وليس من الضروري ان يذهب المرء الى جبال الاطلس ليرى مثل هذا العناد لدى الفتيات والفتيان .

قال لها :

— حسناً ، لن اخاطب احداً بشأنك .

إلا انه كان مصمماً على التدخل . ولم يقل لها تلك العبارة إلا ليطمئنها ويهدّيء اعصابها .

والقى نظرة جديدة على الورقة ، فرأى فيها مصير شخص حبيب مخربشاً بالقلم الرصاص في خمسة احرف . وربما كان مصيره هو ايضاً في هذه الخربشة .

خمدت شهوته ، وتلاشت رغبته في مضاجعتها ، لا لأنه اشمأز من هذا الجسم المسموم او قرف منه ، بل لأنه ارتوى من تأثره العميق .

ألم يكن من الافضل له ان لا يمسها ؟ ألم يكن من الحكمة ان يحجم عن كل اتصال حميم بها اليوم ، وان يذهب في اليوم التالي الى بلدة « طمود » الواقعة على مسافة اربعة كيلومترات ؟ فهناك مستوصف فيه ممرّض للعناية بعمال يبنون جسراً ، وفي وسع هذا الممرض ان يعطيه بعض المعلومات عن مرض الجذام ، وعن سرعة عدواه ، وعن التدابير الواقية التي تتخذ بشأنه ، فيعلم هل من المستحسن ان يجازف بمضاجعة خديجة في المساء ، أم لا ؟

وأطلع الفتاة على مشروعه ، فارتسم القلق على وجهها من جديد وقالت :

— اذا حدثتَ الممرض عن الجذام ، وعلم انك في تغرمت ، فسيدرك انك جئت لأجلي ، وسيخبر ابي ...

— اذاً ، لن اذهب .

وكان صادقاً في وعده هذه المرة ، لان الفتاة كانت على صواب في

جزعها .

وما دام الامر كذلك ، فلا بـد من مضاجعتها . وليكن ما هو مقدّر ، اذ لا يمكن ان يقطع مسافة اربعة آلاف كيلومتر ، ذهاباً وإياباً ، ليلتقي امرأة يحبها ، وان يحجم عن الاتصال بها لأن فيها بقعة جذام .

لم تكن الشهوة الجسدية تدفعه الى هذا العمل ، ولا الشعور بالواجب نحو الفتاة او نحو نفسه ، ولا حتى الشعور بان هذا العمل سيكون شيئاً « حسناً » ، بل الاعتقاد انه من الخساسة ، ومن قلة الذوق ، ان يتراجع ، وان يصرف الفتاة عنه بلا مبرر . فكل رجل ، في مثل موقفه ، يعمل عمله ، إلا اذا كان نذلاً عديم المروءة .

اما المجازفة فقد خبرها عن كثب في الحرب الماضية ، وسيختبرها في الحرب المقبلة ، وكم مرة اقدم عليها في كل يوم من حياتـه ، متحدياً آباء خليلاته ، واخوتهن ، وعشاقهن ، مع العلم ان هؤلاء الخليلات كنّ مـن الفتيات القاصرات في اغلب الاحيان . وقـد ضاجع مئـات المرات نساء مصابات بالسفلس والسلّ دون ان يتخذ اقل تدبير واقٍ ، فلماذا لا يقدم هذه المرة ، وهو مضطر الى الاقدام ؟ ان مجازفة واحدة بـين المجازفات العديدة لا تقدّم ولا تؤخّر !

قال لها :

— اخلعي ثيابك ، يا صغيرتي .

ولشدة ابتهاجه بهذه الدعوة ، خفق قلبه بقوة ، إلا انه ما لبث ان هدأ بعد لحظة .

حاول ان يفحص جسدهـا ، فـبردت ، واندست في السرير ، تحت اللحاف ، فكيف يخرجها مـن الدفء الذي لجأت اليه ؟ أفي وسعه ان يقول لها : « انتقلي الى اليمين ، وانتقلي الى اليسار » ، وهي ترتعد مـن شدة البرد ؟

قال في سرّه : « فحصها الطبيب منذ تسعة ايام ، ولم يجد فيها سوى بقعة واحدة . ومن المستبعد ان تظهر بقعة جديدة في هذه الفترة القصيرة . اما اعضاؤها التناسلية ، فقد فحصها ، ولا ريب ، لأنه بحث عن آثار السفلس فيها » .

لا بأس اذاً .

وبينما كان يخلع ثيابه الى جانب السرير ، خامره شعور الجندي الذي يتلمس اسلحته قبيل خروجه من الخندق للهجوم على العدو .

وغطس تحت اللحاف كأنه يغطس في مستنقع آسنٍ ، مخضرّ ، تسبح فيه افعى بسرعة مذهلة .

ولما احتواه الدفء المنبعث من جسم الفتاة ، زال عنه كل ما كان قد ساوره من القلق والاضطراب ، ولم يعد يفكّر إلا بانه مع خديجة ، مع الخليلة الامينة ، الممتازة .

ولامس ذراعها فأحس بنتوء وشم جديد ما يزال مداده طرياً على سطح البشرة ، فاحتدم حبه لها ، وتبادر الى ذهنه انها المرأة التي يعرفها حتى اعماق احشائها ، وانها الكيس اللحمي الذي يطيب له ان يصب فيه زرعه ، وانها المكان الذي يجد فيه الأمان — الأمان الجسدي بالمعنى الجنسي . لم يرضَ مرةً واحدةً بان يعتزل عنها ، فمن يمتلك شيئاً لا يستطيع الاعتزال عنه . وقد استقرت فيه هذه الرغبة في ملازمة الفتاة على الرغم من انها نقلت اليه داء الزهري مرتين ، عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٦ .

وكان توهّمه انه في أمان يهيمن على علاقته بهذه المرأة التي تسمّه . وقد احب هذا الوهم ، وأراد اقراره في نفسه .

انفك المنديل الذي كان كوستال قد لفّ به يد خديجة المبقعة بالجذام ، وضاع بين الفراش واللحاف ، فقال في نفسه : « ليبقَ حيث هو !... » إلا انه ظل حذراً ، فما قبّل شفتي الفتاة .

وما كاد يباشر مداعبتها ، حتى تألق وجهها ، ودلّت ملامحها على ان فكرها شرد في متاهات الاحلام . لمـا اشد فاعلية الشهوة فيها ! انهـا تنطلق منها فوراً ، تجتاحها ، تسيطر عليهـا ، تملكها كليـاً . فعيناها وحدهما تتحركان في وجهها الجامد ، ومنخراها يتسعان مختلجين كمنخري حصان متعب .

ولما لمعت عيناها كما تلمع النجوم قبيل انطفائها ، راحت تبحث عـن فمه ، فأكب عليها يمتص شفتيها ، ويمـد لسانه الى فمها ... الى هـذا الفم الذي كان بالامس مبطناً بالمخمل الوردي كمركبة عروسين من الجزائر ، والذي بدأ يفتك به المرض ليثقب سقفه وجنباته .

وتعمّد الامعان في تقبيلهـا ببطء واصرار ، وهو يحسّ انهـا تجتذبه بقوة وتبتلعه كما يبتلع البحر مياه النهر . فعاد اليه شعوره بالمجازفة بعـد ان فارقه لحظـة قصيرة ، بينما كانت شفتـاه عالقتين بالفم المجاور للزكام الدامي ، فخامره احساس رجل قفز من الطائرة ولم تنفتح مظلته الواقية بعد ...

غير انه لم يكن خائفاً ، على الرغم من فظاعة المجازفة . فكثيراً مـا قبّل مصدورات في ذروة مرضهن ، وعبّ مـن لعابهن عبـاً طويلاً ، فخيّل اليه انه يمتص حياتهن ، وانه يكتسب في موتهن عمراً جديداً .

كم كان يحب ان يقبّـل الأخاديد العميقـة الـتي احدثهـا الهزال في وجوهن كالحفر بين الكثبان ، وان يبوس اصداغهن المبلّلة بالعرق ، وقد التصقت بها خصل من الشعر ! وكم كان يحب ان يرى اللذة تزيد مرضهن تفاقماً ، وان يأخذهن وهنّ في نوبة من السعال على طريقة الفاسدين الذين يطيب لهم ان يقطعوا رأس البطـة وهم يجامعونها ! ادموندا ، مثـلاً ، احدى صديقاته ، كانت جافة الفم الى اقصى حـد ، ومع ذلك ، كان يأخذ لسانها بين شفتيه فيغنم متعة كبرى اذ يخيل اليه انـه يمتص لسان افعى .

كان يقول ، في ما مضى : « انا الآن مصدور ، فما يهم اذا كنت مصدوراً ؟ » فأصبح يقول اليوم : « انا مجذوم ؟ دع عنك هـذه الخرافة ! فالجميع يعلمون اني مصفّح ومعصوم ، معصوم كالبابا ! » وكان يثق بمناعة جسده ثقـةً تكاد تكون ضرباً من التصوّف ، كالطيار في طائرته الـتي تتقاذفها الرياح ، كالربان في سفينته التي تلطمها الامواج ، وتتسرب اليهـا المياه ، غير انها تصل دائماً الى الميناء .

قالت له خديجة بسذاجتها المعهودة : « تدل حماستك على انك لم تحب منذ زمن بعيد ! » فلم يجب . غير انه ما لبث ان ندم وتولّاه الخجل لأنه لم يعطها البرهان الاكبر عن عطفه عليها : قبلة على الشفتين ، إلا في اثناء الوصال لما احتدمت شهوته وبلغت ذروتها .

تناول يدها المريضة وباسها بورع في مكان قريب من بقعـة الجذام ، فلم يخامره اقل شعور بأنه جريء ، او بانه يجازف . كل ما شعر به انه يحب خديجة ويعطف عليها .

ولما غادرت الغرفة في صمت تام ، انتظر فترة طويلة وهو نصف عارٍ ، وظل ملتصقاً بالباب ليتيقّن من انها لم تعد ، ومن انهـا لم تصطدم باحد في الفندق .

وأخيراً ابتعد عن الباب ، وارتاح الى ان لقـاءه السري بصاحبته لم ينته بمشكلة . فمنذ خمسة عشر عاماً مـــا برح يغـامر حتى اصبحت حياتـه سلسلة مـن المغامرات المتوالية الخطرة ، إلا انهـا مرت كلها بسلام ...

ورفع رداءه عن النافذة ، فرأى رجالاً وأولاداً يمرون في أثوابهم الطويلة وأغطية رؤوسهم كأنها قلانس الرهبان . وكانت النار قد امتدّت واتسعت كما يتسع الجـذام في اجسام المرضى تحت ستـار ازرق مرصع بالنجوم .

واستلقى على السرير دون ان يخلع ثيابه لأن البرد كان شديداً ،

وكان الشرشف السفلي مرتفعاً قليلاً كقمة تلة في البقعة التي حصرتها خديجة بين فخذيها .

وأحس كوستال براحة عميقة كأنه قام بعمل مجيد . وتذكر قصة قرأها في كتاب قديم خلاصتها ان احد الفرسان اختطف ابنة ملك فرنسا ، فأرادت الاحتفاظ ببكارتها ، فقالت له انها ابنة رجل مجذوم ، فابتعد عنها ولم يمسها . وقد احتقر كوستال هذا الفارس ، فازداد سروره بهذا الاحتقار . وظل مستلقياً على السرير ، ينظر الى السقف ولا يتحرك . وقد خيّل اليه انه يشعر بالسم الذي حقنته به خديجة يجري في دمه .

وخامره في هذه اللحظة شعوران واضحان : الشعور الاول انه غير نادم على ما فعل ، اذا كان قد اصيب بالمرض ، لأن المتعة التي غنمها تستحق ان ُتبذل في سبيلها التضحيات ؛ والشعور الآخر ان فظاعة المرض مقبولة ، لأن مصدرها خديجة .

وراح يخاطب نفسه قائلاً : « لا بأس اذا اعطتني الجذام ! » كما تقول المرأة حين تفكر بالرجل الذي تحبه : « لا بأس اذا حبلت منه ! »

وفي هذه الاثناء كان مصيره على كفوف الآلهة .

١٣

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

(أرسلت هذه الرسالة من باريس الى المغرب)

٢٠ شباط ١٩٢٨

استعدتُ توازني ، وأنا مسرورة بهـذه الحالة . إلا اني متعجبة قليلاً ، فالمرأة التي يعود اليها الهدوء هي امرأة تتصرّف كما لو كان ينقصها شيء . لا تظن ان رسائلي الاخيرة اليك تقلقني . واذا كنت لا تريـد اقلاق النساء فما عليك إلا ان تمتنع عن السعي اليهن في منازلهن بالراديو . هذه مسألة في غاية البساطة .

أجل ، اني كئيبة قليلاً . وهذه الكآبة هي ، ولا ريب ، نتيجة ردة فعل سببها حادث بسيط . فقـد ارسلت اليّ الخياطة ثوباً كنت قـد أوصيتها عليه ، وعللت النفس بان يكون جميلاً ، مع اني لا أعنى بهندامي إلا لأجلك ، وإن أكن لا اراك مطلقاً . وقـد تبين لي ان هـذا الثوب يجعلني في مظهر يثير الضحك !

اعترف بأني بعيدة عن الأناقـة ، لكني اعرف ، على الأقل ، أيصلح الثوب لي او لا يصلح . وهـذا مـا يحطم اعصابي . وكم ترهقني فترات تجربة الأثواب ، حـين تنعكس صورة وجهي على عدد من المرايا القائمـة حولي ! فوجهي يدهشني دائمـاً حين ارى صورته في المرآة ، فأبادر الى البحث عن وجهي الآخر ، الوجه الذي كان لي في مـا مضى ، وجهي الاول .

ان هيامي – اعني هيامي بك ، واضع النقاط على الحروف لأنك لا تفهمني دائماً – قد اتعبني وجعلني هرمة اكثر ممـا تستطيع ان تفعله حياة خاليـة من المبـاهج . وفي هـذا الهيام مـا يستحق ان أتغيّر لأجله !

اواه ! ليتني استطيع ان اهرم بهدوء ، بعد ان القي سلاحي مذعنةً بطيبـة خاطر ، ففي الهرم اجـد السلام وأرتاح الى رؤية وجهي ... لكن ، لبلوغ هذا الهدف المرتجى يجب ان اكون قد نلتُ شيئاً ، ولو قليلاً ...

انك تدمّرني تدميراً تاماً . غير اني اردد دائماً : « نعم ، نعم ، لا اريد احداً سواك ! » ثم اشعر بالعياء ، اشعر بانك اتعبتني . وهنـا ايضاً تراني اضع النقاط على الحروف .

وفي اغلب الاحيان ، حين يستبد بي شوقي اليك ، وأكاد اهتف باسمك لأدعوك اليّ ، اقبض على رأسي بيديّ ، واغمض عيني حتى تخور قواي ، فتمر الازمة .

ان حبي لـك سيموت كما تموت الاشياء العديمـة الفائدة . وفي نفسي رغبة في الانقطاع عن مراسلتك ، وهي رغبة تنمو وتشتد يوماً بعد يوم . سألجأ الى السكوت ، وسأدفن نفسي في صمت عميق .

ما الذي اخشى خسارته مما اعطيتني ؟ أودّ ان تحل بي هذه الخسارة فوراً ، لأنك لم تعطني شيئاً .

هذه تأملات امرأة يلمع في ذهنها احياناً نور الحق والمنطق .

تأخر بزوغ ربيعي الجنسي عشر سنوات بسبب مبالغـــة امي في صراحتها . واني لأسائل نفسي الآن : ما هو الافضل أتركُ الاولاد في جهل المسائل الجنسية ، ام شرحُ هذه المسائل لهم ، كما هي تماماً ، قبل ان تكون « الحادثات المجرمة » قد افسدت اخلاقهم ؟

كلا الطريقين يؤدي الى كارثة . فاطلاع الاولاد باكراً على الحقائق يؤخّر تطوّرهم الجنسي ، وهـذا مـا خبرته عن كثب . فبـين الخامسة عشرة والعشرين من عمري كان يستولي عليّ الاشمئزاز كلما رأيت رجلاً وامرأة جنباً الى جنب ، لأني كنت افكر بما يجري بينهما من الوصال . وكان يقشعر جسمي نفوراً اذا خطر في بالي انه من الممكن ان يوجّه اليّ احد الرجال كلمات مغرية .

منذ ذلك الحين احببت الانفراد ، فزادتني المعرفة اعراضاً عن الحياة ، وتوغلاً في طبيعتي الوحشية ، فرحت اقول في نفسي : « اذا كان الرجال يغازلون ، ويبذلون اللطف والمسايرة ، ويقبّلون الايدي ، ويحيُون الحفلات الاجتماعية لبلوغ الاتصال الجنسي ، فتباً لهم ، وتباً لهذا المجتمع ! فكنت ارفض دائمـاً الذهاب الى حفلات الرقص والملاهي ، وارفض القيـام برد الزيارات . وقد اعلنت يوماً اني مخطوبة لأحدث فراغـاً حولي ، ولأنعم بالانفراد .

بلغت الثلاثين من العمر وانا اجهل كل شيء عـن ماهيـة الوصـال النفسانية . ولما وجّهتُ اليك تلك التهمة الباطلة بانـك لوّاط على غرار شارلوس ، بـدأت افكر بهذا الامر ، ثم اشتريت كتباً تعالج المسائـل النفسانية والمسائل الجنسية . إلا ان هـذه الدراسة الطويلة لم تنتزع من ذهني أن في حياتك شيئاً غير طبيعي . وهذا الشذوذ فيك هو الضريبة التي تدفعها ثمناً لما تتمتع به من المواهب العديدة . واعترف لـك بان في حياتي ايضاً نوعاً من الشذوذ .

انك تعلم، ولا ريب، ان «فاغنر [1]» كان يقول لزميله «ليست [2]» انه لو كان سعيداً في حياته لما ألّف قطعة موسيقية واحدة. فالموهوبون يضعون في فنونهم ما عجزوا عن وضعه في حياتهم. والله لم يقدم على خلق العالم إلا لأنه كان شقياً يتألم.

قبل أن أعرفك، سمعت في نادي «ربة الشعر اللامارتينية» في «ايسودون [3]» محاضرة القتها شاعرة مغمورة لا تخلو من المواهب، تدعى كلودا فيولانت، وهي فتاة شابة في ربيعها الثاني والاربعين او الثالث والاربعين، واسمها الحقيقي: «الآنسة ماري أليكس دي لاروش دي فيلبرون».

كان عنوان محاضرتها سخيفاً مضحكاً، وهو: «أيجب بالضرورة أن يظل الكاتب الكبير بكراً؟» غير أن الفكرة التي ينطوي عليها هذا العنوان جديرة بالاهتمام.

زعمت هذه السيدة، بعد تكديس كمية كبيرة من البراهين، ان رجل الفن يصبح فصيحاً ويبلغ ذروة البلاغة بقدر ما تكون معرفته للشيء الذي يتحدث عنه ناقصة. وذكرت في هذه المناسبة كثيرين من

---

١ - ريشار فاغنر (١٨١٣ – ١٨٨٣) موسيقار الماني. اشهر مؤلفاته «سادة المغنّين»، و«حلقة نيبيلونغ»، و«تريستان وإيزولت»، و«برسيفال». عبقري متفوق، وشاعر اغترف مواضيعه من الاساطير الوطنية الالمانية، وحوّر تقاليد الاوبرا القديمة جامعاً بين الشعر والموسيقى والرقص.

٢ - فرانز ليست (١٨١١ – ١٨٨٦) موسيقار وعازف على البيانو، مجري الجنسية، اشتهر بالقوة والابداع في التعبير عن مشاعره. اشهر مؤلفاته «سمفونية فاوست»، و«ربسوديات مجرية». وهو خالق القصيدة الموسيقية.

٣ - بلدة فرنسية. ولامارتين، الذي دعي النادي باسم ربة شعره، شاعر فرنسي رومنطيقي شهير، زار لبنان، وكتب عن ربوعه كتابات خالدة. وهو من اصفى الشعراء الفرنسيين انتاجاً.

الذين تغنوا بالمرأة كبودلير ، وبو [1] ، وبيـار لويس [2] ، فقالت انهم كانوا عاجزين جنسياً . وذكرت أن دانونزيو ظل بكراً حتى تقدم في السن ، وان بيرون كان مكبوتاً ، معقـداً ، يفضل الفتيان على النساء ، كما يتضح مـــن علاقاته المشبوهة بادينغتن [3] ، ونيكولو جـيرو ، واللورد كلاري وغيرهم ... واشارت الى ان « أزياده [4] » لم تكن بالحقيقة إلا صبياً ، وقد نسبت هذا الزعم الى السيدة جوليات آدم [5] . والخلاصة ، ارادت السيدة فيولانت اقناعنـا بانـه يكفي أن نسمع الاديب يتغنى بالمرأة لنحكم على الفور بانه لا يعرفها على الصعيد الجنسي إلا قليلاً .

فكّرتُ بهـذه الاشياء بينما كنت استمع الى حديثك في الراديو ، فتبين لي انك تعاني خجلاً طاغياً عندمـا تخطب في الناس ، وان هـذا الخجل لا تثيره فيك الخطابة وحدها ، بل تبعثه فيك شؤون اخرى عديدة في حياتك . وقد أيقنت الآن أن رأيي فيك — رأيي الذي اوحته اليّ غريزة الانوثة المعصومة من الخطإ — هو الحقيقة بعينها . فاصرارك على شرح الوصال الجنسي في مؤلفاتك شرحاً ضافياً دقيقاً هو الدليل القاطع

---

١ ـ ادغار ألان بو (١٨٠٩ — ١٨٤٩) كاتب اميركي ، عجيب الخيال ، لا يرى الا الفواجع والكوارث . اهم مؤلفاته « قصص خارقة » .

٢ ـ كاتب فرنسي (١٨٧٠ — ١٩٢٥) . اشهر مؤلفاته : « المرأة والكراكوز » ، و « مغامرات الملك بوزول » ، و « افروديت » .

٣ ـ السير ارثر استانلي ادينغتن (١٨٨٢ — ١٩٤٤) عالم فلكي وفيزيائي انكليزي . حدّد الحرارة والوزن في عـدد من النجوم ، كما حدد المواد التي يتألف منهـا بعض الكواكب .

٤ ـ احدى بطلات قصة « الخائنات » للكاتب الفرنسي بيار لوتي .

٥ ـ كاتبة فرنسية (١٨٢٦ — ١٩٣٦) انشأت « المجلة الجديدة » التي كانت ميداناً يتبارى فيه كبار ادباء فرنسا ورجال السياسة فيها . وكانت دارهـا ملتقى مشاهـير رجـال الدولة واهل القلم . وقـد خلفت بعض روايات اشهرها : « الوثنية » .

على أن خبرتك ناقصة في هـذا المجال . ولاني لم افهم بعد لماذا ترفض اعطائي واعطاء نفسك المتعة البريئة التي التمسها منك ، فقد عزوت رفضك الى نوع من الجنون لا اجد له سبباً ...

ربما كانت هـذه المعلومات تسمح لي بأن افهم انـك لم تفكر قط باعطاء شيء من المتعة لـ « آخرين » [1] وحسب ، بل انك لا تحب المتعة ، ولا تحب الوصال الجنسي . لذلك توهمتَ انك تقدم للمرأة برهاناً كافياً عن مودّتك وعطفك اذا صارحتها بانك تشتهيها .

ولست بحاجة الى اطلاعك على أن حرماني يزداد ويشتد بقدر ما يفيض الخير عليك . وبقدر ما يرهقني الحرمان احس انك قريب مني . ان نظريتي بشأنك تساعدني على احتمال الحياة . واذاً ، فهي صحيحة .

أ . هـ

ربما كنت تحاول أن تصلي فلا تستطيع . مسكين انت ! يا لك من ولد مسكين ! لا استطيع التصوّر الى اي حد بوسع الانسان ان يكون شقياً . يا للعجب ! كم من السعادة نستطيع أن نبني بـلا سعادة مَنْ يملك كل شيء مثلك ، عندما نكون محرومين كل شيء !

(وُضعتْ هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يُفض غلافها)

---

١ ـ في الجزء السابق من هذه السلسلة قال كوستال : « متعتنا هي في ما نعطيه للآخرين » . ـ المؤلف .

١٤

أقام كوستال ، طوال الايام الخمسة التالية ، يستقبل خديجة كل مساء ويضاجعها .

وكانت جميع اوقاته موحشة ، كئيبة ، ما عدا ساعة اللقاء المفعمة بالعذوبة . وكلما كانت العاصفة تشتد ، كان يتذمر قائلاً : « يا للمطر اللعين ! انه يسبب الاخلال بالمواعيد . وها هو ينهمر بغزارة . فلن تأتي خديجة اليوم » .

اما غرفته فكانت توحي الشؤم بجدرانها المزدانة بتصاوير تعلوها طبقة سوداء من الوسخ ، وبعمودها الخشبي المنحوت بالسكين ، وهو يسند بعياء ظاهر سقفاً محدودباً ومرشحاً للانهيار في المرة الاولى التي يتراكم فيها عليه الثلج .

وكان بحر الغيوم يحاذي حافة الغرفة كما يحاذي بحر المياه حافة النافذة المستديرة المفتوحة في هيكل السفينة . وفوق بحر الغيوم ، كانت تبدو ثلوج القمم كأنها الزبد على سطح المحيط الهائج .

وراح كوستال يعلل نفسه بان يستيقظ من نومه يوماً فيرى الجبال قد زالت من اماكنها كما يزول السراب في الصحراء ، إلا انها لم تتحرك ، بل بقيت في اماكنها بكل ما فيها من بلاهة وغباء .

وفي الغرفة التي عجز « الكانون [١] » عن تدفئتها ، (ولم اجد قط في

١ - « الكانون » : كلمة عامية تدل على موقد صغير كالمنقل ، مصنوع من الطين ، وقد

افريقيا الشمالية ناراً تدفّىء غرفة) ، لفّ كوستال ساقيه باللحاف ، ولفّ رقبته بعصبته ، وجلس يحاول العمل، ثم اندس في السرير دون ان يخلع ثيابه وتابع كتابته .

ولما وصلت خديجة وأطلعت على الاوراق التي سوّدها جعلت تصيح : « ما اكثر ما فيها من الاخطاء ! »

وكانت علاقتها بصاحب الفندق تجربة من نوع آخر بالنسبة اليها ، فهو وطني مناضل ، وشقي مشهود له بشدة البطش ، وهي مضطرة الى بذل جهدها لتقنعه بما تكنّ له من المودّة والاعجاب .

ومن حسنات هذا الفندق ان من يدخله يشعر بالطمأنينة والأمان ، فلا رقيب يتجسس ، ولا فضولي يحاول ان يعلم . إلا ان خديجة كانت تجازف وتتعرّض للفضيحة . ولكي تجتنب التورط في مشكلة ، بادرت الى مسايرة صاحب الفندق وهي مكرهة ، وكانت تزعم ان ذويها لا يعرفون شيئاً عن تصرفاتها .

اذا كانت المتعة الجنسية رخيصة بالنظر الى المال الذي نبذله في سبيلها ، فهي باهظة الثمن بالنسبة الى الاعتبارات الاخرى . ويكفي ان نفكر بانها ترغمنا احياناً على التخلي عن صلفنا وكبريائنا ، وتعلمنا الصبر ولين العريكة ، لندرك مدى سلطانها علينا ، وقيمة ما ندفع ثمناً لها .

لما وصل كوستال الى المغرب ، كتب رسالة الى سولانج . ولدى انتقاله الى تغرمت كتب اليها رسالة ثانية ، على ان يضعها في البريد عندما يذهب الى مراكش بعد بضعة ايام . كان تصرفه في كتابة الرسائل كتصرف الاولاد ، اذ انه كان يكد ويجتهد اكثر من كدّه واجتهاده في وضع مؤلفاته ، لأنه في رسائله لم يكن يدري ما ينبغي له ان يقول . لذلك كان يكتب ما يخطر في باله ليملأ الصفحة لا اكثر .

: استعملها المؤلف كما هي بالعربية : Kanoun

وكان يلاعب السطور كما يلاعب الهر الفأر ، تارة يتركها تستريح ، وتارة ينقض عليها ويمعن في مداعبتها ، ثم يتوقف عن الكتابة قبل ان تنتهي الرسالة ، متذرعاً بانه كذب كفاية يومه .

هذا في رسائله العادية التي يحبها ، فكيف بـه في رسائله الى سولانج التي لم يكن يكتبها إلا قياماً بواجب ؟

كان سيل النسيان قـد بدأ يجرف ذكرياته ، فأحس انـه انتهى من هذه المرأة كما ينتهي المرء من تدخين سيكارة . لقد مثلت دورها وانتهى امرها . غير انه ما برح يتذكر اساءته اليها فيشعر كأنه يشد على ضماد جرح : تعاوده وخزة من الألم فينزف الدم من جديـد ، لكن الألم لا لا يلبث ان يزول بسرعة . إلا انـه صمم على تعليل سولانج بالآمال ، متصنعاً في رسائله كلما حاول التعبير عن حبـه وعطفه ، لأنه أكثرَ من اختراع البراهين كالزوج المجتهد في تضليل زوجته .

ولكن ، يا للاسف ! فقد صدق القديس اغسطينوس [1] بقوله : « ليس الخطاب الطويل دليلاً على الحب العظيم » . وعلى كلٍّ ، لم تكن رسائـله طويلة ، اذ انه كان يختم بعضها زاعماً أن السيارة العمومية التي ينتظرها ليسافر قد وصلت ، او أن حبر قلمه قد نضب ، ولا يستطيع الكتابة بالقلم الرصاص .

وفي جميـع هذه التصرفات ، كان كبير الاعجاب بعمله ، كتاجر يسدّد الديون المستحقة عليـه . وكثيراً مـا صارح سولانج بان التعجب

١ ـ حبر كاثوليكي ومبشر كبير (٣٥٤ ـ ٤٣٠) تولى اسقفية هيبونـة ، في الجزائر ، وقـام بجولات تبشيرية كبيرة بصحبة رجلـين تعلما اللاتينيـة لترجمة مواعظه من اللاتينية الى الفينيقية التي كانت لا تزال لغة افريقيا الشمالية كلها في ذلك العصر . اهم مؤلفاته : « مدينـة الله » ، و « اعترافات » . وهو فيلسوف ولاهوتي حـاول التوفيق بين فلسفة افلاطون والدين المسيحي ، وبـين العقل والايمان . عيده في ٢٨ تموز .

يستولي عليه كلما كتب اليها ، لانه في هذه الفترة من حياته لم يكن يكتب الى احد ، وقد أهمل جميع اصدقائه كما يهمل الفلاح ارضه بائرة . وكان يختم هذا التمنين بقوله : « ومع ذلك فانت تشكين وتتذمرين ! » كأنه غمرها بالسعادة ، فما رأى منها سوى العقوق . واغرب من هذا انه كان يكتب كأنه غافل عما جرى بينه وبين الآنسة دنديو ، مع انه ، بالحقيقة ، لم يكن غافلاً .

كان يأسف لما اساء به الى سولانج ، إلا انه لم يكن يشعر بشيء من تبكيت الضمير . فقد درج على القاء التبعة عليها دائماً ، مبرراً تصرفه بقوله : « لماذا ارادت ان اقترن بها ؟ ولماذا ارادت اندريه ان آخذها ؟ » كسائق سيارة يتأسف بشدة لانه دهس شخصاً ، غير انه لا يستطيع إلا أن يجد عذراً لنفسه بقوله : « لماذا طرح هذا المجنون نفسه تحت عجلات سيارتي ؟ »

يوم صمم على الذهاب الى مراكش ، كان ينوي الاقامة فيها ستة اسابيع او سبعة ، ليتنقل بعدها الى سوس ، ثم الى منطقة اخرى من مناطق الاطلس . وقد خطرت هذه الجولة في باله قبل انصراف خديجة ببرهة وجيزة ، فقال لها :

— احبك حباً عظيماً .

— اعلم ذلك .

— اعتقد اني قلت لك كل ما اود قوله ، اما انت فما قلتِ لي شيئاً . أليس لديك ما تقولين ؟

— لا ...

ولم يكن هذا النفي ينطوي على اقل نية سيئة ، انما كان تعبيراً صادقاً عن الحقيقة ، اذ لم يكن لديها ما تقول . فخلال الايام الستة التي انقضت ، غمرها كوستال باللطف والعطف والنقود ، واعطاها برهاناً ساطعاً وغير عادي ، ان لم يكن عن حبه لها ، فمن « شيء » آخر جعله لا

يحفل بمرضها ، ولا يحجم عن الاتصال بها .

وعلى الرغم من وعده لها بانه سيبذل قصارى جهده ليحث الاطباء على معالجتها بكل عناية ، صارحته بان ليس لديها ما تقوله له . وما كادت تخرج من الغرفة وتبتعد عنه حتى اعتراه ارتعاش ناجم عن الدهشة ، لا عن القلق ، فراح يردّد : « هــذا لا يُصدّق !... لا يُصدّق !... » لكنه فكّر بانه افضل له ان لا يتلقى شيئاً من الشكر حين يكون عمله جديراً بالشكر ، على ان يتلقى عرفان جميل يفوق عمله ، خصوصاً اذا كان قد قام بهذا العمل من غير رغبة فيه كأنه مسخّر له .

وبعد هذا التفكير تنفس ملء صدره ، وسرّه أن يكون لقاؤه بخديجة قد مرّ بسلام ، ولم يؤدّ الى حادثة ما في الفندق . فاصحاب المغامرات الغرامية السرية يتنفسون الصعداء كلما خرجوا من خلوة دافئة ، او انفصلوا عن خليلة ، او انتهت مرحلة من حياتهم الحافلة بالاحداث ، لانهم يشعرون بانهم نجوا من الوقوع في فضيحة الجرم المشهود . وشعورهم هذا مزيج عجيب من المرارة والعذوبة ، فيه بهجة الخلاص وكآبة الفراق ، كالنسمات البليلة والقيظ الناشىء على شاطىء البحر . وربما كان شعار هؤلاء المغامرين : « نحن لهذه المغامرة ما دامت مستمرة وما دمنا فيها ! »

وفي مستشفى مراكش ، قال الدكتور لوبل لكوستال :

– أبيار كوستال الكاتب انت ؟ تفضل بالجلوس ، واعذرني ، فان عملي يستغرق اوقاتي كلها ولا يدع لي فترة من الراحة ... ثم اننا في هذا البلد نصبح متوحشين ... وبعد ، فاود ان اعترف لك فوراً باني لم اقرأ شيئاً من مؤلفاتك .

اجاب كوستال بوقاحة مقصودة :

– حسناً فعلت ! فمن الافضل ألّا تقرأ مؤلفاتي .

– لكن احد اصدقائك حدثني عنك طويلاً .

– يجب اذاً أن اتوقع اوخم العواقب .

– انه السيد ريشار ، الاستاذ في مدرسة الرباط . ولا تظن اني لم أقرأ شيئاً عن كتاباتك . لا ، فاني اتذكر مقالة منك لاذعة دافعتَ فيها بفصاحة عن برج إيفل .

اجاب كوستال محتجاً كمن نزلت به اهانة :

– لم اكتب قط دفاعاً من هذا النوع !

– دعنا من المزاح ، ألا تتذكر هذه المقالة ؟ منذ ثلاث سنوات او اربع شنّت الصحافة حملة عنيفة على برج إيفل مطالبة بهدمه ، فكتبتَ مقالاً برهنت فيه عن ان هذا البرج جزء من تراث باريس ، شئنا ام ابينا .

– من المحتمل ان يكون قد ورد في مقالتي شيء من هذا من طريق الصدفة ، لاني انتقدت غضب الصحافة المرتجل على برج إيفل والتروكاديرو ، وقلت انه ضرب من التبجح بالتقدمية المصطنعة ، الا اني لم اكرّس المقالة لبرج إيفل .

وكان يتكلم بعنف محاولاً كبت استيائه . فقد اغاظه ان تكون له ثمانية مؤلفات كتبها بلحمه ودمه ، وان لا يعرف الناس عنه إلّا جملة عابرة ، قليلة الاهمية ، خطّها قلمه في خبر صحفي ، وحرّف القراء معناها كما يطيب لهم ان يحرّفوا . فيا له من رمز عجيب للعلاقات القائمة بين الكاتب وجمهور القراء !

وعلى كلٍّ ، فمن الطبيعي أن لا يقرأ طبيب جميع مؤلفات كوستال ، فللاطباء اعمال غير قراءة الروايات . لكن الكاتب لم يأخذ بهذا الاعتبار ، بل انزلق من اعتراف لويل بانه لم يقرأ مؤلفاته الى الاعتقاد بان هذا الطبيب أبله ، عديم الذوق . ولو كان الطبيب يعرف كوستال

لما تورّط في حديثه ، ولنشأت بينهما علاقة على غير هذا الاساس من سوء التفاهم .

ان سلطة الطبيب الكبيرة لا تفرض نفسها على اجسادنا وحسب ، بل على فكرنا ايضاً ، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد ان الطبيب غير جدير بهذه السلطة . فحياتنا كلها منوطة به ، او من المحتمل ان تكون كذلك ، فنقسو عليه في احكامنا ، وقليلاً ما نتساهل في ان يكون له ذوق غير ذوقنا في الادب ، والسياسة ، وشؤون الحب والطعام .

كان الدكتور لوبل يناهز الخمسين ، له شعر مصوّرٍ ، وشاربا ممثلٍ مسرحي من النوع الذي يروق المجتمع ، اي ان شعره طويل ، لكن ليس كفاية ليصبح كشعر الرسّام الفاشل ، وان شاربيه كناية عن شعرات قصيرة كشوارب الكونتات الذين يعيشون كأنهم يمثلون على المسرح ، ويعتبرون نفوسهم اشقياء ان لم تكن وجوههم ملساء ملطاء ، إلا انهم يحتفظون بخشونة الشاربين لتهدئة اعصاب الكونتيسات .

ولم يكن جمال وجه لوبل في ملامحه المعبّرة عن الذكاء ، ولا في شيء يدل على انه صاحب شخصية قوية ، بل في ما وصل اليه من طريق الوراثة : فقد كان وجهه وجه رجل من نهاية عهد الملك لويس الثالث عشر او بداية عهد الملك لويس الرابع عشر ، وهذا امر يحدث تأثيراً عميقاً في النفس لدى التأمل فيه .

لكن اذا انحدر النظر من هذا الوجه الرقيق اللطيف الى اليدين ، فلا بد له من الدهشة : فالاصابع قصيرة ، بضّة ، وردية اللون ، والمعصمان غليظان ، فيهما خشونة وكثافة ، كمعصمي رجل عالج ابوه الحراث والمعول طيلة نصف قرنٍ . اما سحنته فسحنة مستشار في مجلس النواب عام ١٦٤٠ ، ويداه يدا معلم مدرسة في السنة ١٩٢٨ . وكثيراً ما نلاحظ مثل هذا التفاوت بين مختلف صفات الفرد ، لدى بعض المراهقين من ابناء الشعب الذين يحترفون الاعمال اليدوية ولهم وجوه ملائكة

وأيدي حدادين.

ولعل ابرز ما كان يسترعي الانتباه في الدكتور لوبل انه يزيّن صدره، فوق الثوب الابيض الذي يرتديه في المستشفى، بزرّ وسام جوقة الشرف. فهو لا يختلف في ذلك عن اللاعب بكرة القدم اذا زيّن بهذا الزر بنطلونه القصير. وليس من المستبعد ان يربط الدكتور لوبل هذا الزر بشعر صدره عندما يتعرى من ثيابه ليدخل الحمّام.

ولما تخلّص كوستال من وحلة برج إيفل، أطلع الطبيب على غايته من زيارة المستشفى، فأجابه لوبل:

ـ عرفت، في احد الارياف المغربية، حيث كنت الطبيب الوحيد، موظفاً فرنسياً اشرفت خليلته المغربية على الموت، ولم يستدعني لمعالجتها خوفاً من ان اراها دميمة. اني اروي دائماً هذه النادرة للاوروبيين الذين يطلبون اليّ معالجة خليلاتهم المغربيات. وما خلا ذلك، فهات ما عندك، فما الذي تنتظره مني؟ جلُّ ما استطيع قوله لك ان الجذام في المغرب على طريق الانقراض.

قالها بلهجة المنتصر، كأنه يردد في نفسه: «نحن هنا نعمل وننجح!» ثم استطرد قائلاً:

ـ قبل الخوض في البحث، يجب ان اصحّح آراءك في هذا المرض. فثمة امراض تعتبرها العامة بسيطة وخالية من الخطر، مع انها تؤدي احياناً الى اوخم العواقب، كالنزلة الرئوية، والتعقيبية، والحصبة، واليرقان، وغيرها، وامراض اقل خطراً مما يتوهم الناس. فالسفلس، مثلاً، لم يعد خطراً اليوم اذا عولج في بدايته. والوقوف في مجرى الريح ليس خطراً إلا اذا كان المرء عرقاناً. والاستمناء الذي يرهبون باخطاره الوهمية جميع المراهقين المساكين لا يختلف بشيء عن الوصال الجنسي الطبيعي، وهذا ما يؤكده جانيه[1]. اما مرض هانسن[2]، (وهذا اسم الجذام باللغة

---

[1] ـ هناك ثلاثة علماء فرنسيون يحملون هذا الاسم، الاول بول جانيه (١٨٢٣

الطبية التي تحاول بث العزاء في النفوس) ، فلا اقول انه ليس عضالاً ما دام يؤدي الى الموت . غير اني على يقين من ان خطره اقل مما يتوهم الناس . واول ما اود الاشارة اليه ان استحكام جرثومة هذا المرض بالجسم بطيء جداً . وقد تمر ثمانية اعوام او عشرة على انتقال العدوى قبل ظهور العوارض ! وتطوّره ايضاً بطيء . واذا تعذّر الشفاء منه ، فتخفيفه ميسور، والحد من وطأته سهل . ففي وسع صاحبتك المغربية ان تعيش عشر سنوات حياة طبيعية خالية من الألم . ولكن من المحتمل ان تمر بفورات من هيجان المرض تتطلب معالجتها زمناً طويلاً . وكثيراً ما تحدث هذه الفورات قبل الموت بعشرين سنة .

قال كوستال في نفسه : « هذا ما يهمني في الدرجة الاولى . فاذا انتقلت اليّ العدوى فسأجد الوقت الكافي لانجاز القسم الأهم من انتاجي الادبي ، وهو لا يحتاج الى اكثر من ست سنوات احافظ خلالها على صفاء الذهن وسلامة التفكير » .

واكمل الدكتور لوبل حديثه قائلاً :

— واخيراً — وهذا ما اود ان تعيره انتباهك — ليست العدوى سهلة الانتقال كما يظن السواد الاعظم من الناس . فحوادث انتقالها اقل من حوادث انتقال السل ، لأن جراثيم الجذام لا تنتشر في الهواء . ولا تتعجب اذا كانت خديجة وعمها لم يُعزلا عن الناس ، فليس جميع المصابين معزولين . لدينا مستشفيات خصوصية للمجذومين ، طبعاً ، لكن المرضى

١٨٩٩) وهو فيلسوف ومفكر ؛ والثاني ابن اخيه ، بيار جانيه (١٨٥٩ — ١٩٤٧) ، من روّاد علم النفس التجريبي ؛ والثالث ابن بيار بول جانيه (١٨٦٢— ١٩٣٧) وهو فيزيائي اهتم بالشؤون الالكترونية .

٢ ـ جرهارد هنريك هالسن (١٨٤١ — ١٩١٢) طبيب اسوجي اكتشف جرثومة الجذام ، فسجل سبقاً كبيراً في علم الابحاث الجرثومية .

يقيمون معاً في غرف مشتركة حين لا يطلق سراحهم . ففي باريس ثلاثمائة مجذوم ، لا يقيم منهم في مستشفى القديس لويس سوى عشرين مريضاً ؛ اما الباقون فيذهبون الى حيث يطيب لهم الذهاب . وحتى الذين أدخلوا الى المستشفى يقيمون في غرفة مشتركة . وليس فينا من يذكر ان العدوى انتقلت الى احد من الأصحاء . واكثر من ذلك : ففي وسع المجذومين ان يتزوجوا وان يمارسوا الوصال الجنسي طوال سنوات دون ان تنتقل العدوى من المريض الى السليم من الزوجين . والخلاصة ، اني لا اعتقد ، من الوجهة الطبية الصرف ، انه من المستحيل ان تكون العدوى قد انتقلت اليك ، لكني اجزم بانه من المستبعد ان يكون هذا الانتقال قد تم في الاتصالات الستة التي جرت بينك وبين خديجة ، لأن الطبيب فحص هذه المرأة قبل اتصالاتك بها ببضعة ايام ، فلم يكتشف في اعضائها التناسلية أثراً لجراثيم المرض .

قال كوستال في سرّه : « ان الرجل لعلى حق دائماً حين يجازف ... كنت اعلم ان الجدري اصبح من الامراض المسلّية والممتعة بفضل العلاجات الحديثة ، اما الجذام ؟... »

ثم خاطب الدكتور لوبل قائلاً :

– لنفترض اسوأ الاحتمالات ، فمتى تظهر عوارض المرض اذا كانت العدوى قد انتقلت اليّ ؟

– بعد اربعة اشهر ، او اربع سنوات . هذا كل ما استطيع ان اقوله لك .

– أيجب ان أتخذ منذ الآن تدابير واقية ؟

– تدابيرك الواقية هي ان تقطع علاقاتك بهذه المرأة . لا يجوز ان تتابع اللعب مع الغدد المخاطية ، فهي لا تحب المزاح ! وسأصدر الاوامر اللازمة فوراً لجلب خديجة الى هنا ، وفحصها من جديد ، على الرغم من ان حكم الدكتور مايبون جازم لا مجال فيه للشك . سأفحص انفها

والاشياء الاخرى ، ثم احقنهـا بعصير الشولموغرا [1] واسمح لها بالعودة الى بلدتها ، فلا مكان في المستشفى إلا للذين بلغ فيهم المرض مرحلة خطرة . لدينا مشروع لانشاء مستشفى جديد ، في مراكش ، لأمثال صاحبتك من المصابين ، إلا ان انجازه يتطلب سنتين او ثلاثاً . وسيزور مايبون خديجة في تغرمت كلما ذهب الى هناك . اعدك بان اهتم شخصياً بهذا الامر . ثم ان المرض المقيم في « طعود » سيعنى بها ويسهر عليها ، فلا يدعها تهمل العلاج اذا تحسنت حالها قليلاً .

واقترح لوبـل على كوستال ان يريـه بعض المجذومين المقيمـين في المستشفى ، وقال له :

— كثيرون من رجال القلم ، وجميع الاديبات بلا استثناء ، يتصوروون انهم محاطون بالمجذومين عندما يزوورون هذا المستشفى .

وافترّ ثغر الطبيب عن ابتسامة جارحة بما فيها من التهكم ، فرفض كوستال اقتراحه قائلاً :

— لا اجد فائدة لأحد في اثارة خيالي . ثم ان منظر المجذومين من المشاهد التي تهم المصورين ، ولا تهمني مطلقاً .

إلا انه َقبِـل بان يأخذ كتاباً علميـاً عن الجذام أعاره إياه لوبل ، لأنه اراد ان يعلم اكثر مما علم ، وهو المصمم على الاحتفاظ برباطة جأشه .

ولم يستطع الفرار من المشاهد المثيرة ، فقد عرض عليـه لوبل صور بعض المصابين بوجوههم المتورمة ، ونظراتهم الشاردة ، وأنوفهم المسحوقة تحت عيون خالية من الحواجب والرموش .

وكان بـين اولئك المرضى افراد سقطت اصابـع ايـديهم وارجلهم ، وافراد سقطت اعضاؤهم الجنسية ، او اهترأت ودبّ فيها الفساد ، فقـال كوستال في نفسه : « سأجني كسبـاً عظيماً اذا خمد حبُّ خديجة في

---

[1] ـ نبات ينمو في برمانيا ، ويستعمل عصيره لمعالجة الجذام .

قلبي » . وكان في تفكيره على جانب كبير من المنطق والصواب . ثم راح يبحث ، بدافع من غريزته ، عن الموقف الذي يسبب له أقل ما يمكن من الألم ، فتبين له انه من المحتمل ان تساعده الطبيعة على النفور من خديجة متى بــدأ المرض يشوّه وجهها . غــير ان هـــذا الاحتمال ظل محفوفــاً بالشكوك ...

وانقضى اسبوع قبل ان تصل خديجة الى مراكش . وقبيل وصولها ساءل كوستال نفسه أمن الخير ان يستقبلها ؟ فرأى انــ لا فائدة في هــذا الاستقبال . وفي اليوم التالي سافر الى الجبال .



١٥

غادر كوستال مدينة مراكش ميّمماً المناطق الجبلية . وكان يذهب كل يوم خميس الى بلدة يصل اليها البريد ليتسلم الرسالة الاسبوعية التي يكتبها اليه ابنه كل يوم احد ويرسلها بالطائرة . وكان برونيه في احدى المدارس الانكليزية على مقربة من لندن . ومن بين الرسائل المائتين تقريباً التي كانت تصل اليه كل اسبوع ، لم يكن يهتم إلا برسالة برونيه . اما الرسائل الاخرى فكان يلقي عليها نظرة سريعة ، او يتصفحها بتزق ، او يمزقها ويرميها دون أن يفض غلافها . واذاً ، فرسالة واحدة كانت تهمه ويُسرّ بها ، واحدة بين مائتين . أفليست هذه النسبة هي المألوفة بين الناس ؟

في الفصل المدرسي الاخير من سنة ١٩٢٧ ، كان برونيه في مدرسة «كان [١] » ، فاحتج قائلاً انه يودّ الخلاص من الجهل المتراكم فيه ، وانه لا يستطيع العمل في تلك المدرسة ، فخطرت في بال كوستال فكرة نقله الى مدرسة خاصة في جوار لندن . واصبحت انكلترا بلداً عزيزاً عليه منذ أن كتب اليه ابنه انه امضى بعض الوقت عند اصدقاء له و «كان سعيداً كأنه ملك» . وقد ارتاح الكاتب الى هذا التدبير لانه انقذ ابنه من التشويه الفكري الذي يتعرّض له تلاميذ الصفوف الثانوية

---

١ ـ مدينة فرنسية .

في المدارس الفرنسية . وتذكر انه اصيب بازمة نفسية وعصبية استمرت اثنتي عشرة ساعة يوم اخبره برونيه ان موضوع فرضه الفرنسي في الانشاء كان : « يصوّر راسين الانسان كما هو ، ويصوّره كورناي كما يجب ان يكون [1] » .

قال احد الحكماء القدامى ان إنجاب البنين نعمة لا تسبغها الآلهة إلا على اصفيائها من الناس ، غير أن التعليم المدرسي ، بما فيه من مناقشات سخيفة ، ودروس عقيمة وعديمة الاهمية ، يجعل الآباء يأسفون احياناً لكونهم انجبوا ابناء .

وفي هذه الاثناء تلقى كوستال من ابنه رسائل لا تخلو من التذمر . فلما كان برونيه في باريس ، تعلم اسماء جميع محطات القطار الكهربائي الذي يسير تحت الارض . وكانت ذاكرته مدهشة كذاكرة سواه من الاولاد النبهاء ، تسجّل كل شيء ، حتى ان اباه كان يخشى ان يقرأ بحضوره بعض الكتابات لئلا ترسخ في ذهنه اكثر مما يجب . إلا أن هذه الذاكرة اجفلت لما اصطدمت باللغة الانكليزية ، فادرك الصبي انه لن يتقن التكلّم بهذه اللغة ابداً ، فتألم وساوره القلق ، لا لأجل ما يخسر من امكانات النجاح الاجتماعي اذا اقتصرت معرفته على لغة واحدة ، بل لانه تشاوف على رفقائه في « كان » مؤكداً لهم انه سيعود من لندن وهو يتكلم الانكليزية بطلاقة كأحد ابنائها .

---

١ ـ راسين وكورناي شاعران مسرحيان فرنسيان كبيران اغنيا المسرح الفرنسي بتمثيليات من نوع المأساة تعتبر نموذجية في بابها . إلا ان كلاً منهما انتهج في درسه وتحليله اسلوباً خاصاً يختلف عن اسلوب الآخر ، فعرض راسين المثالب والشهوات متوخياً الاصلاح الخلقي بالعبرة ، وعرض كورناي الفضائل والبطولات رامياً الى الاصلاح بالقدوة ، فاصبح هذا التباين بين اسلوبي المؤلفين من المواضيع التقليدية التي تُفرض معالجتها على تلاميذ الصفوف الثانوية في المدارس التي يُعلّم فيها تاريخ الادب الفرنسي .

لم يكترث كوستال ، في بادىء الامر ، بتذمر ابنه ، اذ تـذكر ان برونيه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، كان يبالـغ بالبكاء على ارنب مذبوح ، حتى ان اباه تساءل يوماً أيتألم بالفعل ام يتظاهر بالألم . وذات يوم ارتكب حماقة ، فاوهم اباه انه جرح اصبعه ليتلقى منـه الملاطفـة عوضـاً عـن التوبيـخ . فاصبح كوستال حذراً حيـال تذمر ابنـه وشكواه . غير انه تلقى منه صورة ، ورآه فيها على شيء من الهزال ، فجعل يقول في نفسه : « ساءت صحته لشعوره بعجزه عن درس اللغة الانكليزية » . ولم يكن هذا الظن بعيداً عن الحقيقة .

وفضلاً عن ذلك ، لم تكن رسائل برونيه تحتوي شيئاً من طرافته ، وحماسته ، وغرابـة اطواره ، فراح كوستال يقول : « أتراه ينطفىء ؟ واذا انطفأ أفلا تقع المسؤولية عليّ لأني اهملته قليلاً ؟ »

جاء في احـدى رسائل برونيه الواردة مـن لندن : « يوم كنتُ صغيراً ، وكنا نعيش مفترقين ، ما كنتُ افكر فيـك إلا حـين اكتب اليك ، واحياناً في المساء عندما آوي الى فراشي ؛ اما الآن فاود بشوق ان اراك » .

راح كوستال يبحث عن الرسالة في جيوبه ليقرأ هذه الجملة مـن جديد ، مع انها من الرسائل التي اصبحت اليوم عادية ، تصل في حينها بدقة . اما في ما مضى ، فلم يكن برونيه يكتب الى ابيه إلّا بصعوبة وبعـد تردد طويل . وكانت رسائله آنئـذٍ مضحكة بهامشها الكبير ، وسطورها المرسومة بالقلم الرصاص .

كان كوستـال يكره الاقامة الطويلة مـع شخص آخر ، كما يكره بعضهم الانفراد ، غير انـه قـال في نفسه : « اذا شاء المرء ان يُسعد احداً ، فلنيفعل فوراً . أما كان يجب عليّ ان آخذه معي الى باريس في عيد الفصح ؟ » وقال ايضاً : « من البلاهة ان نقول مـع القائلـين : لا معنى للحياة ، ما دام في وسعنا ان نسعد من نحب ، وان نتغذى مـن

هذه السعادة ... »

وفكّر طويلاً بما حلّ بابنه من الهزال ، سواءٌ أكان حقيقياً ام وهمياً ، فساوره القلق . ثم انتقل فكره الى سعادة برونيه ، الى قيمته ، الى مستقبله ، فاحس انه حيال هذا المستقبل يشبه مصارعاً متردداً امام خصمه ، لا يدري كيف يقبض عليه . فهو يعلم انه غريب الاطوار وان آراءه في الحياة ليست صحيحة إلا بالنسبة اليه وحده . وقد اصبح ابنه المحك الذي يساعده على التمييز بين ما يحسبه صالحاً ، وما هو صالح بالفعل للجميع ، وما هو صالح للذين يحبهم وحسب . وهكذا اضطر الى ضبط احكامه ، والى التدقيق في اصدارها ، ثم الى اعادة النظر فيها . فشرع يقول ، مثلاً : « ان معرفة اللغة اللاتينية ضرورة بالنسبة اليّ . فهل هي ضرورة ايضاً لبرونيه ؟ اذا اجبت : نعم ، فلا بد من السؤال : لماذا هي ضرورة له ؟ »

وفي هذه الغمرة من القلق كتب في مذكراته يوماً ، وهو جالس على حجر بين الثلوج :

« قالت القديسة تيريز عن الشيطان : « ما اشقاه ، لأنه لا يحب ! » وهذا امر بديهي ، فالرجل الذي لم يقدم في حياته باقة من البنفسج لاحدى النساء ، ولم ينتزع طوابع البريد عن رسالة واردة اليه من الخارج ليعطيها الى احد الاولاد ، يشعر دائماً بان حياته تفتقر الى شيء . لكن لا بد لنا من القول ايضاً : « ما أشقاه ، لأنه يحب ! » فحيث يكون الحب ، (ولا نعني بالحب هنا سوى المودّة والعطف) ، فلا وجود للحرية ، ولا للسلام ، ولا للحياة المرحة الهانئة . اذا افلس الرجل ، او حلّ به ما يلطخ شرفه ، فانه يواجه مصيبته بصبر وقوة اذا كان قلبه خالياً من الحب ؛ اما اذا كانت له زوجة وابناء يحبهم ، فمن شأن افلاسه او فقدان شرفه ان يجعلاه في لجة من العذاب . واذا أشرف المرء على الموت فانه يواجه مصيره برباطة جأش اذا كان خلياً ؛ اما اذا

كان له اشخاص من اهله يحبهم ، فان رباطة جأشه تتفتت وتتلاشى حين يفكّر بانه سيفقدهم الى الابد ، وحين يساوره القلق على مستقبلهم بعد وفاته . فالحب يسمّ الحياة ، والحب ينهش الانسان ويقرصه . ولا بد من الاشارة مرة اخرى الى اننا لا نعني بالحب هنا سوى المودّة والتعاطف بين الازواج ، او بين الاهل .

« لا وجود للحكمة الفلسفية في نفس من يحب ، ولا وجود للحكماء إلا بين الانانيين .

« يقول المسيحيون : « الله حب محض » . وفي وسع الكافر ان يجيب : « لو أراد الله أن يحب لأصبح ضعيفاً ومنوطاً بمن يحب . وفي مثل هذه الحال يفقد ألوهيته . فالاله الذي يحب هو عبد رقيق ، أفنستطيع أن نتصوّر إلهاً عبداً رقيقاً ؟ انظر الى ابتسامة بوذا [1] ، ثم احذر ان تتحدث عن حبه للبشر . فهذه الابتسامة المشرقة لا تتألق إلا على وجه من لا يحب .

« لكن ، اذا كان اللاحب هو حرية الروح والفكر ، فلا ريب في ان القلق الناجم عن الحب يقوّي احياناً الروح والفكر وينعشهما . فالعناية بصحة الشخص المحبوب ، والعمل على إسعاده ، والسعي لصيانة قدره ، من حين الى آخر ، لا باستمرار ، هي جميعاً من الاعمال التي تسيل الى داخل المرء كالاسمنت المذاب ، فتسد الثلمات ، وترأب الصدوع ، وتوحّد العناصر المتفرقة ، وتكسب المرء الانسجام ثم القوة والمتانة . انها توحّد حياة أشخاص متفرقين ، شأنها في ذلك شأن حب الأرامل لأبنائهن ، فتخلق

---

١ - اسمه الحقيقي ساكياموني ، ولفظة بوذا لقبه ، وهي تعني « الحكيم » باللغة الهندية . اسس مذهب البوذية فنقض به تقاليد البراهمة في القرن الخامس قبل الميلاد . ومن مبادىء هذا المذهب ان الحياة عذاب ، وان العذاب ناجم عن الشهوة ، فلا سبيل للمرء الى التحرر إلا بنكران الذات حتى التلاشي في ذات الله . عدد البوذيين في العالم حوالى ٥٠٠ مليون نسمة .

الوجود المكتمل .

« الوجود المكتمل ، أجل !

« اننا نحظى به حين نحصر اهتمامنا في من نحب . وهو يستطيع أن يكفينا ، وأن يشغل أيامنا ، لولا تلك الشريعة القاسية ، شريعة « الفن ضد الحب » ، التي تفرض نفسها على جميع أنواع الحب ، لا على الحب الجنسي وحده .

« لم أصطدم بهذه الشريعة إلا يوم أحببت سولانج وبعض النساء الاخريات . لم أعطِ ابني أفضل ما في حياتي ، لأني كرّست هذه الحياة لفني ، وهذا ما يبعث في نفسي اضطراباً يبلغ أحياناً حدود القنوط .

« وربما سأل سائل : أيمكن تكريس حياة كاملة للتفكير بشخص واحد ، وللسعي الى خيره وحده ؟

« وأنا الذي يجتنب كثرة اللقاء بابنه ليتنفس الصعداء حين يبتعد عنه ، ويبتعد عنه ليشتهي لقاءه ، ولينتظر عودته اليه ... انا الذي بذل جهوده كيلا يصبح حبه في نفسه عادة مستحكة ، وكيلا يسيطر هذا الحب عليه ، يجيب الآن : بلى ، يمكن تكريس الحياة لشخص واحد ، وما هو المانع الذي يحول دون هذا التكريس ؟

« أتخيل بوضوح انه كان بوسعي ان أنذر نفسي ، منذ عشر سنوات ، لتربية ابني ، ولتثقيفه على أيدي الاختصاصيين ، فهذه وحدها تربية بالمعنى الصحيح ، فأكون قد أحببته بما في الحب من المعنى السامي الجميل .

« كان عليّ أن أختار بين أمرين : أن أبني رجلاً ، أو أن أبني انتاجاً أدبياً ، فاخترت الانتاج الأدبي . وقبلي هجر روسو[1] أبناءه ليضع

---

[1] ـ جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) اديب فرنسي مرهف الشعور ، واسع =

كتاباً يعالج فيه شؤون الأبناء .

« الآباء العاديون يبتعدون عن أبنائهم سعياً وراء المال ، أو لادعائهم بالتفوق على تفاهات الصغار ، أو ليلعبوا بالورق . أما أنا فقد أبعدني فني عن ولدي ، وعن حبه ، وعن الاهتمام بتربيته ، فجعلني أخونه ، وأرجيء دائماً الى الغد مشاريع الاهتمام به .

« غير اني أحس أحياناً ان هـذا الابن يبعثر جهودي وامكاناتي ، ويكرهني على تكريس وقتي لما هو فانٍ ، بينما تأمرني فطرتي بالانصراف كلياً الى ما هو خالد . فكل فنّان جدير بهـذا الاسم يعمل كأن الخلود مكتوب لانتاجه .

« وهـا انا كالمحيط في محاذاة الشاطىء ، تارة يتقدم ابـني في حياتي ويحتل بقعة جديدة منها ، وطوراً يتراجع . أفليست هذه الحركة طبيعية في كل نوع من أنواع الحب ؟

« أيجوز لي التذمر من هذا الواقع ؟ مـا أروع النشوة الـتي يغنمها المرء على هذه المياه المتحركة ، فهو في مثل هـذه الحال لا ينضب ، ولا يتقيد باصفاد الولاء ، ولا ييأس كما يفعل الآخرون !

« وليس التناقض بـين الفن والحب إلا حالة راهنـة من تناقض كل شيء في الكون . فمـن أراد العمل بعمق وقوة لا يستطيع — اذا كان مثلي — أن يخلق ، وأن ينمي مواهبـه ، وأن يبحث عن المغامرات ، وأن يسعى الى المجد ، وأن يحب . فالقيام بكلٍّ من هذه الأعمال يؤدي حتماً الى خيانة الأعمال الأخرى .

= الخيال ، آمن بصلاح الطبيعة البشرية وبفساد المجتمع ، فدعا الى اتباع الطبيعة في مختلف شؤون الحياة . اشهر مؤلفاته : « العقد الاجتماعي » ، و « هيلوئيز الجديدة » ، و « اعترافات » ، و « اميل ، او في التربية » . يعتبر رائد الحركة الرومنطيقية ، واحد العوامل الكبيرة في نشوب الثورة الفرنسية .

« ... ليس صوت النسب والدم هو الذي يرتفع في نفسي حين احب ابني ، او بالحري ليس صوت النسب والدم وحده هو الذي يرتفع في هذه المناسبة ، فلو ارتفع وحده لما استطاع ان يكفيني . اعطتني الطبيعة هذا الابن في احوال معينة ، فكنت قادراً على التخلي عنه ، لو شئت ، كما تخليت عن ف[1] ...

« جادت به علي الطبيعة ، إلا اني اخترته ايضاً . ولم احببه وحسب ، بل اردت ان احبه . اردت ان احبه كما يريد المسيحي (الذكي) ان يؤمن .

« يوم كان طفلاً غامضاً راهنت عليه ، راهنت على انه سيكون جديراً بحبي له ، وبالوقت الذي انتزعه هذا الحب من حياتي ... »

هكذا كان كوستال يفكّر محاطاً بجمال الطبيعة الذي يبدو تافهاً في نظر من يرى نفساً بشرية . وكان يبتسم ساخراً كلما خطرت في باله احاديث زملائه الكتّاب عن « انفراده » .

أيكون منفرداً لاعراضه عن مخالطة اولئك الناس ، وهو الذي لم تمرّ فترة من حياته إلا كانت نفسه فيها مفعمة بحب شخص ما ؟ وهو الذي كان وجوده حباً مستمراً ، كما هي الحياة طريق الى الموت ؟

أمنفرد هو حقاً ؟

اجل ، في بعض الاحيان . إلا أن عزلته تشع بالمودّة والعطف اللذين يجود بهما ، كما تشع هذه الشمس المنعشة على الثلوج فوق قمم الجبال المنعزلة .

---

١ ـ ابن آخر غير شرعي رفض كوستال الاعتراف به . ـ المؤلف .

١٦

كان يلتقيها كل يوم احـد مساءً في القطـار ، وهي عائدة من بيت عمتها شارلوت . فخاطبها مرةً واخبرها من هو ، ثم صارحها بانها استرعت انتباهه ، وطلب اليهـا السماح له بمراسلتهـا ، وصحبها حتى وصلت الى منزلها .

وكتب اليها مرات عديدة ، فرأت ان كتابته حسنـة ، واغتبطت برسائله ، إلا ان غبطتها كانت تتلاشى يوم الاحد كلما التقته مساءً ، لان فتى « احلامها » كان اوفر منه وسامة وجمالاً .

واخيراً طلب يدها . ولم تكن اهمية طلبه قائمة عليه شخصياً ، بل على دار جميلة كان يستطيع استئجارها والاقامة فيها ... فكانت هـذه الدار اهم سبب لقبول طلبه .

وفي ذلك المساء جلس في القطار الى جانبها ، عوضاً عن ان يجلس قبالتها كعادته . وبعد أن سألها أتستنكر جرأته ، قبّل جبهتها ، فما احست بشيء ، ما احست بشيء اطلاقـاً . غير انهـا لم تضطرب ، ولم تتحرك . فقال لها :

— ألا تقبليني ؟

وبدت على ملامحه الخيبة والكآبـة ، فادارت وجهها اليـه ، وأدنت منه شفتيها ، ولم يبقَ عليهـا إلّا أن تخطو الخطوة الحاسمة وتبوسه . لكنها احجمت في اللحظة الاخـيرة واشاحت عنـه . وكانت يداها

مطروحتين على ركبتيها بلا حراك كالحيوانات الكسولة التي تعيش في قاع البحر ، ثم بكت وراحت تذرف الدموع ، اذ أن البكاء لم يكن صعباً عليها .

كلما تذكرت السيدة دنديو هذه الحادثة كانت تظن أن السيد دنديو تأثر جداً في تلك اللحظة فاصفرّ وجهه . إلا أن هذا الظن لم يكن يخلو من المبالغة ، فكل ما في الامر أن موقف السيد دنديو منها لم يكن يختلف عن موقف جميع الرجال في مثل موقفه ، اي انه انتقل الى المقعد المقابل للفتاة الباكية ، وطفق يقول لها كلمات مبتذلة معتذراً اليها .

ثم افترقا .

وفي اليوم التالي كتب اليها : « فهمتُ كل شيء ، انك لا تحبينني » . وعدل عن طلب يدها ، فبكت ، وخيّل اليها انها كانت قد احرزت السعادة ، ثم فقدتها .

والحقيقة انها لم تكن بحاجة الى هذا الرجل ، بل الى رسائله ، الى هذه الرسائل الرقيقة ، الناعمة ، المفعمة بالاحترام !

ولم تكن تنتظره هو ، بل كانت تنتظر البريد . لذلك مرّت بمرحلتين متساويتين بالعزة والكرامة على الصعيد التقليدي : ففي المرحلة الاولى نظمت اشعاراً ، وفي المرحلة الثانية فزعت الى الدين المسيحي ، وغرقت في الورع والتقوى الى اذنيها .

ولما بدأت تهدّد بالذهاب الى الدير ، هرع ابوها الى آل دنديو يستنجدهم ، فتشاوف شارل دنديو في بادىء الامر ، وقال انه لا يحب المتظاهرات بالزهد والقداسة ، لكن الدنانير الذهبية التي وعد بها والد الفتاة الحمقاء لم تكن على شيء من الحماقة . وبعد اسابيع قليلة ازداد عدد الازواج في العالم ، واتحد رنتنتان ونينيت الى الابد .

ذهب شبابها هدراً ، وخلت حياتها الزوجية من المتعة والرواء .

والانسان بطبيعته يحتاج الى الحب لأنه يجني منه القسم الاكبر من الغذاء الضروري له . فـــاذا خلت حياته من كل شيء إلا من حبه لأبنائه ، باتت في نظره حياةً مملة ، لها من هذا الحب ما يبرر وجودها .

ولا يشعر المرء بحبه شعوراً عميقاً طاغياً إلا في الفترة العصيبة الـتي لا مفرّ منها : فترة الموت . ففي هذه الفترة تبدو له القضايا الكبيرة التي شغلته ، كما يبـدو له طموحه ، وادعاؤه ، و « رسالته » — اذا كانت له رسالة — وكل ما بنى وشيّد ، هباءً تافهاً عديم الاهمية . اما حبه وهدف هذا الحب فيبدوان بعيدين كل البعد عن التفاهة . ويثبت هــذا الشعور بقوة هائـلة أمـام القضاء المحتوم ، بينما تنهـــار حوله أعمــدة هيـكل الحيــاة .

وكانت السيدة دنديو تحب ابنتها ، فأنقذها هذا الحب .

لو وضعنا لأنواع الحب تراتبـاً ، لجاء حب الأب لابنه في الطليعة ، ولا ريب ، اذا افترضنا جدلاً ان هــذا الحب موجود . لكن الحقيقة ان لا وجود له ، فالرجل كثير الأشغال ، فضلاً عـن كونه غليظ الشعور ، واذا اهتم بابنه أحياناً ، كان اهتمامه بـه سطحياً عابراً ، فيه كثير من اللامبالاة وشرود الفكر .

لا يحب الصبيان حبـاً حقيقياً إلا المربّي النابـه الذي يعتبر مهمتـه رسالة مقدسة ، واللوّاط الأصيل الذي لا تخلو شهوته من العاطفة . لذلك أصبح حب الأم لابنتها اكمل أنواع الحب بين شخصين متحابّين .

●

أفاقت السيدة دنديو من نومها للمرة الثالثة في تلك الليلة . وما كاد وعيها يتملص من غياهب النوم حتى قفزت فوراً الى ابنتها ، كأن لها في هــذه الابنة حق المحتل الاول الذي لا بـد من اظهـاره والمحافظة عليه .

إلا ان هــذا الوعي لم يكن كاملاً ، فقــد اعتراه اضطراب شبيـه

باضطراب المياه في نقطة اللقاء بين البحر والنهر ، حيث تختلط الحركات ويشتد الصراع بين مغامرتين رهيبتين لا تقل احداهما عن الأخرى قوة وطغياناً ، وهما : مغامرة النوم ، ومغامرة اليقظة .

وكان قلبها يخفق بقوة خفقَ قلبٍ مريض . وقد تبادرت الى ذهنها ذكريات عائلية قديمة عثرت على آثارها في خزانتها منذ ايام ، فتجددت صورها . وما استطاعت السيدة دنديو ، حيال هذه الصور ، إلا أن تدع الدموع تنفر من عينيها ، لأنها تذكرت ما عانته في حياتها من الحرمان ووحشة الانفراد ، وأدركت ان هذه الذكريات تنذرها بان مصير ابنتها لن يختلف عن مصيرها .

ومما زادها غماً انها صرفت يومها السابق في جوٍّ يخلق الشعور بالنقص ، فقد ذهبت الى المزّين ، واحتملت براعته زمناً طويلاً لتخرج من بين يديه غير راضية عن التسريحة التي ابتكرها لها ؛ ثم عرّجت على الخياطة لتجرب ثوباً رخيصاً لم يعجبها . وقد تراكمت المرارة في نفسها حتى غدت مزيجاً لزجاً كالوحل . ومن هذا المزيج انبثق ظن عجيب ، يشبه اليقين ، لكنه غير محتمل ... فقد خيّل الى السيدة دنديو ان ابنتها غادرت البيت وسافرت !

سافرت ؟ الى أين ؟ لماذا ؟

منذ حين ، في نهاية السهرة ، تعانقت المرأتان قبل أن تذهب كلٌّ منها الى سريرها ، فقالت السيدة دنديو لسولانج :

— اذا عرقتِ هذه الليلة وأردت أن تبدّلي ثيابك فاستدعيني ، لأني أخشى أن يؤذيك البرد اذا بدّلت ثيابك وحدك .

وما كادت الأم تغط في النوم حتى خيّل اليها ان سولانج نهضت من سريرها ، وارتدت ثيابها ، وجمعت حوائجها بسرعة ، وخرجت من البيت ...

هبّت السيدة دنديو من فراشها مذعورة ، واشعلت الكهرباء ، ثم

انطلقت هائمة على وجهها صوب غرفة ابنتها . وفي اثنـاء الطريق رأت احد معاطف سولانج معلقاً ، فدنت منه ولثمته ، ثم دسّت فيه وجههـا لحظةً .

وكانت سولانج مستيقظة ، تعـاني الأرق ، وتصارع عيناها الظلام . وكان القليل من السعادة يكفي لتنام المرأتان ملء عيونها .

عرفت الابنة شكل أمها في العتمة ، ورأت هـذا الشكل يدنو من سريرها ويسألها :

– أنت هنا ؟

– لا ، يا أماه ، أنا لست هنا !

– حسبتك غادرتِ البيت وسافرتِ .

– سافرتُ ؟

– أجل ، رأيتك تنهضين من سريرك ، وترتدين ثيابك ، وتخرجين من البيت حاملةً حقيبتك .

– أمي ! ألا ترين انك تسيرين بخطى حثيثة الى الجنون ؟

– بلى ! اني مهدّدة بالجنون . دعيني أجثو قليلاً الى جانب سريرك دون أن أفوه بكلمة . يكفي أن أمد اليك يدي لأشعر بانك هنا .

وأشعلت الأم الكهرباء ، فسألتها سولانج :

– عجباً ! ما حاجتنا الى النور ؟

فابتسمت السيدة دنديو ابتسامة تشوبهـا الكآبة ، ثم قالت كأنها تخاطب نفسها :

– أجل ، أنت هنا . عرفتك الآن . أنت ابنتي الوحيدة .

– لا ريب في ذلك !

– لو كان أبوك حيـاً ، فما عساه يقول وهـو يرى غرفتك مضاءة في مثل هذه الساعة ؟ حين كنتُ أتابع القراءة الى ما بعد الساعة الحادية عشرة ، كان يأتي إليّ دائماً ويبادرني بقوله :

« – ألم تنامي بعد ؟

« وبما انك مستيقظة ، يا ابنتي ، فافسحي لي في مكان صغير الى جانبك . فاني أودّ أن أنعم بقليل من الدفء .

– تعلمين اني لا أملك من الدفء ما يكفيني .

– لا أريد دفئاً ، بل أحب أن أكون الى جانبك .

وجلست على السرير ، ثم سألت :

– أمستيقظة أنت منذ فترة طويلة ؟

– لا أستطيع تحديد اوقات يقظتي ، فقد استيقظت مرة في منتصف الليل ، ومرةً ثانية في الساعة الثانية ، ومرةً ثالثة الآن .

– أنا أيضاً استيقظت في هذه الاوقات . وقد لاحظتُ اننا نستيقظ معاً في أغلب الأحيان ، فيا للعجب !

وبعد سكوت استطردت الأم قائلة :

– ألا تشعرين بألم في مكانٍ ما من جسمك !

– لا ! اني بخير . لماذا تبحثين عن القلق لتعذبي نفسك ليل نهار ؟ منذ قليل خُيّل اليك اني سافرت ، وها أنت تتوهمين اني أتألم في مكانٍ ما من جسدي !

– كان أبوك يقول ان الناس يصبحون في غمرة من الرعب اذا تصوّر كلٌّ منهم ان الذين يحبهم يهلكون في حادث تدهور ؛ امـا أنا فاعتقد ان من يحب شخصاً ما يتصوّره دائماً في خطر ، واذا زال هذا التصوّر فلا ريب في ان الحب يكون قد خفّ .

ومدّت يدها تحت ذراع ابنتها ، ثم جعلت تلامس الاماكن العرقانة من جسم سولانج . وكان العرق (وهو ناجم عن الضعف) قد اخترق قميص النوم ، واستنقع كالرطوبة في ثنايا الارض المنخفضة التي لا يصل اليها نور الشمس ابداً . ونظرت الى الشرايين الظاهرة في معصم الفتاة ، فاذا هي كشرايين امها تماماً ، كأنها نُقلت عنها . ثم مدت يدها الاخرى

الى جبين سولانج كأنها تريد أن تطرد منــه ارواح الشر ، وهي تقول في نفسها : « لم تخطر في هذا الرأس ، ولن تخطر ابداً ، فكرة واحدة تسيء اليّ ! »

وكانت سولانج ، بوجهها وجسدها ، أعز مــا في العــالم على قلب امها ، إلا انها جعلت كوستال يتثاءب سأماً لوجودها الى جانبه ، وهي الفتاة التي يمر بها الوف من الرجال والنساء في الشارع فلا يبالون بهــا ، والــتي يمكن أن يشتهيها بعض الرجال حتى الجنون دون أن يحبوا روحها . كانت كل شيء ولا شيء ، وكانت عظيمــة السلطان وعاجزة عزلاء من السلاح .

اعتادت سولانج أن تنام فاتحة فاها كجميع العرب وكالسواد الاعظم من الاسبــان ، فعرفت السيدة دنديو طرف الغطاء الذي كان على فم ابنتها من رطوبته ، فدسّت وجهها فيه مرسلةً انيناً خافتاً .

ربما كانت امرأة ساذجة كبنات الريف ، او بغلة ، إلا انها بلغت في تلك اللحظة ذروة ما فيها من القوة ومن الشعور القيّم .

وجعلت سولانج تنظر مشفقةً الى ذلك الوجــه المتورّم من النوم ، وقد اتسعت فيه الغضون تحت العينين ، واستطالت كالأخاديد التي تمتــد تحت عيني الببغاء ، او كثنايا المخدّة التي تركت اثرهــا ظاهراً في هذا الوجه كأنها جلدته ودمغت تجاعيده بطابعها .

وكانت ملامح السيدة دنديو في تلك اللحظة تعبّر عن النهم والعياء معاً . وكثيراً ما يتخذ الوجه قناع الموت بعد احتدام الشهوة وارتوائها . ولا بد من الملاحظة أن حنــان الام ايضــاً يتخذ هذا القناع في بعض الاحيان .

وبعد قليل ، القت السيدة دنديو رأسها على المخــدة الكبيرة ، وكان رأس ابنتها على المخدة الصغيرة ، فساد الصمت برهــة ، ثم قالت الأم : « يا حبيبتي الصغيرة ... أبحاجة انا الى الشرح حين اقول لك يا حبيبتي

الصغيرة ؟ »

وانتظرت هنيهة ، ثم بدأت تنحدر من الذروة التي رفعها اليها الحب حتى بلغت الحضيض ، فقالت وهي تنظر الى سقف الغرفة :

– ارى خطأ في لصق الورق على الجدران [1] . ولو كان ابوك هو الذي قامَ بهذا العمل لما ارتكب هذا الخطأ . ربما كان كيت او كان كذا ، إلّا انـه لم يكن له مثيل في لصق الورق على الجدران . ففي ليموج لصق يوماً ورقة في قاعة الاستقبال امتدت على الحائط كله ، ولم يحدث فيها اقل خدش .

ما تحدثت السيدة دنديو مرة الى ابنتها دون أن تقول لهـا : « ابوك » ، و « كان ابوك » ، و « قال ابوك » ... دائماً « ابوك ! » ففي حياته ، كان في نظرهـا لا شيء ؛ امـا بعد وفاته ، فقـد اصبح محور الحديث ، حيناً لانتقاده ، طبعاً ، وللثناء عليه في اغلب الاحيان .

واخذت السيـدة دنديو يـد ابنتها ورفعتها ، فارتفع معهـا المعصم ، وتلاصق المعصمان : معصم الام ومعصم الابنـة ، وراحا يترجحان بلطف وكآبة . ثم قالت السيدة دنديو :

– ليت الحيـــاة تمر كلها هكذا ! فابقى مستلقية الى جانبك ، لا اتحرك ، ولا احتاج الى مغادرة البيت ، ولا اهمّ باعداد الطعام . مررت امس بالخياطة جانين ... ما اغرب حالي ! فكلما تقدمت في السن تقل قدرتي على اختيار الاشياء الموافقة . كنت في مـا مضى ابلغ غايتي من الاناقة بالاشياء القليلة والبسيطة . واذكر اني عام ١٩١٦ ارتديت صدرة من الحرير الازرق استرعت انتباه الجميع بجمالها ، وكان يملأني الشعور بالفخر كلما سألني الناس : « من اين اشتريت هذه الصدرة ؟ » واذكر

---

[1] – لصق هذا الورق على اثر وفـاة السيد دنديو ، وكان من جملة التحسينات التي اجريت في المنزل . – المؤلف .

ايضاً فيض السرور الذي غمرني لما سألني كاهن بلدة « بونتورسون » أأقيم في باريس ، لاني كنت مرتدية تلك الصدرة . ومـا اجمل أن ترى المرأة الناس يحسبونها باريسية وإن تكن غير متبرجة !

والقت رأسها على كتف سولانج مرسلة انينها الخافت المعهود . وكان هـذا الرأس يرتفع قليلاً كلما تنفّست كسفينة يلاعبهـا تنفس البحر الهادىء . وفي صدر الغرفـة ، الى جانب المدفأة ، كانت القطتان : الام وابنتها ، نائمتين ايضاً ، ومتعاقدتي القوائم ...

ومزقت السيدة دنديو السكوت قائلة :

– اود لو افديك بحياتي !

– وما الفائدة من هذا الفداء ، يا اماه ؟

– لا استطيع التفكير بان هذا الخنزير يصطاد الغزلان في جبال الاطلس [1] ، بينما انت ...

– لماذا تصفينه الآن بالخنزير ؟ فمنذ ثلاثة اسابيع قلتِ انه « بعير لطيف » ، وهذا افضل .

– اقول انه خنزير لأنه يعذب ابنتي الحبيبة .

– دعينا من هذا الحديث ...

– امس ، بعد الظهر ، كنت ابحث عن سجف لستائر النوافذ في خزانتنا النورمندية ، فرحت افتح ما فيها من العلب . وكم وجدت فيها من الاشياء التي تثـير الشجن ! وجدت خاتم خطبة جدتك ، وطرحة عرسي ، وسنّك الاولى ... وكانت دهشتي الكبرى لما عثرت على ثيابك

---

١ – وهل في جبال الاطلس غزلان ؟ – المؤلف .

وقد طرح المؤلف هذا السؤال الزاخر بالهزء والسخرية امعاناً منـه في اظهار جهل السيدة دنديو ، لان نوع الغزلان الذي ذكرته : Isard ، لا يوجد إلا في جبال البرانس .

وانت طفلة . فقد كنتِ في حجم القنينة لما وُلدتِ ، بحجم قنينة عادية سعتهـا ليتر واحد . وكان ابوك يقول : « ما علينا إلا أن نسميها برغوثة ، برغوثة دنديو ... » وقد اضطررنا للذهاب الى محلّ لبيع الدمى لنشتري لك ثياباً . هل رويتِ هذه الحكاية له ... لصيّاد الغزلان ؟

— نعم .

— وماذا قال ؟

— لا شيء[1] .

— لا يدهشني منه هذا التصلب ، فاهل الجنوب خالون من العاطفة . واني اتذكر دائماً يوم عمادتك ، فقد احتفلنا بها احتفالاً كبيراً ، وانصرف المدعوون الى الشراب وتناول الطعام والمرح ، ونسيني الجميع وحيدةً في سريري ، فبكيت بمرارة ، اذ لم يفكر احـد بان يرسل اليّ كأساً من المرطبات ! ثم ارسلت الخادمة لتشتري لي زجاجـة شمبانيا من السوق كيلا اطلب شيئاً من أبيك . وبعد قليل صعد الى غرفتي ، فرآني مبللة الوجه بالدموع ، فقال لي : « حقاً انك في منتهى الغباء ! لم يأتِ احـد اليك لاننا حسبناك نائمـة » . ويوم مجيئك الى هـــذا العالم ايضاً اهملني الجميع كأني كلبـة جرباء . وأبت جدتك ان تتحرك مـن بيتها لان الثلج كان يكسو المدينة . وكان هذا عذراً مردوداً لم يقنعني . وكان ابوك يقول : « سيتم كل شيء على مـا يرام » . وما ادراه بمـا سيكون ليفوه بمثل هـــذه الكلمات ؟ اني اسألك ، فاجيبي ! ولمـا وصلت عمتـك شارلوت ...

وصمتت السيدة دنديو فجأة كعلبة الموسيقى اذ يطرأ عليهـا عطل

---

[1] ـ اجابها كوستال : « ارى انك كنت دمية تمشي » . ـ المؤلف .
وقد كتب لفظة : تمشي ، بخط مائل للدلالة على انه يعني بها التساهل في معاشرة الرجال . وهذا تعبير تستعمله العامة في فرنسا .

فتخرس في منتصف النشيد الذي كان يخرج منها . ثم سألت ابنتها :

– هل نمتِ ؟

فلم تسمع جواباً . فاشعلت الكهرباء ، ورأت سولانج نائمة ، وقد انساب قليل من اللعاب على جانب فمها . فبينما كانت امها شاردة في فيافي اخبارها ، دهمها النوم ولامس وجهها بقوائم غزلانه الرشيقة .

ما اعظم الليل الساجي على العالم ! وما اروع صمت الارض عندما ينظر المرء الى وجه الحبيب النائم !

على من يرهقه الفضول ، ويريد أن يجد مفتاحاً لاسرارِ الطبيعة ، ان يتجه الى الحنان البشري ، فيجد فيه منتهى القلق والاضطراب ، ومنتهى الطمأنينة والراحة .

كانت السيدة دنديو ترتاح في سولانج ، كما يرتاح كوستال في ابنه بعد جولاته الواسعة وتشرّده الاهوج الطويل . وعلى هذا الصعيد ، لم يبقَ اقل فرق بين كوستال والسيدة دنديو . ولو اكتشف هذه الحقيقة لابتسم لام سولانج من فوق الحاجز القائم بينهما . إلا أن كلاً منهما كان يبحث عن الآخر في اماكن بعيدة على غير هذا الصعيد . فالنغمان المنطلقان من حنانيهما كانا يتلاحقان ، ويتقاربان ، ويجري احدهما الى جانب الآخر ، لكنهما لا يلتقيان ابداً .

ونظرت السيدة دنديو الى يدي سولانج ، فاذا هما هزيلتان لا تزيدان حجماً على الرسغين كايدي القرود . وانتقل فكر الام فوراً الى يديها هي ، فخطر في بالها ان تجمعهما ، وان تصلي : « يا الهي ! اجعل ابنتي تنجو من هذا المأزق » . الا انها قامت بحركة لاشعورية آلية صرفاً ، بقوة ما يقال عن حلول الحب في مكان الحبيب متى بلغ منه القلق ذروته ، فجمعت يدي سولانج للصلاة عوضاً عن أن تجمع يديها . وكانت هذه بادرة جديرة بالدرس والتوضيح .

وما إن رأت يدي ابنتها مجموعتين على صدرها حتى خيل اليها انها

ماتت ، فوضعت يدها على صدرها لتشعر بحركة التنفس فيه ، ثم اطفأت النور ، والقت رأسها من جديد على المخدة الكبيرة .

وكانت سولانج قد سمعت منها مائة مرة هذه الحكايات : حكاية ثياب الدمية ، وحجم القنينة ، وزجاجة الشمبانيا ، والجدة التي ابت ان تتحرك من منزلها خوفاً من الثلج ، ومع ذلك ، فلما اغفت والسيدة دنديو تخاطبها ، اتخذ اغفاؤها في ذهن الام المضطربة معنى مخيفاً ، فراحت تقول في نفسها : « اجل ، لم اكن واهمة ، فقد غادرت ابنتي هذا البيت وسافرت ... وها انا مهملة ومهجورة من جديد ! »

ولم تعد تفكر بالقاء رأسها على كتف ابنتها كما فعلت منذ قليل لئلا توقظها ، على الرغم من رغبتها الشديدة في أن تستيقظ سولانج لعلها « تعود » .

وبذلت جهداً كبيراً كيلا توقظها . وبعد دقائق فكّرت بالدموع التي ذرفتها منذ ساعة ، واقامت تنتظر ، ثم جاش الألم في صدرها ، فاغرورقت عيناها ، وانهمرت منها الدموع في صمت ثقيل .

١٧

خلال شهري شباط واذار ، عاش كوستال عيشة البدو ، وانصرف الى الصيـد في ضواحي فاس . وثمـة مثـل عربي يقول : « المسافر المنفرد شيطان » . إلا انه قديس ايضاً . ولا ريب في ان انفراد الكاتب مـدة طويلة ، والتجارب التي مرّ بها ، والوجوه والمشاهد التي رآها دون ان تترك في نفسه أثراً ، واذعانه للطبيعة المخيفة التي استسلم لها ، كانت كلها نوعاً فريداً من الرياضة الروحية .

وكان الدكتور لوبل يطلعه على احوال خديجة . فقـد أثبت فحص المادة المخاطية في أنفهـا مـا ذهب اليه مايبون ، فبوشر علاجهـا في تغرمت .

وذات يوم وجّهت اليه رسالة على يد صاحب مقهى في الدار البيضاء كيلا يعلم احد انها تكتب الى رجل فرنسي ، فبدأت رسالتها هكذا : « أكتب اليك لأعلمك ان صحتي جيـدة » . ثم انتقلت الى مواضيع اخرى .

اما كوستال فكان يكتب باستمرار الى سولانج ، لأنـه كان يودّ أن يخفف آلامها قدر المستطاع . فكان يناقض بهذا السلوك القسم الاكبر من الرجال المستعدين أبـداً لتخفيف جميع الآلام ما عدا التي يسببونها . وكانت غايته القصوى أن يساعدها على الهبوط ، بهدوء وسلام ، من حالق حبهـا الى ارض ساكنة ، سويّة ، تبدأ عليهـا حياةٌ جديدة ، فتخطب

رجلاً آخر ، وتتزوج به . ويكون هذا الرجل المهندس الشاب توماسي ، ولا ريب .

لم يشأ اطلاعها على الحقيقة لاعتقاده انها تعجز عن احتمالها ، فراح يحاول ايهامها بانه ما برح يعطف عليها ، على الرغم من تلاشي هذا العطف كلياً من نفسه ، وهذا ما يسميه الناس عادةً : الامانة ، والولاء .

كثيراً ما يكتب البعض الى الفتاة المهجورة : « ان اعظم برهان أعطيته عن متانة حبي لك هو انفصالي عنك » . لكن هذا الكلام دجل صارخ يُقدم الرجال عليه عمداً . وكانت من هذا الطراز أقوال كوستال لسولانج لما كان يكتب اليها : « ازداد حبي لك ازدياداً عظيماً بعد تحرره من تحديد يوم الزواج » ، أو : « ماذا أستطيع أن أفعل لأرضيك ؟ »

هذا التصرف شبيه بتقاليد القبائل المتوحشة التي تكرّم رؤوس الاعداء بعد فصلها عن أجساد أصحابها .

وحاول يوماً أن يوهمها بانه يتألم في المغرب ، فكتب اليها يقول : « يتعذر عليّ أن أجد هنا الأمان والحرية اللذين جئت أبحث عنهما لأنصرف الى عملي » . والحقيقة انه لم يكن يتألم إلا لاضطراره الى هذا التمثيل المنافق . فقد كانت هذه المهزلة ترهق أعصابه ، وأحياناً تثير سخطه على ما فيها من فظاعة الرياء .

وكان يجتهد لشحن رسائله بالعبارات اللطيفة الزاخرة بالعواطف الرقيقة ، فيخيّل اليه ان الورقة تكاد تتمزق تحت قلمه محتجّة على استعمال جمل تدل على الهوة العميقة التي تفصل بين الكلام المكتوب وحقيقة ما يعتلج في نفس الكاتب ، وكان هذا منتهى النفاق .

وفي نهاية رسائله ، كان خطه ينتعش ، نوعاً ما ، ويصبح رشيقاً ، مفعماً بالسرور كحصان في نهاية الشوط يشم رائحة الاصطبل . وذات

يوم ، غيّر ريشة قلمه ، فأصبحت عواطفه أوضح ، وأسرع بروزاً على الورق .

ومهما يكن من الامر ، فقد كانت هذه الرسائل من أشد كتاباته تأثيراً في النفس . وكان يضع مسوداتها في ملف خاص تحت عنوان : « مزامير لتطبيق » ، مشيراً بذلك ، ولا ريب ، الى حفلات الزواج في أفريقيا الشمالية حيث يطرب المحتفلون على أنغام المزامير . ومن المعروف ان أجمل رسائل الحب هي التي لا تكتب بصدق واخلاص . فلا شيء في العالم أقل فصاحة من الحب الحقيقي .

لما كان برونيه يعانق أباه بحرارة ، ويغمره بالقبل سائلاً : « أتحبني أكثر مما كنت تحبني في السنة الماضية ؟ أتفكر بي كل يوم أم مرة كل يومين ؟ » كان كوستال يرتبك ، ولا يدري بمَ يجيب ، فيقول : « انك تعلم كم أحبك ، يا أبله ! » ويحس ان جوابه ليس على شيء من الحرارة المرجوة ، فيحاول أن يجد كلمات رقيقة ، ثم يقبل برونيه قائلاً له : « لم أجد في حياتي ولداً أشد بلاهة منك » .

بهذه الكلمات كان هذا الكاتب الشهير يعبر عن شعوره اذا أحب حباً عميقاً بكل قوى قلبه . اما اذا كان لا يحب فان الكلام يتدفق منه بغزارة كأنه يفيض من ينبوع . وقديماً قالت آثينا لعولس [1] : « ما

---

١ – آثينا ربة اسطورية يونانية ، والهة الفكر والفنون والعلوم والصناعة ، وابنة زفس . كان اليونانيون القدماء يعتقدون انها خرجت من دماغ ابيها مسلحة ، ومن اسمها اتخذ اسم العاصمة اليونانية .
وعولس شخصية خرافية يونانية ، ومن اشهر ابطال حصار طروادة . اشتهر بالحكمة والحيلة ، وهو من ابرز الاشخاص في اوذيسة هوميروس . اكتشف اخيل متخفياً بين بنات ملك ليكوميديا فأوسله الى حصار طروادة ، وأقام هو في مغارة العملاق بوليفام ذي العين الواحدة فسمل عينه ، ونجا من جنيات البحر بأعجوبة . ولما عاد الى بلاده كان اول من عرفه كلبه الامين .

أبرعك في الكذب ! »

وفي الجهد الذي كان يبـذله لكتابة رسائله لم يكن يصارع لامبالاته بسولانج وحسب ، بل كان يقاوم رغبته الكبيرة في إيذائها لمعاقبتها على اقامته فصلاً كاملاً في الجحيم الافريقي . وكم كان يعاني من الآلام لكبت هـذه الرغبة والعدول عن تحقيقها ، لأنه كان يبعدها عنـه كأنه يحملها مادّاً ذراعه ، فيرهقه عبئها ! وكم كان يتألم ايضاً كلما اندفع في سبيل الخير والاحسان ! ومتى اكتشف مؤرخو المستقبل ما فعل هذا الكاتب من الحسنات تلبية لنداء شيطان الخـير ، فانهم سيصنفونه ، ولا ريب ، بين القديسين ، أبطال الاسطورة الذهبية . وبما انه سيكون آنذاك في جهنم ، فسيصبح تطويبه أفظع عقاب يحلُّ به ، لأنه سيكتوي بنارين مرتين .

في أواخر نيسان عاد الى جبال الاطلس ، ونزل ضيفـاً على زعيم عشيرة عروان . وكان هـذا قصيرَ القامة ، ملتحياً ، قاسي الشعر ، يمشي كالدب ، كثير المرح ، معشاقاً شبِقاً ، يهاجم النساء ، ويعبد الكواكب والنار . والخلاصة ، انه كان من أبناء بلاد السباع مائة بالمائة .

وذات يوم ، بينما كان كوستال يغسل يديه قبل الغداء ، جمد فجأة في مكانه ، لا يأتي بحركة ، اذ رأى على معصمه الأيمن بقعة صغيرة تختلف كلياً عن بقعة خديجة لأنها عديمة اللون ، وحولها هالة سحباء .

تعرّى من ثيابه ، وفحص بدقة ما استطاع فحصه من أجزاء جسده على مرآة كان يحملها في السفر ، فما وجد شيئاً يثير الشبهة .

وأخذه العجب لأن وجهه لم يتغيّر . فكيف يكون المرء مجذوماً ولا يظهر على وجهه مـا يشير الى انـه مريض ؟ يا له مـن داء ماكر منافق !

وتعجب أيضاً لأنه لم يتـأثر . ثم قرر أن يذهب فوراً الى الدكتور لوبل لاجراء الفحص اللازم .

وفي اثناء تناول الطعام ، زعم انه نسي موعداً كبير الاهمية ، وانه مضطر للذهاب الى مراكش ، ثم طلب الى مضيفه دليلا وبغلاً يوصلانه الى سوق الاثنين الواقعة على مسافة ستة عشر كيلومتراً ، على امل ان يجد هناك سيارة تحمله الى المدينة .

ولما فرغ من تدبير هذا الامر ، أكل ، وشرب ، وتحدث ، ودخن ، وتجشأ حسب الاصول ، كأن شيئاً لم يكن ، فلا بد للحياة من متابعة سيرها الطبيعي .

كأن شيئاً لم يكن ؟

لا ! كان هذا ادعاء يختلف قليلا عن الحقيقة . والمرح المفاجىء الذي تظاهر به في حديثه مع مضيفه كان يدل على أن سروره ولامبالاته مصطنعان . وكانت هذه اول ردة فعل بدرت منه حيال الخطر الذي يهدده .

وبعد ساعتين كان على الطريق ، فراح يفكّر . وحتى تلك الساعة لم يكن قد وجد بعد متسعاً من الوقت للتفكير .

تذكر عبارة قرأها في كتاب الطب تقول : « تظهر البقع اولاً في الوجه ، وفي اطراف الاعضاء » . وقد حفظها عن ظهر قلب واشار اليها بخط رسمه تحتها .

وتبادر الى ذهنه انه لم يتصل بخديجة إلا منذ شهرين ، وان هذه المدة لا تكفي لظهور المرض فيه ، فاعتقد ان العدوى انتقلت اليه منذ سنتين في زيارته السابقة للمغرب ، وراح يقول في نفسه :

« لو لم يكن الانسان قادراً على الانتحار لكانت حالتي مأساة مفجعة لعجزي عن الخلاص من الآلام الجسدية حين تحلّ بي . اما الآن فاذا ساءت صحتي ، ويئست من الشفاء ، وازدادت آلامي ، ففي وسعي ان انتحر . وربما احتجت الى مسدسي الذي كنت اود أن اقدمه السيد دندير !

« لنفترض أن امامي اربع سنوات او ست سنوات من صفاء الفكر وسلامة العقل ، فهذه مدة لا بأس بها . ولا ريب في اني استطيع أن اعيش خلالها بأمان اذا نظمت حياتي بشيء من الحنكة وقوة الارادة . فالمهم في هذه المسألة ، اذاً ، ان انسف عملي لاوجد التوازن بين ملذاتي ، ما دمت قادراً على التمتع بها ، وبين عملي وما يجب عليّ نحو ابني .

« اما عملي فيجب ألّا انهيه بخاتمته الطبيعية ، بل بخاتمة تنسجم مع هذه المرحلة التي امرُّ بها الآن ، هذا اذا تمكنت من ادارة اعمالي بدراية . ومـن الضروري أن لا تأتي الخاتمة مناقضة لحقيقتي .

« اما برونيه فسيكون في العشرين مـن عمره عندما يوافيني الأجل ، وفي وسعه ان يتدبر اموره بوسائله الخاصة .

« الحق يقال ، ليست قضيتي مشكلة تثير القلق . يكفي أن اقتصد بوقتي اكثر ممـا فعلت حتى اليوم ليجري كل شيء على مـا يرام . ومـا عليّ إلا أن أصفّي نفسي بعنـاية ، وان انصرف الى تنقيتهـا بكل انتباه .

« كنت اقول ، كلمـا فكرت بالحرب المقبـلة : « يجب أن اسيطر على المرض » .

« من المؤلم ، طبعاً ، أن يموت المرء في الاربعين من العمر . لكن ، ألم يكن من المحتمل ان أُقتل في الحرب وانا في العشرين ؟ ألم يكن المحتمل ايضاً ان اموت مائة مرة بعد الحرب في المشكلات التي كثيراً ما تورطت فيها ؟

« جعل مني الجذام رجـــلاً محكوماً عليه بالموت ، إلا أن موعـد التنفيذ ليس اقرب من الموعد الذي كنت اتوقعه لو لم اكن مريضاً .

« ثم اني ارى ان هذا المرض هو نوع من التجديد لحيـاتي ، لانـه عنصر جديد في هذه الحياة . فحياتي خسرت من مداها الزمني ، غير انها ستربح في مجالات الشعور ، والتأملات ، والقـاء نظرة جديدة على

الكون ، ناهيك بانها بدأت تتطهر مما كان يرسب فيها من الرماد والنفايات ، على الرغم من الجهود التي بذلتها للخلاص من هذه الرواسب .

« الموت المفاجىء شيء حسن . والموت بعد ست سنوات لا بأس به ، ما دام يترك لي متسعاً من الوقت لانظر الى وراء . اما الشيء غير الحسن فهو الموت بعد شهرين ، لانهما شهران من الوعي العديم الفائدة ، ولا يكفيان ليتدبر المرء اموره .

« انها لتجربة مجدية ، حسّنتُ خلالها خبرتي في التجارب ، وكانت هذه الخبرة غير كافية . واراني بحاجة الى كل ما انطوي عليه من الامكانات الانسانية لاواجه ما ينتظرني .

« اما الموت في حد ذاته فلم يكن قط مشكلة . فليقلع المرشدون عن ازعاجنا باخبار الموت .

« ما الذي سيحل بنا بعد الموت ؟

« ان العقلاء لا يطرحون على نفوسهم هذا السؤال ، بل يقولون فعل الايمان ، او لا يقولونه ، وينتهي الامر . واذا افترضنا أن التفكير بالموت حاجة لا بد منها ، فاني سأفكّر به في الأيام الثمانية التي تسبق انتحاري .

« ان الرجل السليم العقل لا يفكر بالموت إلا حين يراه امام عينيه ، يكاد يلامس انفه . والاولاد يعتبرون الموت خرافة لا تأزف ساعتها ابداً . فعلينا أن نقتدي بالاولاد .

« كم كنت مصيباً في تحقيق القسم الاكبر من امانيّ ! كم كنت على حق في تنعمي بالحياة الى اقصى حد !

« كنت اعلم ، في اثناء الحرب ، اني معرّض للقتل ، او للتشويه ، او الشلل ، او للجنون ، بين دقيقة واخرى ، ومع ذلك كنت اغنم من الحرب نوعاً من السرور ، هذا اذا ألقيت نظرة شاملة على ايام الحرب

بجملتها ، لا في تفاصيلها » .

وأجال عينيه في ما حوله من الجبال والاودية والوهاد ، ثم قال :

« يا له من مشهد رمزي ! فوراني حياتي بما فيها من الحوادث والاشخاص كهذا الوادي الحي ، ووراء هذا الوادي ، في صدر اللوحة ، انتاجي الادبي شامخ كالجبل . وانا مسافر يحثه الليل على الاسراع » .

وكان بغله يتعثر ثم يستعيد توازنه على طريق وعرة خدّدتها حوافر الدواب ، ومُدّت فيها اعمدة خشبية ثُبّتت اطرافها في الصخور على الجانبين ، فامست شبيهة بالدرج . وكان يقود البغل رجل عجوز ، ابيض البشرة ، مستدير الرأس ، وخطه الشيب ، له ساقان هزيلتان ، وربلتان كربلتي صبي لم يراهق بعد ، بينما كان رجل آخر شاب ، ضخم كالغوريلّا ، يسير وراء البغل ، ويشده من ذنبه بكل ما أوتي من القوة . ولم يستطع الكاتب أن يعلم هل الغاية من شدّ ذنب البغل هي ايقافه ام حثه على السير . فبدا له أن ذروة الاتقان في فن السفر هي شد الدابة الى وراء والى امام معاً ، وان هذا الاسلوب البارع وحده يجعل البغل يتقدم على الطريق . فيا خالق العوالم ما اعظمك ! حقّاً ان اساليبك زاخرة باسرار لا تسبر غورها العقول ، ولا تدركها افهام البشر .

وكان الدليلان يحمسان نفسيهما بارسال صيحات فيها الكثير من الاحرف الصوتية ، تُسمع لها اصداء كلما مرّ الركب باحد منعطفات الطريق . اما المشاهد المحيطة بكوستال فقد ذكرته بالتصاوير التي تُزيّن بها الكتب ، حين يقول الناشر البخيل للمصوّر : « لا تستعمل في رسمها اكثر من ثلاثة ألوان » . فلون الارض كان وردياً مائلاً الى الاحمرار ، والثلج ناصع البياض ، بينما اللون الازرق يمتد في ظلال الاودية والسفوح ، وعلى جانب من السماء . وعلى المنحدر القائم الى جانب الطريق ، الغاباتُ المكسوّة بالاصفرار تواجه الغيوم كأنها تنظر الى مرآة . اما المنحدر الآخر الواقع تحت الطريق فينتهي الى مجاري مياه

خانت رسالتها في الحياة اذ نضبت مياهها ففدت طرقاً مليئة بالحصى ، لا يُعرف خطها المتعرّج إلا من شجيرات الغار الوردي النابت على ضفافها . وكانت هناك ، في الجبل ، ساقية من الجليد الاحمر ، تبدو كأنها ساقية من الحلوى المصنوعة بالعنب والكرز ، او كخندق ممتلىء بدم جديد متخثّر . وكانت قطعان من الخراف تمر على السفوح العالية ، ولونها كلون الجفاف تماماً ، تتحرك كالاشباح ، وحارسها الكلب لاهٍ بالتهام قطع من الثلج المتصلب . اما الرعاة فقد غدوا كالمومياوات المستقرة في هذا المكان منذ خمسة آلاف سنة . وجمدت جرادات عديدة على دغلات نابتة بين الثلوج كأنها تخشى أن تصاب بالتهاب في الصدر من شدة البرد . وفي الجو ، عقبان كبيرة ، بيضاء اللون ، تنزلق على الأثير ، وتتمايل بمثل اناقة الحمائم .

وبعد ساعة ، غامت سماء كوستال الداخلية كما غامت السماء الخارجية فوق الجبال ، اذ بدأ يساوره الخوف . لم يخف من الجذام ، بل من لامبالاته بهذا المرض ، ومن تصرفه المخالف لتصرفات البشر المألوفة ، ومن عدم شعوره بالخوف . وربما نجمت هذه الحالة النفسية عن رغبته الدائمة في مناقضة الناس ، فاذا به لا يخاف لانه في حالة تخيف الجميع . وقد شبّه نفسه بذلك المريض الذي تحدث عنه « رفو دلتّون » ، فكان يرى مراحل حياته تمر من دون أن يحياها ، فلا تبدر منه ردة فعل ، فجاء يوماً يطلب الى احد الاطباء أن يعيد اليه شعوره الضائع .

وأحس الكاتب انه دائماً خارج الصف المألوف ، دائماً في حالة تمرد على المجتمع ، دائماً كأنه من سكان « بلاد السباع » ، كأنه من نوع الزعيم الذي أخافه .

أتراه عديم الشعور الانساني ؟

ما كاد يدرك انه غير خائف من الجذام حتى تبين له انه يفتقر الى شيء ، وان احساسه غير كامل . أفيجوز اعتبار « لاشعوره »

كسباً ؟ لا ريب في انه كسب بالنسبة الى متانة الطباع .

ومهما يكن من الأمر ، فقد رسخت في ذهنه حقيقة هي أن حرمانه الخوف كحرمانه الـغيرة على نسائه . وهذا أمر يشرفه بمقدار ، ووفقاً للمناسبات ، إلا انه خسارة على كل حال .

ودبّت الحرارة قليلاً في نفسه ، اذ تحركت فيه الغريزة للقيام بعمل غايته التعويض عن هذا النقص ، فقال في نفسه :

« يمازح الناس الطبيعة ، ويكيلون لها الركل واللكم ، فتدعهم يفعلون غير مبالية بهم . ويعيدون الكرة فيتحرشون بها ، وهم لا يدرون انهم يشدون ذنب لبوءة « سيبيل »[1] ، فتضربهم بقائمتها ، فتشقّهم شقاً ، وهذا حق وعدالة .

« ويتحرشون بالبحر ، ويزعجونه بانواع من الغنج والدلال ، ويسيرون على سطحه بالسفن ، ويمخرون عبابه بالغواصات ، وتستمر هذه المداعبة سنوات ، ثم تغضب اللجة وتبتلع اللاعبين معها ، وهذا حق وعدالة .

« ويتحرش الطيّار بالسماء ، فيأتي يوم لا مناص منه ، تتضايق فيه السماء من هـذا البرغوث الصغير الذي يزعجها ، فتتخلى عنـه ، وتسقط الطائرة حطاماً ، وهذا حق وعدالة .

« وقد عاقبتني الطبيعة بالشيء الذي تحديتها بـه ، اذ كانت شهواتي دائماً من النوع الذي يدفع المرء ثمنه من جسده : تنقّلت بهـذه الشهوات بين الحرب ، والارياف الافريقية ، والحب ، والمعاشرات الخطرة . وها أنا أدفع الثمن الآن . وفي قصة فاوست ، امتلأ جسم مفيستو[2] بالقروح لأنه

---

١ - سيبيل : احدى ربات الاساطير اليونانية ، وهي ابنة السماء ، وإلهة الارض ، وام جوبيتر ، وزوجة ساتورن اله الزمان . كانت في اعتقاد المؤمنين بها تمثل قوى الطبيعة .

٢ - الشيطان في قصة فاوست للكاتب الالماني الشهير غوته ، وقد سبقت الاشارة اليه .

نظر طويلاً الى أقفية الملائكة .

« فمن المدهش الفاضح حقاً ان لا اكون قد أصبتُ بالجدري ما دامت حياتي كانت حافلة بالمجازفات ، ناهيك بان شخصيتي كانت تفتقر الى الشعور بخطر المرض . كنت أشعر بنقصين : جهلي لمرض الجدري ، وعدم مثولي أمام محكمة الجنايات . اما الآن فقد اكتسبت ما استعيض به عن كل نقص .

« ويا له من درس بليغ ، اذا قُدّر لي أن أشفى !

« درس بليغ ؟ دعنا من هذا المزاح !

« فلو شفيت لعدت الى سيرتي السابقة بكل ما فيها . فيا للانسان ، ما اغرب اطواره ! »

وبدت امامه قصبة تخربة حمراء التراب ، تسودها الكآبة التي تسود كل عظمة منهارة . وكانت الغربان تحوّم في الجو مرسلة صيحات تشبه مواء ذكور القطط ، كأنها تحسب الغابات الراقدة تحتها قطعاناً جاء بها القدر ، ويُسمع لحفيف أجنحتها صفير خافت موزون كلهاث كلب متعب. فاستأنف كوستال حديثه مع نفسه قائلاً :

« اني مصاب بالجذام كالملوك والباباوات ، وكالغزاة الذين بسطوا سلطانهم على العالم الجديد . ويا للعجب ، فالصفة الموروثة لا تخلو من الجمال حتى لو كانت مرضاً !

« انه مرض مقدس » . فاليونانيون الذين أُصيبوا في حقبة من تاريخهم بمرض عصبي شامل قدّسوا الجذام مرضاً الهياً . وانه لجدير بهذا التكريم ، شريطة ان تكون له القوة الكافية ليثبت في مرتبته السامية .

« ولنبحث عن عظماء المجذومين في التاريخ .

« إبتعِدْ عن الجماعة » . هذه هي العبارة المشحونة بالكراهية التي كان يوجهها الاسرائيليون الى المجذوم في العهد القديم . فاين كنتُ انا طيلة

حياتي ؟ أما امضيت ايامي بعيداً عن الجماعة ؟

« أسير وعلى ردائي صورة قلب كالمنبوذين في القرون الوسطى . وهو رمز القلب الذي « ليس في صدري منه أثر » ، على حد قول النساء . واذا كنت مخدّر الجلد لا اشعر بالألم ، فهذا رمز آخر للخَدَر المعنوي والخلقي الذي اتهمتني بـه النساء تهمـة صحيحة جزئيـاً . لكن مـا لنا ولهذه الثرثرة . اني غريب عنها لا ادرك منها شيئاً » .

ومرت جماعة من الغلمان محممي الرؤوس كالصبية اليونانيين على ارض اليونان التي احرقتها الشمس . ثم مرت فتيات صغيرات سافرات ، يضعن ايديهن على النصف الاسفل من وجوهن كلما التقين مسافراً غريباً . كنّ متعافيات ، متينات الابدان ، وعلى جانب كبير من الوقاحة ، فراح كوستال يقول في سره :

« يا لهنّ من قذرات ملعونات ! لا اعني خديجة ، ولا جانتون ، ولا مارينا ، ولا وردة ، بـل الاخريات . منذ هــذا اليوم ستبدأ الرواية المضحكة : ساعطيهن جميعاً مرض الجذام ، لعنة الله عليهن . لي في ذمة الدهر بقية من ايام المتعة والملذات ، فالشي بقعي الجذامية ، يا صغيرتي الفاتنة ، انها بقع خمر .

« يبحث المجذومون عن النسيان بالانغماس في اللذات الجنسية » . هذه عبـارة اخرى وردت في كتـاب الطب . فلينقل المريض العـدوى الى البشرية جمعاء اذا شاء القيام بعمل خالد في الحياة . لا اتذكر اين قرأت قصة مسلول كان يبصق في حساء زوجته كيلا يموت وحده [1] .

« تعجّبت لاني لم اكن اتألم ، ثم تبين لي ان ذكريات الآلام التي سببتها للآخرين كانت تعصمني من التألم .

« ليت الجنس البشري ينطفيء معي ، لاعزي نفسي ، وانا على فراش

---

١ ـ روى هذه القصة الدكتور فيسنغر . ــ المؤلف .

الموت ، بان وفاتي لا تفقدني احداً !

« اني واثق كل الثقة باني ساتعجب بعد حين واسائل نفسي كيف استطعت ان اعيش في ما مضى سليماً من الجذام . فالانسان يألف كل شيء . ولا يخامرني ريب في انه يعتاد حتى الاقامة في جهنم .

« لا يجوز أن انسى انتاجي الادبي ، فايوب المجذوم على مزبلته يلتقي والسيدة رولان [1] في مركبة الاعدام في طريقها الى المقصلة وهي تصيح : « من يعطيني قلماً اكتب به خطي ؟ من يساعدني على وضع هذه الخطب في كتاب ؟ » وآخر ما فكر به ايوب واثار اسفه انه لم يكن يملك قلماً ، وإلا لكان سيد اهل القلم .

« لو كان لي متسع من الوقت لكتبت رواية عن الجذام ، ولكتبت « كلماتي الاخيرة » طبعاً . ويكفي أن يكتب المرء « كلماته الاخيرة » ليبتعد عنه الموت .

« ما اجمل مؤلفاتنا مجلّدة بجلد مجذومين معقم ومطهّر ! فالجلود المصوّرة في كتاب لوبل جميلة الألوان . واملي كبير بان يكتب الناس اطروحات لشرح احوالنا ، فالمجذومون يلهبون حميّة الكتّاب . لذلك كتب إكزافياه دي ميستر « مجذوم مدينة اوست » ، وكتب هويسمن [2] « القديسة ليغدوين دي شيدام » ، وكُتبت رواية « الفتاة فيولين » . وهي

---

١ ـ بينا كانت السيدة رولان في مركبة المحكومين بالاعدام ، في طريقها الى المقصلة لينفّذ فيها الحكم ، طلبت قلماً وورقة لتكتب انطباعاتها ، فرفض طلبها . ـ المؤلف .

٢ ـ جوريس كارل هويسمن (١٨٤٨ ـ ١٩٠٧) كاتب فرنسي تطوّر من حب الطبيعة الى التصوف المسيحي .

قصة مزيفة الابداع ، انتجها عبقري مزيّف » .

ورأى كوستال أن النهار يكاد ينتهي ، فقال في نفسه : « ما قيمة تبدّل احوال الطبيعة بالنسبة الى التبدّل الذي يجري الآن في جسدي ؟ »

وفي الافق أخذت الجبال تتقلص وتغرق في الظلام ، فلا ترى العين منها سوى الثلوج على القمم ، كأنها أكفان معلّقة بالسماء . ثم حدث تبدّل آخر ، فبدت الجبال بلون العنب والورد ، وفي الذرى المكرّسة لشعائر الطبيعة بدأت ذبيحة الشمس اليومية .

وكان الصمت شاملاً ، تاماً . لم يبقَ هناك حيوانات ولا طيور ، لم يبقَ شيء من الحياة سوى حركة الرياح التي لا حدود لها ، وهمس الثلوج الخافت ، او صوت حجر ينسلخ عن السفح ، ويتدحرج الى الطريق ، او حفيف غصن ميت يسقط من شجرة كأنه انذار .

وفي احدى المنيهات ، انفتحت فجوة في الغيوم وانحدر منها سلّم ذهبي الى الصخور الارجوانية . وفي هنيهة اخرى بدت في الوادي بحيرة بنفسجية اللون تجعل الناظر اليها يتساءل هل ثمة حديقة بنفسج ؟ واخيراً هبط الظلام فجأة ، وخرجت طغمات الجن من الجبال السود .

ولما أيقن كوستال انه اصبح قريباً من سوق الاثنين ، لا يفصله عنها إلا مسافة كيلومتر واحد ، ترجّل عن بغله ، وتعشى بما كان مضيفه قد زوّده به من الفواكه والحلوى واللبن . وما إن وصلت هذه المواد الى امعائه حتى ساهمت في تبديل نظرته الى الحياة .

حين اكتشف البقعة في معصمه ، واجه الخطر المهدد بهدوء لأنه كان مسنوداً بما تناول من طعام الغداء . ولما تعب ، وشحّت حيويته لصعوبة السفر في الجبال الوعرة ، وبدأت معدته تفرغ ، انتابه هوس مضطرب مضاد

للحقيقة الرهيبة ، فلجأ ، في دفاعه عن نفسه ، الى الوسيلة التي يلجأ اليها كل انسان في مثل هذه الحال ، وهي تضليل الفكر بالاوهام . فهكذا اقنعت اندريه هاكبو نفسها بانـه يحبها ، اي انه انقلب الى نقيض حقيقته ، كما حاول هو اقنـاع نفسه بضرورة الزواج يوم ذهب الى المكتبة الوطنية وراح يبحث عـن عادات الزواج وتقاليـده في التاريـخ ولدى جميـع الشعوب .

ان الميل الى شيء ما ينقذ الانسان من اخطار كثيرة . ففي التجارب ، يلجأ رجل الملذات الى ملذاته . اما الرجل الواسع الخيال فيكفيه ان يتصوّر ان اشخاصاً عظماء من الذين احرزوا اعجابه قـد مرّوا بمثل التجربة التي يعانيها ليسهل عليه احتمالها . وقديماً قال الحكماء : « ليست الاشياء بحد ذاتها هي التي تبعث الاضطراب في النفس ، انمـا باعثه هو الآراء التي نكوّنها عن هذه الاشياء » .

هذا القول صحيح ، لكن الآراء التي نكوّنها عن الاشياء تساهم احياناً في انقاذنا من الاضطراب .

وكان كوستال قد حاول ان يبني حوله كوناً رومنطيقياً يخفف من عذابه ، فأفلح في محاولته لأن الطبيعة البشرية على ما يرام من المرونة وسهولة التكيّف ، ويكفي ان تُعالج بشيء مـن الذكاء لتنقـذ صاحبها من معضلات عديدة .

اشتدت عزيمة كوستال بما اصاب من الراحة ، وبما تناول من الطعام ، فعاد الى هدوئه السابق ، وعادت فضائل الجذام المزعومة تحتل في ذهنه المقـام الذي كانت تحتلّه مـن قبل ، فخيل اليـه ان هذا المرض يكسبه تجارب جديـدة جديرة بالاهتمام ، ويساعده على استغلال مـا تبقّى من حياته استغلالاً ذكياً مجدياً ، ويوجّه اهتمامه الى الاشياء المهمة والاساسية .

وهكذا كان مفيستو يرى جسده مكسوّاً بالقروح فيقول : « ان

الاجزاء النبيلة من هذا الجسد ما تزال سليمة » .

وفي هذه الاثناء كان كوستال ينحدر على آخر سفح من الجبال ليعود الى البيئة البشرية ، الى هذه البيئة الناعمة ، العذبة ، فانتابه تأثر عميق أحس بمثله يوماً في باريس . كان ذلك في شهر آب المحرق ، في ساحة البورصة ، وقد دنا منه بائع متجوّل ، وقدّم له اضمومة صغيرة من البنفسج ، فسرّي عنه ، لأنه تنشّم شيئاً من برود الشتاء وهو في غمرة السعير .

وجاشت في ذهنه طائفة من الصور ، فخيّل اليه ان الانهار تجري مرسلة هدير مدفعية بعيدة ، وانها تتسرّب الى كل مكان مختفية عن الانظار .

لا ، لم تكن مختفية .

فقد تجسدت اوهامه حتى رأى سيلاً ينحدر في الليل متمرّجاً كأنه افعى أصيبت بضربة عصا ، ورأى شلالات عظيمة بغزارة دفقها ، وارتفاعها ، وشموخ القمم المنتصبة حولها ، تنساب خافقةً كالرايات الطويلة اللامعة ، او كذيل جواد عربي نشرته سرعة العدو .

وكان القمر قد أطلّ مصحوباً بالزهرة الصغيرة الى جانبه ، كما يطل الثور مصحوباً بالعصفور الذي يرافقه ليتغذى من روثه .

وكانت مجموعات النجوم تلمع في السماء ، على الجانب الآخر من الجبل ، كأنها قطع من البلور الثلجي في وهج الشمس . اما السماء فكانت مزدانة بالصور ، مكللة بالانفاس والاصوات !

على مرأى من أضواء سوق الاثنين ، أحس كوستال بكلب يجري وراءه ضارباً بقوائمه حصى الطريق .

وعلى مرأى من أضواء سوق الاثنين ، سمع صوت طائر أضناه الأرق ، فأرسل صيحة فيها الكثير من معنى التواطؤ .

وعلى مرأى مـن أضواء سوق الاثنـين ، خطرت في بال كوستال فكرة غريبة ، إلا انهـا مفعمة بالهـدوء والسلام ، وهي : « مهما يكن من الامر ، فـاني اموت وحـدي ، ولا أرى أحـداً يموت سواي » .



١٨

مرّ كوستال امام باب المستشفى في مراكش ، ولم يدخل . فقد خذلته قواه ، فقال في سره : « نحن الآن في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة . وفي الساعة التاسعة والدقيقة العشرين سأعلم انه قضي عليّ »

وعاد ادراجه مسرعاً ، وعلى وجهه ابتسامة تنم عن مزيج من الحزن والشجاعة ، فدخل وطلب مقابلة لوبل .

ولما جاء لوبل ، دخلا الى مكتبه ، فخلع كوستال سترته ، وشمّر عن معصمه ، وقدمه للطبيب دون أن يفوه بكلمة .

وكان يبتسم ، إلا أن ابتسامته كانت تختلف عن الابتسامة السابقة . فقد بدا هازئاً كأنه يقول : « اعترفْ ، يا دكتور ، بان هذه الحادثة مفاجئة ، وبانك لم تكن تتوقعها ! »

وانحنى لوبل على البقعة فاحصاً ، وراح ينظر اليها بامعان ، بينما الكاتب ينظر الى لوبل بقوة قائلاً في سرّه : « ها هي اللحظة التي سيلجأ فيها الى الكذب . اذا كنت لا استطيع أن اقرأ ما يجول في خاطره ، فلست جديراً بأن اكتب روايات فيها دروس نفسانية » . غير أن وجه الطبيب ظل مغلقاً في غموض مطبق .

وبعد قليل تكلّم لوبل فقال :

— أليس في جسمك بقع اخرى ؟

— لا ، لم أرَ شيئاً في الاجزاء التي تمكنت من فحصها .

وبالفعل ، لم يجرؤ كوستال على فحص نفسه في الفندق ، خشية أن يكتشف بقعاً جديدة ، كالمصدور الذي يخشى النظر الى بصاقه .

واستطرد الطبيب قائلاً :

– ألا تتمخط اكثر من المعتاد ؟ ألا تحس بحكّة في اطراف اصابعك ؟

– لا .

وساد بينهما صمت ثقيل . فجعل كوستال يخاطب نفسه قائلاً :

« ها انا في اللحظة الحاسمة الرهيبة . ما عساه يكون الاسلوب الذي سيبتكره لاطلاعي على الحقيقة ؟ سيقول لي ، ولا ريب : « لا ارى دليلاً ثابتاً ، لكني افضّل أن تباشر معالجة نفسك ، فربما ... »

وما كاد كوستال يصل الى هذا الحد من تفكيره ، حتى رأى لوبل يضع يده على معصمه . فاستولت عليه الدهشة ، وقال في سرّه : « ماذا ؟ انه يجازف ليشجعني ! »

وأحسّ بانه يصفرّ داخلياً ، ثم جعل يردد بحرارة ، وبشعور انساني صرف ، الصلاة المدونة في كتاب القداس : « قل كلمة واحدة فتشفى نفسي » .

قال لوبل :

– أشكرك على مجيئك اليّ ، فهذه بادرة طيبة . إلا انك لست على موعد معي ...

وساد الصمت برهةً ، ثم استطرد لوبل قائلاً :

– لا اريد أن تنتظر طويلاً ، لكني لا استطيع أن استقبلك قبل ساعة . أليس لديك عمل في المدينة تقوم به ثم تعود ؟

– لا ، ليس لدي ما يشغلني في مراكش .

وكان كوستال يتكلم بفتور ، وقد تجهّم وجهه . ثم قال في نفسه : « يا له من حيوان ! فرائحة رأسه عطرة كرائحة جميع الاطباء . أجل ، لم يبق عندي ريب باني مصاب بالجذام . فلو لم تكن البقعة التي رآها في معصمي تثير الشك لكان هزىء بي . ومـا دامت تثير الشك ، فاني

مصاب ، وقد انتهى الامر » .

وجعل لوبل يحسب دقائق وقته بصوت مرتفع ، ثم قال :

– استطيع استقبالك بعد اربعين دقيقة . ألا تريد القيام بجولة في المدينة ؟ ففيها مشاهد تسترعي الانتباه بغرابتها ... التي تختلف عن غرابة برج إيفل ...

فقال كوستال في نفسه : « سيدفعني هذا الرجل الى الجنون باحاديثه عن برج إيفل ! » ثم سار الى الباب عملاً باشارة الطبيب ، وخرج .

ولما وصل الى الشارع جعل يُسائل نفسه :

« أيجوز للطبيب أن يتحدث عن المشاهد الغريبة مع رجل سيعلم بعد اربعين دقيقة انه مصاب بالجذام ؟ ولمَ لا ؟ فاحد الاطباء طلب الى كاتب مرموق أن يوقّع على بعض كتبه قبل أن يطلعه على انه مصاب بالسرطان .

« قال لوبل ان « بادرتي طيبة » لاني ذهبت اليه . فلو قرأ المديح الذي كتبه عني اشدُّ اعضاء الاكاديمية الفرنسية بلاهةً في احدى مقالاته ، لأستقبلني مرحّباً ، وخاطبني بقوله : « يا استاذي العزيز ! » إلا انه لا يعْرف شيئاً من اخباري . ولأنه لا يستطيع تكوين فكرة عني إلا بالنظر الى شكلي الخارجي ، فقد اكتفى بالقول ان « بادرتي طيبة » . وهذا يعني اني مخلوق تافه في نظره . ولا ريب في اني تافه وغبي ، لأنني كنت غبياً مع سولانج ، وغبياً مع اندريه هاكبو ، وغبياً مع خديجة » .

لن ينسى كوستال ابداً تلك الدقائق الاربعين التي حاول، خلالها ، قتل الوقت متجولاً في مراكش . فقد كان من المحتمل أن تقضي على رغبته في الذهاب الى افريقيا مدى الحياة ، فجعل يقول في سره : « في بعض الاحيان ، يكون العالم مسرحاً لحدث مجهول وقريب الوقوع : في الفترة السابقة لنشوب ثورةٍ ، مثلاً . اما الآن فالكارثة تسير في جسدي .

وليس في وسعي إلا ان أراها تتقدم وأنا عاجز عن الفرار منها . ولا بد لي من الصبر حتى تأزف ساعة المسدّس . لكن ، أأستطيع الاتكال على هذا السلاح ؟ ففلان وعلان اللذان حاولا الانتحار ، وكانت لهما ، بعد ، بقية من امل واخفقا في محاولتها ، لم يجرأا على اعادة الكرة مذ ادركا انهما فقدا كل امل . وقد اعترفا لي بهذه الحقيقة » .

وكان اضطرابه يزداد بنسبة انقضاء الدقائق الاربعين ، فتذكر الرفيق الذي اتصل بالطبيب هاتفياً من المقهى ليعرف نتيجة فحص دمه على طريقة « فاسّرمن »[1] ، وحرص على ان تكون في متناول يده كأس من الروم ليجرعها فوراً اذا كانت نتيجة الفحص ايجابية ، وأحس بانه مهدد بالاغماء .

ولما انقضت خمس وثلاثون دقيقة ، لم يعد كوستال يطيق صبراً ، فدخل المستشفى .

سار به احد المرضين في قاعة مليئة بالآلات والاجهزة المخيفة ، فقال في سره : « يا لهم من مبذّرين ! فلو اشتروا آلة واحدة من هذه الآلات لكانت كافية لاكراهي على الاعتراف بكل شيء » ، اذ خيّل اليه انه مجرم يقوده الجلّاد الى غرفة التعذيب . وهذه حال من تستولي عليه الهموم .

وباشر لويل فحصه ، فدسّ في انفه قطعة معدنية ، وداعب احدى يديه ببراعة ، وجعل يضرب احدى ركبتيه ضربات خفيفة من تلك التي تُضحك الاولاد ، ثم فحص البقعة وقال للكاتب : « اغمض عينيك » ، وراح يلامس البقعة وجوراها بدبوس قائلاً : « أتشعر بشيء ؟ »

---

١ - يعني مرض السفلس ، فأوغست فون فاسّرمن المشار اليه طبيبٌ الماني (١٨٦٦-١٩٢٥) يعود اليه الفضل في ابتكار طريقة كيميائية لاكتشاف جرثومة هذا المرض .

انه الرجل الذي يعلم، وفي وسعه ان يكون فظاً، غليظاً، عديم الذوق، قليل التهذيب، خالياً من الشرف، لأنه يعلم. اما الرجل الجالس بين يديه، فمهما يكن رفيع الفكر، سامي الادب، متفوّق العقل، لا يستطيع إلا ان يقول له: «اني رهن بمشيئتك». والديانات تريد ان يكون الانسان في مثل هذا الوضع امام الكاهن. إلا ان الكاهن دجّال، بينما الطبيب يعرف معرفة حقيقية.

وكان كوستال رصيناً، هادئاً، في استسلامه وخضوعه. فأحس انه تجاوز... ماذا تجاوز؟ تجاوز نطاق ارادته، ولم يعد قادراً على عمل شيء لنفسه.

واستأنف لوبل ملامسته بالدبوس مكرراً سؤاله: «أتشعر بشيء؟» فتأثر كوستال وأجاب بلا تفكير، وكيفما اتفق له الامر. وكان يخيّل اليه احياناً ان جسمه كله عديم الاحساس، بينما البقعة وحدها تحس. ولا ريب في ان تخيّله كان بعيداً عن الحقيقة.

ولما عالج لوبل البقعة بالحرارة والبرودة مستعملاً انابيب حقيرة، مزعجة، لم يعد كوستال يميّز بين الحارّ والبارد. وهكذا كان في ايام حداثته لما بدأ يتعلم ركوب الخيل، فكان يشدّ الزمام الى اليسار، كلما صاح به المعلم: «الى اليمين!» مع انه كان يومذاك عبقرياً ناشئاً.

قال له لوبل:

— اخلع ثيابك.

وضحك ضحكة خبيثة، ثم استطرد قائلاً:

— لو كنتَ فتاة اسبانية لطلبتُ اليك ان تحتفظ بثيابك التحتانية. فاني لا أعرّي الاسبانيات كلياً لدى معاينتهن، لاني لا احب ان يرى المرضون الافريقيون مقدار القذارة التي تعيش فيها الاوروبيات.

ولما فرغ الطبيب من فحصه، قال للكاتب:

— أمضطرٌ أنت الى البقاء في المغرب؟

— لا .

— اذاً ، عُدْ الى باريس حالاً . فالفحص الدقيق الذي يجب ان اجريه عليك يستغرق بضعة ايام . ولا ارى لزوماً لمباشرته هنا . فاذا كنتَ بحاجة الى معالجة — وهذا ما استبعده جداً — فمن الافضل ان تبدأ هذه المعالجة في باريس ، لأن ادواتنا هنا ليست على ما يرام .

قال كوستال في سره :

« لم يقل لي شيئاً من هذا لما كان الامر متعلقاً بخديجة ، مع اني توسلت اليه ان يعالجها كما يعالجني تماماً . انها في اعتباره افريقية ، اي من فصيلة الحيوانات الحقيرة ، وليس في العالم قوة تستطيع انتزاع هذا الاعتقاد من ذهنه » .

ولم يخطر في باله ان لويل لم ينصحه بالذهاب الى باريس إلا للتخلص منه ، بعد ان تبين له انه من الاشخاص المزعجين .

وفي نهاية المطاف ، تكلم كوستال بلهجة العاشق الخجول الذي يسأل خليلته : « أتحبينني ؟ » وقال للطبيب : « والنتيجة ؟ »

فأجاب لويل :

— يتعذّر عليّ كلياً ان اضع تشخيصاً لحالتك الآن . فالفحص السطحي الذي قمت به يسمح لي بالقول انك سليم ، لأني لم اكتشف اقل دليل على انك مصاب بمرض هانسن . فهذه البقعة وحدها تثير الشك ، وقد تكون نوعاً من بهق الحجر ، او الاشنة ، او مرض جلدي آخر من ألوف الامراض . فنحن في مراكش فردوس الامراض الجلدية . ويبدو لي انه من المستحيل ان يظهر الجذام بعد مرور ثلاثة اشهر على انتقال العدوى . لم اعرف قط حالة من هذا النوع ، ولم اسمع بعدوى لها هذه السرعة الصاعقة . اعترف بأننا لا نكتشف عوارض الداء بسهولة في اثناء الفحص الاول ، وبأن هذه العوارض لا تظهر إلا نادراً في المرحلة الاولى منه . فالمرضى الذين عرفناهم حتى الآن قد بلغوا حداً معيناً من

تطوّر الداء فيهم . فاذا كنتَ مصاباً فلا ريب في ان اصابتك تعود الى عدوى سابقة . وربما كانت خديجة تحمل هـذا المرض منذ بضع سنوات دون ان تظهر عوارضه عليها .

وكان كوستال على يقين بان لديه اسئلة عديدة ومهمة يودّ ان يطرحها ، إلا انهـا غربت كلها عن ذهنه لشدة الاضطراب الذي استولى عليه منذ اربع وعشرين ساعة ، إن لم نقل منـذ ثلاثة اشهر . فقـد فوجيء بظاهر الداء ، فأظلم ذهنه واعتراه الارتباك .

ودخل احد المرضين فخاطب لوبل همساً . وكان الباب مفتوحاً ، فرأى كوستال بعض المرضى الاوروبيين في غرفة الانتظار ، وقد جلسوا متلاصقين على مقاعد خشبية ضيّقة، كالمعتقلين في مخفر الشرطة . وكانت بينهم ايطاليات عظيمات الصدور كأن لهنّ ثلاثة اثداء او اربعة ، يحملن اطفالاً يعبون اللبن من هذه الاثداء جميعاً ، كما تشرب الانهار من البحر . وكان بينهم ايضاً اسبانيون يمسكون قبعاتهم باصابع مكسوّة بالشعر .

اخذ لوبل سلبيّ صورة كانت على الطاولة ، ورفعه الى النور وقـال لكوستال :

– انظر ، انها صورة جميلة ولا ريب !

وسأله الكاتب :

– ما هذا ؟

وقد ساءه ان يهتم الطبيب بشيء آخر غـير مرضه ، وان يهمله بمثل هذه السرعة .

فأجابه لوبل :

– هذه صورة سرطان في المعدة .

– وهل قضي على صاحبها ؟

– طبعاً ! لم يبقَ له امل بالشفاء . لكن ألا ترى ان هذه الصورة في منتهى الجمال ؟

قال كوستال وهو يلبس بنطلونه :

ـ الطب شيء حسن، غايته الانقاذ ! لكن انقاذ مَنْ ؟ اذا عُرضت علينا قضية جزائية ، فلا نكاد نرى المدعي ، او المدعى عليه ، حتى يخفق قلبنا لعدالة قضيته ، ثم يتبيَّن لنا ان القضية برمتها غير جديرة بالاهتمام . وهكذا المرضى ، فكم بينهم يستحقون الشفاء ؟ انهم يبعثون عطفنا عليهم وهم في حالة المرض ، لأن شدة الداء تخمد شدة بلاهتهم . اما اذا ابلّوا من مرضهم ، فلا يلقون منا إلا النفور . وما عساهم يعملون بهذه الحياة التي انقذناها لهم ؟

ـ ما رأيك لو تبنّى الاطباء وجهة نظرك وعملوا بها ؟

ـ أعتقد أن القتل طبياً تجربة رهيبة تراود أذهان الاطباء ... كنت يوماً في سفينة تمخر العباب ، وتغالب الامواج ، فخطر في بالي أنها لو غرقت لسهل عليّ الموت لأني أموت مع مائة وخمسين نسمة .

ـ أنك لمازح !

قالها لوبل ضاحكاً وهو يعتقد أن لا وجود لهذا الشعور العجيب إلا في صدور الذين يكتمونه ، ثم استطرد مبتسماً :

ـ لا ، لا ! أن حالتك غير مرضية .

وحاول كوستال أن يربط عقدة رقبته ، فما استطاع ، لأنه لم يجد مرآة في مكتب الطبيب ، فقال له لوبل :

ـ أنظر الى زجاج النافذة .

وكانت احدى درفتي النافذة مفتوحة في الجانب المواجه للشمس تقوم مقام المرآة ، فقال كوستال :

ـ كنت يوماً على سفر في احدى المدن ، فاضطررت الى معالجة نفسي بحقن في العضل . وبعد ثلاث حقن علمت أن الطبيب الذي يحقنني كاثوليكي راسخ الايمان ، وعضو في جمعية مار منصور دي بول ، يتناول القربان المقدس كل يوم أحد . وأعترف لك صراحةً بأني خشيت أن أتابع

المعالجة على يده .

– لا أفهم قصدك ...

– لو علم أني عـدو لدود للكاثوليكيين ... لخطر في باله ان يحقنني بما يشاء .

– لك رأي عجيب في الكاثوليكيين والأطباء !

– روى القديس بولس يوماً احدى كلمات يسوع وعلـّق عليها قائلاً : « ... ذلك أنه يعلم ما في نفس الانسان » . وأنا أيضاً أعلم ما في نفس الانسان .

أجاب لوبل وهو ينهض واقفاً :

– ثق بان الأطباء أوسع علماً من الكتـّاب في هذا المجال .

فقال كوستال في سره :

« ماذا ؟ أيعني نهوضه أنه يصرفني من حضرته ، مع أننـا وصلنا في بحثنا الى نقطة نستطيع أن نجد فيهـا أشياء أساسية ؟ أتراه لا يعطف عليّ ؟ من الضروري أن تقوم بين الطبيب والمريض علاقة متينة » .

أين هم الأطبـاء الأعزاء الذين يعالجون مجاري البول ؟ أنهم يذوبون لطفـاً ، ويربّتون على أكتاف مرضاهم بمحبة ظاهرة ، وينادونهم بـ « يا عزيزي » ، أو « يا أخي » . وفي المقابلة الأولى ، بينهم وبين المريض ، يروون له نوادر قذرة ليضحكوه ، ويرافقونه الى الباب مازحين متندّرين على الطريقة الفرنسية الخالدة . واذا توالت زيارته ثلاث مرات أو سبعاً ، أصبح من الأصدقاء وأهـل البيت ، ولا يكاد يدق البـاب حتى يستقبله الخادم قائلاً : « أطمئنك الى أن نتيجة الفحص سلبية » . فمـع أناس من هـذا النوع يصبح المرض ضرباً مـن البطولة ، وتصبح التعقيبة مكرمة تجعل صاحبها يفكر بانه أحرز تنويهاً في الجيش .

أما لوبل فالمريض الذي يزوره يبتعد عنـه ويحسب نفسه لا شيء ، بل يحسب نفسه مهملاً ، مرذولاً ، كالكاتب اذ ينصرف من احدى دور

النشر .

وكان كوستال راسخ الاعتقاد ان الطبيب يستطيع ان يحقن مريضه بما يشاء . ولأنه عهد الى لوبل بان يعالج خديجة ، فقد خطر في باله ان يكون كريماً ليكسب عطفه ، فأخذ دفتر شيكاته وقال له :

– يسعدني ان تقبل مني مبلغاً صغيراً بمثابة مساعدة للمستشفى .

كثيراً ما يشعر المرء ، حين يدفع مبلغاً من المال ، ان شيئاً في اعماقه يبكي . انه لا يبكي لتخلّيه عن المال ، بل لاحساسه بان هذا البذل عديم الفائدة .

خرج كوستال من المستشفى وقد بدا التأثر واضحاً على وجهه ، وتعذّر عليه ان يبتسم حتى لو تعمّد الابتسام . وتبللت جبهته بالعرق مع ان الجو لم يكن حاراً ، بل معتدلاً وجافاً . وكان الشارع ، في نظره ، خالياً من الاوروبيين ، والعرب ، والزنوج . وقد زالت في اعتباره فوارق العرق ، واللون ، والجنسية ، والطبقات ، فلم يبق سوى فارق كبير يفصل بين نوعين من البشر : المرضى والأصحاء .

وبينما كانت احدى العربات تحمله الى دائرة البريد ليتسلم الرسائل الواردة اليه ، تحدث مع الحوذي عن انواع الأحذية ، واحتدم بينهما الجدال ، فغضب غضبة رجل سليم ، وصاح بالحوذي :

– لو تساقط جسدي ارباً ، لما عدلتُ عن اصدار الأوامر ، قبحك الله !

وهذا يعني ، باللغة الدارجة لدى الأباطرة والملوك : « ان احدى قدميّ في القبر ، لكن لي قدماً ثانية لأركل بها قفاك ! »

وفي الفندق أحس كوستال انه في المكان الذي يختلي فيه المريض بنفسه ، وفي البرهة التي تمكّنه من لطم وجهه ، والتي يسهل خلالها للطبيب التمييز بين المرض والعافية ، كما يسهل للنظارة ان يميزوا المنتصر من المغلوب بين رجلين في حلبة الملاكمة ، – في البرهة التي يشعر

فيها الراكض ان قواه خارت وخذلته .

تبادرت هذه الافكار الى ذهن كوستال ، فراودته رغبة طاغية في مطالعة الكتاب الطبي الذي يتحدث عن الجذام . إلا انه خشي ان يفتحه وقال : « سأطالعه في وقت آخر حين اشعر بتحسن حالتي الصحية ، واكتسب مزيداً من القوة لمواجهة الاشياء المريعة التي سأجدها فيه » .

وقف الى جانب الطاولة وعيناه مفتوحتان على الفراغ ، وقد استولت عليه الخيبة وخارت قواه اذ تبيّن له انه غير خالد .

أتراه كان ذلك الرجل نفسه الذي نظر بالامس الى بقعة الجذام في معصمه وهو هادىء ، رابط الجأش ؟

أتراه يعاني كابوساً مخيفاً ؟

كيف استطاع مواجهة الكارثة بلا ذعر ؟ وكيف يتابع حياته الآن ؟

أذهله صموده الهادىء أمام الموت ، بقدر ما أذهلته قدرته على العيش بعيداً عن ابنه خصوصاً في الايام الاخيرة .

الانسان لغز مغلق عويص . هذه حقيقة ندركها في الغوص الى اعماقنا ، لا في درس الآخرين . فكيف يستطيع المرء ان يواجه بهدوء عجزه عن متابعة التنعّم بهذا العالم ؟

كثيرون من « الابطال » و « الحكماء » و « القديسين » وسواهم يواجهون الموت بقوة ، غير ان ما يسمونه : « الموت الكريم » او « الأنوف » ، لا يخرج عن كونه غلاظة عليا .

إيه ! ان مختلي العقول وحدهم يرتكبون هذه البلاهة . وربما كانوا من الذين لا يرون في الحياة سوى التفاهة والسخف . وليست المأساة في فقدان الحياة ، بل هي في فقدان السعادة . لولا السعادة لما كان الموت مخيفاً . هذا هو العقاب الاكبر الذي ينزله القدر بالسعداء . هذا انتقام سكان « وادي الدموع » . فالطريقة المثلى لمواجهة الموت بلا خوف هي القرف

من الحياة .

دفع كوستال ثمناً باهظاً لسعادته ، لأنه تنعم بالحياة تنعماً جنونياً ، وأراد المزيد من الملذات . فرؤية الوجوه الجميلة تجعله جباناً ، وكلما وقعت عينه على احد هذه الوجوه الالهية ، ازداد نفوره من اللاوجود ، وقال في نفسه : « كيف يجوز ان لا أرى هذا الوجه مرة اخرى بعد اليوم ? »

تذكر ، وهو في هذا التأمل ، جملة كتبها في احد مؤلفاته ، وهي : « لن اموت ، فشهواتي تربطني بهذه الارض » . إلا ان شهواته كانت تطرحه خارج الارض ، فيتوسل اليها لتبقيه حيث هو ، لأنه لا يريد ان يتلقى إلا منها ، ومنها وحدها ، الخيرَ كله ، او الشر كله .

وتحوّلت تأملاته الى انتاجه الادبي . قال بيرون في مثل هذا الموقف وهو على فراش الموت : « اني أخلّف للعالم شيئاً عزيزاً عليه » . اما كوستال فكان يعلم انه سيخلّف للعالم انتاجاً ما أثار في النفوس سوى الاستنكار والاحتجاج .

في اليوم السابق ، حسب ان اربع سنوات من الحياة تكفيه لانجاز الاعمال التي باشرها ؛ اما الآن فقد ادرك انه واهم ، ففي الرعب الدائم امام الموت ، وفي الآلام الجسدية ، والضعف المتزايد ، يستطيع المرء ان يكتب صفحات متفرّقة ، لا ان يبني مؤلفاً راسخ الدعائم ، متين البنيان .

واذاً ، فسيزول من الوجود تاركاً للناس من بعده صورة ناقصة عن حقيقته ، وستُكوّن عنه آراء تحط من قدره لأنه كان بحاجة الى بضع سنوات من الحياة فلم يحصل عليها .

وكم سيبعث زواله من السرور في نفوس زملائه ! ان هذه الشماتة وحدها يجب ان تشدد عزيمته ليبقى في قيد الحياة .

إلا ان تألمه من سرور الزملاء كان في نفسه أخف من أسفه على الملذات التي سيفقدها ، ومن أسف آخر ... هو الانفصال عن برونيه . ففي تلك الساعة العصيبة اتجه فكره الى ملذاته ، والى عمله الادبي ، ثم اتجه الى ابنه ، اي الى الاشياء الثلاثة التي استقلّت باهتمامه طيلة حياته .

وتمثلت صورة برونيه في خياله فجعل يقول في نفسه : « ما الذي سيحل به ؟ ما يكون مصير امرىء لا يجد من يحبه ؟ » وكانت الضربة التي نزلت به قاسية موجعة حتى انه وضع يده على عينيه .

هذه سنّة الطبيعة ، لا تحول ولا تزول : فالحياة في مفهومها الأسمى ان تظل خالية من الألم . لكن يكفي ان يتعلق المرء بشخصٍ ما لتغرق روحه في القلق والعبودية . وما كادت هذه الفكرة تخطر في باله حتى قال بصوت مرتفع : « من الفظاعة ان يحب المرء احداً من الناس ! لماذا أنجبت هذا الفتى ؟ لولاه ، ولولاه وحده ، لاجتزت الحياة كتنّين خالٍ من العوار ... »

وكان قد اعتاد ان يدوّن فوراً كل ما يحدث في نفسه تأثيراً عميقاً ، فكتب على صفحة بيضاء من احدى الرسائل التي وصلت اليه منذ قليل : « أتذكر ذلك اليوم من نيسان الماضي ، حين ذهبت الى « كان » لأرى ابني ، فنزلت في (لك ان تضع هنا اسم فندق فخم يخطر في بالك) ، لأن العمال كانوا يقومون بترميم منزلنا . وأتذكر خصوصاً ذلك الصباح البهيج الذي جلسنا فيه معاً في حديقة الفندق .

« كان كل شيء حولنا مزدهراً ، وقد مدّت نافورة الماء ذيلها ، كأنه ذيل نجم مذنّب فوق ملعب كرة المضرب المائل الى الاحمرار . اما الجبال الخضر ، القائمة في مرمى النظر ، فكانت تحمل بيوتاً بدت كأنها معلّقة ، كأنها تفاحات القدرة والسعادة .

« جلس ابني الى يساري وراح يقرأ نشرة فيها شرح ضافٍ لاحدى

عشرة وسيلة تقنية تؤدي الى الغرق حسب الاصول الفنية اذا استعمل المرء زورقاً صنعه بيده . كانت رجلاه على كرسي حديدي ، ورأسه على كتفي . ومن حين الى آخر كان يدفعني بقوة كجدي يحب النطاح . وكان يغمض عينيه ويبتسم ، كلما كانت احدى اللسمات تحمل الى وجهه رشاش الماء من النافورة القريبة ، فأقول له : « ترصّن قليلاً ، فللخدم عيون ...» فيمدّ شفتيه كالطفل المدلل في عائلة ثرية ، اي كطفل قليل التهذيب ، ويجيب : « لا تضايقني ! انك تدفع مبلغاً كبيراً من المال هنا ، فدعني اعمل ما يطيب لي » .

وهنا توقف كوستال عن الكتابة .

استعاد هذه الذكريات محاولاً اكتشاف دليل على ان ابنه ليس على ما يرام ، لعله ينفر منه فيهرب من سجن حبه له ، فتبيّن له ان برونيه لا يخلو من الغلاظة والسخف ، إلا انه لم يستطع النفور منه ، لأنه يحبه . فأيقن انه سيحمل معه حب هذا الفتى الى القبر ، كاولئك الفرسان الذين تقوم تماثيلهم على اضرحتهم ، وقد جلس الى جانبهم احد خدمهم المفضلين ، فقال متلهفاً : « لا ! لا ! لا اريد ان افقد هذه الاشياء الممتعة ! »

وفي هذه اللحظة حدث ما لا يصدقه احد : فجميع الاصابع الاخطبوطية والكلّابات المخيفة التي كانت قد نبتت منه لتشدّه الى الحياة ، تراخت فجأةً ، وفقدت قواها ثم انهارت . فالانسان اعجز من ان يستمر طويلاً في حالة متوترة ، حتى لو كان سبب هذا التوتر الخوف من الموت . وهذا موضوع يبلى كغيره من المواضيع العديدة .

واكبّ كوستال على الرسائل التي وصلت اليه في ذلك اليوم ، ففضّها وقرأها ، ما عدا رسالة اندريه هاكبو ، فقد وضعها في الملف الخاص بها دون ان يفتح غلافها ، ثم شرع يكتب اجوبته بهمة واجتهاد . فلاحظ ان خطه في منتهى المتانة والقوة ، فقال في نفسه : « الى متى يبقى لي هذا النشاط ؟ »

ورأى صورة وجهه في المرآة ، فاخذه العجب لأن ملامحه كانت تدل على القوة والتصلّب ، ثم خطر في باله ما وراء هذا المظهر من تطوّر المرض الخبيث ، فزمجر ساخطاً .

وفي اليوم التالي ، أبحر من ميناء الدار البيضاء .

١٩

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

(أرسل هذا الكتاب من باريس الى مراكش)

١٧ آذار ١٩٢٨

ما أجمل السرور البريء الذي تحتفظ به بعض النساء حتى الشيخوخة اذا احسسن انهن محبوبات ! كنتَ معي في منتهى اللطف ، منذ اربعة ايام ، لما ذهبنا الى مفترق الطريق في ظاهر البلدة ، فعدتُ من هذه النزهة منتعشةً تملأ البهجة كياني .

صفحتَ عن اساءتي اليك في رسالتي الاخيرة ، ففي توجيهي اللوم اليك كنتُ كالعشبة الطفيلية تعيش على جذع السنديانة وتلومها زاعمةً ان هذه السنديانة تأسرها وتشوّش حياتها .

اني اكنّ لك اصفى الشعور بعرفان الجميل لانك قبلت بان احبك . فمنذ ثلاثة اشهر عدتُ الى مراسلتك بانتظام . وكان بوسعك ، لو شئت ، ان تصارحني بان رسائلي تزعجك ؛ إلا انك لم تفعل ؛ اذاً انت راضٍ

عني لانك تحبني .

الله وحده يعلم مدى السرور الذي يغمر نفسي عندما اكتب اليك ، والمباهج التي غنمتها خلال الاشهر الثلاثة الماضية ، وانت وحدك صاحب الفضل فيها . اني احتفظ بك كما تحتفظ بي ، لكن احرص عليّ جيداً ، لاني لم أنل بعد حصتي كلها من السعادة . ربما تكون قد رضيت ، هذه المرة ، بان اكون لك مدى الحياة

واني اغتنم هذه الفرصة لاسألك : ما معنى صورة القلب المطبوعة على الصفحة الاخيرة من غلاف كتابك الاخير ؟ رأيتها على جميع الكتب التي ارسلتَها الي ؛ اما النسخ التي اشتريتها من هذه الكتب فانها خالية منها [1] .

لاحظتُ في قصتك المنشورة في جريدة «كنديد» انك استعملتَ رسالتي الاخيرة اليك [2] ، فسررت بدخولي الى ما تكتب ، وأسعدني ان تكون بحاجة اليّ لتبدع . وكلما عشتَ معي اصبح أفضل مما كنت ، اذ تكتمل بك انوثتي .

مرّت بسارن ليونار سيارة دعاية لمؤسسة « إكس » التجارية في اورليان ، فخامرتني رغبة جنونية في شراء اشياء كثيرة . فاشتريت حذاء . وها انا مسرورة بحذائي غاية السرور ، لاني احسست ، لما انتعلته ، اني في مقتبل العمر ، واني شبيهة بالفارسة إلسا .

ولما خلعتُ هذا الحذاء ، كنتَ انت جالساً الى جانبي ، فضممتَ حذائي بين رجليك بطريقة فيها الكثير من المداعبة ، كأن رجلي ما تزال في داخله .

منذ قليل انشدتُ بصوت مرتفع اغنية على احد ألحان الفالس التي

---

١ ـ يطبع الناشر هذه الاشارة على أغلفة الكتب غير المخصصة للبيع . ــ المؤلف .

٢ ـ لم يفض كوستال غلاف هذه الرسالة . ــ المؤلف .

كانت رائجة قبل الحرب ، وعنوانها : « عاشقة » . لا شيء ينقذني من همومي كالغناء بهذه الطريقة ، خصوصاً اذا رفعت صوتي قدر المستطاع .

الحياة جميلة .

ألا أملك ما اردت امتلاكه ؟

كنت اريد مكاناً فريداً في قلبك . ما كان اسعدني لو كنت ارملة شابة ولي منزل في باريس ، مع ... لا مجال لهذا البحث الآن !

أ.

(وضعت هذه الرسالة في الملف الخاص بها من غير ان يُفض غلافها)

٢٠

لما وصل كوستال الى المغرب ، كتب الى سولانج يقول : « لا بـدّ لي من توجيه كلمة ثناء الى البحر لأنه كان هادئاً لمـا عبرته » . اما في اثناء عودته فقد تغيَّر رأيه في البحر واصبح يعتبره نكبة .

فالامواج الهائجة كانت تسد ثلاثـة ارباع نوافـذ الباخرة ، واحياناً تسدّها كلها ، من غير ان تحطمها . ربما كانت تتراجع هرباً من نتانة الناس المتراكمة في حجرات كل سفينة فرنسية .

أسدل كوستال ستار نافذته قائلاً : « افضل ان احسب نفسي في غواصة » . إلا ان الستار كان معلقاً بطريقة تجعل المسافر يرى اضطراب الباخرة اذ تتقاذفها الامواج ، وكان هذا منتهى اللطف من قبـل الذين فكروا بهذا الامر .

نهض من سريره وهو يكاد يتقيأ ، وسار مترنحاً الى الورقـة المعلقة على الباب ليرى رقم زورق الانقاذ الذي يجب الذهاب اليه اذا غرقت الباخرة . غير انه كان في سفينة فرنسية ، فوجـد مكان الرقم خالياً .

اما زنانير النجاة فكانت على ما يرام ، يستطيع المرء الاتكال عليها ليعوم ، شريطـة ان يكون رأسه تحت المـاء ، لان اشرطتها كانت طويلة .

والخلاصـة ان كل شيء كان حسناً ، لولا هـذه الذبابة الشرسة التي لا تدفع اجرة سفرها ، ولا تصاب بدوار البحر .

لا ! ان حالة كهذه لا تطاق .

لم يعد كوستال يهتم بان يفكر ، بل حصر همه في ان يقاوم ليصمد ، وراح ينظر الى ساعته مرة كل خمس عشرة دقيقة ويقول : « لم يبقَ امامي سوى ثماني عشرة ساعة . وبعد عشرين دقيقة سيبقى سبع عشرة ساعة واربعون دقيقة ... لكن ، لا ! يجب ان احسب حساب التأخر . لعنة الله على حساباتي »

وأحس ان انفه مسدود ، فعطس وامتخط . أترى هذا الزكام من عوارض الجذام ؟ وما هي لحظة حتى أحس بحكة في ابطه ، ثم في داخل احدى فخذيه ، وكان يعلم ان الحكة تحدث غالباً في بدء الجذام .

الجدران والحواجز الخشبية تئن تحت وطأة العاصفة . والباخرة ترتعش احياناً كما يحرّك الحصان جلده . وقرص كوستال اصابع احدى يديه وهو في هذه المحنة ، فما أحس بألم ، فبلل العرق جبينه اذ خيّل اليه انه مصاب بخدر الجذام . لكن احساسه عاد بعد قليل الى حالته الطبيعية ، فأدرك ان يده كانت مخدّرة لانه قبض بها على الاطار الاعلى من السرير فترةً طويلة ، فتسرّب منها الدم وخفّ احساسها . اما الزكام والحكة فظلّا على حالهما .

في الساعة العاشرة ليلاً هدأت العاصفة ، فانتهت ازمة الاحتضار ، واستعاد الكاتب وعيه وراحة شعوره .

الوعي وراحة الشعور هما كل شيء .

يتعذر على المرء ان ينعم بروعة الشعر ، وان يقدر الشعراء ، اذا كان حذاؤه ضيقاً يؤلم رجله . والصروح الروحية الشامخة تنهار في اضطراب الباخرة انهيار القصور في الزلزال .

إلا ان كوستال ما كاد يخرج من حفرة شقائه الجسدي حتى سقط في حفرة شقاء معنوي اذ رأى نفسه وجهاً الى وجه مع الديانة

المسيحية .

إن من يُمضي ايام حداثته بين المسيحيين يتعرض، في اغلب الاحيان، الى تضخّم الشعور المسيحي فيه كلما خارت قواه واستولى عليه الجبن، ولا يستطيع التخلص من هذا السم الزعاف إلا متى بلغ سن الرجولة والنضج .

لم يكن كوستال يكره هذه الديانة ، لأنه لا يحقد إلا على الامراض التي تفتك بمن يحب ، وجميع الذين يحبهم متعافون ، لم يحلّ بهم داء المسيحية . ولم يبغضها لاعتبارها « عدوة الجلس البشري » ، على حد قول تاسيت[1] ، لأنه لا يذوب هياماً بالبشرية ليبغض اعداءها . انه يحتقر الديانة المسيحية ، لا اكثر . ولأنه ربي في جوّها ، كان يسهل عليه ان يتصورها كما هي تماماً ، وكثيراً ما استطاع التصرف كأنه مسيحي، وهذا ما لمسناه في رسائله الى « مريم فردوس » .

وعلى اثر عودته من المغرب ، واجه مرضه بذهن صافٍ ، ودرسه بامعان ، فخطر في باله ان يُنَصِّرَه !

لا ، لم يفكر بان « يؤمن » بالدين المسيحي ، مع انه كان يحسد الكهنة الذين يكتسبون من ايمانهم قوة تساعدهم على مجابهة الموت ، وعلى الاذعان له بسرور . كان يحسدهم كما يحسد الحيوانات ، ظناً منه انها لا تخشى الموت . إلا انه كان مخطئاً في هذا الظن ، بقدر ما كان عاجزاً عن الشعور بالايمان .

لا ، لم يكن مستعداً ان يؤمن . فكلمة شاتوبريان[2] : « بكيت وآمنت » ،

---

١ - مؤرخ لاتيني (٥٥ - ١٢٠) . اشهر مؤلفاته : « تاريخ الجرمانيين وطباعهم » ، و « حوار الخطباء » . لم يكن دائماً متجرداً في ما كتب ، فقد حرّف احياناً الحوادث التاريخية ، ولكنه تميز بوضوح الجملة ودقة التعبير .

٢ - الفيكونت فرنسوا رينه دي شاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤٨) كاتب فرنسي شهير =

كانت في نظره اسخف ما قيل في تاريخ الادب الفرنسي. غير انه أراد تخفيف التجربة التي نزلت به باعطائها طابعاً شعرياً من نوع جديد. وفي هذا السبيل قرر ان يترهب، وان يعتزل في احـد الأديار. فالمجذوم في هذا العصر مخلوق فظيع يثير الشفقة، ولا يجوز له ان يعيش بين الأصحاء. اما المجذوم، الذي يهتدي بفضل مرضه الى «الهياكل القديمة»، فانسان حسن الصورة، رفيع المقام. وهذه حقيقة لا يرقى اليها شك. وحتى غير المؤمنين يكنّون احتراماً ايـله للجسم المكسو بالقروح اذا كانت عليه جبّة راهب، لأنهم يسايرون الرأي العام. ولا بد من الملاحظة ان المسلول لا يسترعي انتباه احد، حتى لو اهتدى الى الهياكل القديمة.

تحمس كوستال لجميع هذه الاعتبارات، لا لأنه اخذ يفكر جدّياً بان يتخصص في الشعوذة الكاثوليكية الجذامية، كما يتخصص آخرون بالطقوس اليهودية، او باللواط العقائدي، بل لأنه تصوّر شخصاً آخر في وضع من هذا النوع.

وكانت حماسته حيال الحالة التي اوصله اليها المرض كتلك الحماسة التي ألهبت شعوره في المكتبة الوطنية، لما راح يبحث في بطون التاريخ عن صور رائعة للزواج، ليتمكن من احتمال زواجه.

---

* من رواد الحركة الرومنطيقية. سافر الى اميركا وعاد الى فرنسا قبيل الثورة، ثم هاجر مع الارستقراطيين عام ١٧٩٢، وأقام في انكلترا، ولم يعد منها إلا عام ١٨٠٠. وبعد عودة النظام الملكي عين سفيراً في لندن، ثم وزيراً للخارجية من عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٢٤. اشهر مؤلفاته: «عبقرية المسيحية»، و«مذكرات من وراء القبر»، و«رحلة من باريس الى اورشليم». كان واسع الخيال، متألق البيان، جمع بين رهافة الشعور، وقوة البلاغة، وروعة الوصف، فجدد مناهل الفكر في فرنسا، وكان من أشد الكتّاب تأثيراً في ابناء عصره والاجيال التالية.

ويوم قاتل رجال عبد الكريم متطوعاً ، كان قد تصوّر امرءاً يتغلب فيه حب المغامرة على الخوف من الموت ، فأراد ان يقتدي به . وها هو يجتهد الآن ليخلق في اعتقاده شخصاً يرى الموت جميلاً اذا كان سببه مرض الجذام . وهو ينصرف بكليته الى العمل الفكري كلما مرَّ بفترة من فترات هذا الخلق ، فيخطيء من وجهة التأليف الأدبي ، إلا ان خطيئته تنقذه من النكبة التي حلت به .

وما دام غوته ، وهو الرجل الشهير ، قد كتب : « ثمة اربعة اشياء اكرهها كرهي للسم والأفاعي ، وهي : دخان التبغ ، والبق ، والثوم ، والمصلوب » ، ثم تجرأ على القول : « أفضل أن يسيء الدين المسيحي اليّ ، على أن أُحرم استخدامه لأجعل رواياتي التمثيلية جديرة بالاهتمام » ، فلا يجوز أن يُرجم بالحجارة من يحلم باستخدام الدين المسيحي ، لا ليجعل تمثيلياته جديرة بالاهتمام ، بل ليتمكن من العيش وهو مجذوم . انه يتعاطى الدين كما يتعاطى المريض الدواء .

وكان يخطر في باله أحياناً أن رغبته الشديدة في مجامعة النساء تعصمه من الجذام ، فيقول في نفسه : « سيتلاشى المرض من جسدي يوم أصل الى باريس وأعانق غيغيت . لا ، ليس من المحتمل ألّا ينتصر حب الحياة على الموت متى كان عظيماً مثل حبي ، وليس من الممكن ألّا يهزم السرور الموت متى بلغ حداً معيناً من القوة » .

وفي أحيان أخرى كان يتبادر الى ذهنه جديّاً انه لو عانق غيغيت أو امرأة أخرى مرة واحدة لهان عليه الموت . وقد تذكر قصة روتها له احدى الممرضات ، بطلها احد جرحى الحرب جرحاً خطراً ، كان ينتزع أوسمته من صدره وينظر الى هذه الممرضة بعيني ذئب جائع وهو يصيح : « لا تهمني الأوسمة . ما أريد هو الجماع ... مرةً واحدة قبل الموت » .

لماذا لا تتألف جمعية نسائية تجعل واجبها القيام بتعزية المرضى

المحكوم عليهم بالموت ؟ ألا يمكن انشاء مؤسسة خيرية من هـذا النوع ؟ لماذا لا تقوم احـدى الرهبانيات بهـذا العمل الذي يبلغ احيانـاً ذروة السمو في الاحسان ؟

ها هو من جديد في فرنسا العجوز المفتقرة الى كل شيء . لا ماسحو احذية في الشوارع ، ولا من يحمل لك حقيبة ، والسواكير تنطفىء من تلقاء نفسها .

ولم يكن خادمه بيكار قد عاد بعد الى شارع هنري مرتان ، فقـد ذهب الى قريته في الريف لما سافر كوستال الى المغرب . ولا ريب في انه لم يتلق بعد الرسالة التي دعاه بها الكاتب للعودة الى العمل .

وكانت رائحة المنزل كريهة كرائحة البيوت الـتي تخلو مـن سكانها وتغلق ابوابها ونوافذها مدةً طويلة ، تمازجها زنخة دخان التبغ . فـلا شك في ان بيكار دخّن ونسي ان يفتح النوافذ .

اما الجو فكان شبيهاً بجو بيت مات فيه احدهم ، ثم هجره السكان . ورأى كوستال من النافذة جارته العجوز فقال في نفسه : « هذه امرأة اخرى لم تمت بعد ! »

وفي هذه الغرف الخالية ، المكسوّة بالغبار ، الغارقـة في الكآبـة ، بين النوافذ القذرة الزجاج ، والسجاجيد الملفوفة ، استولت على كوستال ازمة جديدة من الضعف ، كأن اشباح جميع الازمات التي مـا برحت ترهقه منذ خمسة اشهر قد احتشدت حوله ، فعاوده الحنين الى سولانج .

لم يجرؤ على فتح حقائبه لئلا يزيد مكتبه فوضى ، فقد امر خادمه ، قبل سفره ، بالّا ينقل شيئاً مـن مكانـه ، فكان الترتيب مفقوداً في جميع الغرف .

احس بالبرد في ذلك اليوم السابع والعشرين من نيسان ، ولم تكن نار التدفئة المركزية قد أشعلت بعد ، وبـدت السماء عابسة ، فدخـل

غرفته واستلقى على سريره كما كان يفعل من قبل كلما تعب .

ويجب ان ندرك انه كان في تلك الساعة :

١ً — رجلاً تنتظره عشرة اعوام يعاني خلالها مرضاً فظيعاً لا امل بالشفاء منه .

٢ً — انه فقد الكثير من قدرته على المقاومة من جراء الصدمة القاسية التي حلّت به لدى اكتشافه بقعة الجذام في معصمه ، وبعد رحلته الطويلة التي استغرقت يوماً كاملاً في الجبال على ظهر بغل ، ثم تلتها رحلة في السيارة طوال ثماني ساعات ، ورحلة في البحر الهائج استمرت خمساً وسبعين ساعة ، ورحلة في القطار مدتها سبع ساعات .

٣ً — ان منزله البارد ، العديم الترتيب ، كان يصب في نفسه سيلاً من الهموم .

٤ً — ان صورة سولانج كانت الى جانبه في كل مكان كالظل المشؤوم .

وكانت هذه المتاعب تكفي ليستلقي على سريره من جديد ، ولا يأتي بحركة .

اما جبنه الذي جرّه في الباخرة الى الدين المسيحي (وقد تلاشت طلاسم هذا الدين الآن) فقد بدأ يجرّه ، في كآبته ، الى المرأة ، الى المرأة « المعزّية » ، الى المرأة « الملاك الحارس ! »

يا لها من اعتبارات مدهشة ومشؤومة في اذهان الرجال ! فالحقيقة الوحيدة هي ان الرجل لا يلجأ الى هذه الأساليب إلا حين يكون مغلوباً على امره — وإن موقتاً — فيقترب من المغلوبة على الدوام : المرأة .

في العصور القديمة كانت كلمة « مغلوب » تعني المرأة . وكانت ثمة شعوب ، اذا ارادت ان تذل العدو ، دمغته برسم زاوية تمثل الفرج .

والى اي امرأة يلجأ كوستال ؟ انه يلجأ الى سولانج ، ويا له من شذوذ عجيب ! ذهب الى التي ألحقت به ضروباً من الشر ، كما يذهب

الكلب الى سيده الذي ضربه ، ويرتمي على قدميه .

وتذكر اعلاناً كان معلقاً على باب حافلة القطار ، جاء فيه : « دخول هـــذه الحافلة محظور على كل مريض مــن شأن مرضـه ان يزعج المسافرين » .

وخيّل اليه انه حجر أُلقي في بئر الابدية التي لا قرارَ لها .

ونشأت في ذهنه فكرة مذهـلة نشوءَ الاعشاب الضارّة في الارض الهزيـلة ، اذ خطر في باله ان سولانج قادرة على اغاثـة رجـل سيدب الفساد في جسده وهو حي ، وقادرة على تقويته معنوياً ، وعلى تعهّـده بالعناية . ومتى كانت سولانج الى جانبـه لا يعود منزله في نظره ضريحاً له ، ولا يضطر الى الانفراد بنفسه ، وهو الآن يرتعد منه فَرَقاً . لقد أزال المرض من نفسه حبّه للانفراد .

احس ان ميله الى الآنسة دندبو عديم النبل ، وانه يلقي الآن عليها نظرة عرفان بالجميل كالتي كان يلقيها في الباخرة على خادمه البحّار كلما ساعده في مقاومة الدوار لدى اشتداد العاصفة . فالمريض يجعل النبل دائماً في الدرجة الثانية من الاهمية .

أتوافق سولانج على الاقتران به متى عرفت حقيقته ؟

قرر ان يطرح عليها هـذا السؤال بطريقة عامّـة ومبهمة ، كأنْ يقول لهـا : « أتقدمين على الزواج برجـل مجذوم اذا كنت تحبينه ؟ » وكان على يقين من انها ستجيب : « نعم ! »

على هذه المخدة التي يلقي عليها رأسه التقى رأساهما اكثر من مرة . واسترسل في خياله ، فحسبها الى جانبه ، يخاطبها ويسمع صوتها . قال لها : « هربت منكِ مرتين بعد ان بعثتُ في نفسك الامل ، فصفحتِ عني . حنثتُ بوعدي ، فصفحتِ عني . ساورني الحذر منك ومن امك . اما الآن فاني أتلو قانون الايمان بالطبيعة البشرية واستسلم لك » . وختم حديثه بالعبارة التقليدية التي يقولهـا الرجل الكبير حـين يدب فيـه

الوهن : « أريد أن أحيا وجبهتي متكئة على ركبتيك » .

وفي احدى فترات التأمل ، انتابته رغبة شديدة حارّة في أن يعقد زواجه بسولانج حالاً ، فهبّ واقفاً وهرع الى الهاتف . أحب أن تأتي اليه في ذلك المساء . فاذا وصلت وقالت له : « نعم » ، سهل عليه أن يسمع : « نعم » الطبيب عندما يقول له : « نعم ، انك مصاب بالجذام ! »

غير ان الهاتف ظل صامتاً . ربما قُطع خطّه لأنه لم يدفع الرسوم المترتبة عليه . وفي اثناء اقامته في جبال الأطلس كان يزعم انه لا يدري الى من يجب أن يدفع هذه الرسوم . لا بد اذاً من الخروج لتوجيه رسالة الى مصلحة الهاتف .

ما أفظع العزلة !

كان له في ما مضى وجه صديق حبيب ، فأصبح اليوم ضرباً من الوحشة المفعمة بالكآبة .

ارتدى ثيابه وخرج هرباً من الاقامة في المنزل الضريح . ولم يكن قد فتح حقائبه بعد ، فقرر أن ينزل في الفندق حتى اليوم التالي على الأقل .

وها هو في الفندق .

وما العمل الآن ؟

استيقظ فيه الجانب القوي من نفسه ، ربما لأنه وجد نفسه في غرفة نظيفة ، حسنة الترتيب ، فعاد الى عمله الأدبي عودة الهر الى الفأر ، ليتحرش به قليلاً قبل أن يهجره كلياً .

جلس الى الطاولة وتناول مخطوطته ، فقرأ بعضها حتى وصل الى الصفحة التي توقف فيها عن الكتابة في جبال الأطلس يوم اكتشف بقعة الجذام في معصمه .

ما كاد يكب على العمل بهدوء ، كما كان يفعل في منزله بشارع هنري مرتان ، حتى تلاشت حوله المتاعب كما كانت تتلاشى هموم الزواج لدى لجوئه الى الكتابة .

يظن المرء انه لو رأى يديه مصفدتين بقيد رجال الشرطة لأُغمي عليه . وحين تقيّد يداه لا يبقى مالكاً وعيه وحسب ، بل يرى انه يستطيع أن يتذوق فنجان قهوة أو كأس خمر ويداه مصفدتان .

وهكذا باشر كوستال عمله باهتمام وهو على يقين من ان هذه اليد التي يكتب بها ستفسد قريباً ، وتهترىء ، وتتساقط أصابعها تباعاً ، فلا يبقى منها سوى جَدَعة شوهاء ، ومن ان القيح سيسيل من انفه ، ومن ان اعضاءه التناسلية ستجف وتنفصل عن مكانها في جسده .

وعلى الرغم من هذا اليقين راح يكتب ، وينقّح ، ويضيف ، ويمحو ، ويبحث في ذهنه ثلاث دقائق ليجد كلمة « دقيق » .

وبينا هو في هذه الغمرة من النشاط ، رنّ جرس الهاتف ، وسألته سولانج أيريد أن تأتي اليه ، فبدرت منه حركة تدل على التذمر وفراغ الصبر .

حقاً ، ان في الدنيا نساء يعدن الى حياتهن الرتيبة ، والى حياكة الصوف ، بعد مرورهن بأزمة كبرى ...

٢١

تخلّت سولانج عن رغبتها في الزواج بكوستال دون أن تنقم عليه . فالأماني الخائبة لا تلبث أن تتقلص وتزول . وهذا ما ستراه في الفصول التالية من جديد بالنسبة الى البطلة الثانية في هذه القصة .

أذعنت الآنسة دنديو للأمر الواقع ، لكنها احتفظت بمودّة لكوستال لا تخلو من الحب ، فكانت تردد : « انه يجتذبني كما يجتذب المغنطيسُ الحديدَ ، وأنا عالقة به كالحديد بالمغنطيس » . وقد أثبتت لها الرسائل ، التي كان يوجهها اليها بانتظام من أفريقيا ، انه يبادلها المودّة والعطف ، فأحست ان صيحتها : « لا ! لا ! لا أريد أن أخسرك ! » ما تزال تتردد في أعماقها ، فراحت تقول في نفسها : « ليفعل ما يشاء ، فأنا مستعدة لقبول كل شيء لتبقى علاقتنا كما كانت قبل سفره » .

لم تكترث بفقدان العلاقة الجنسية التي كانت تربطها به . غير انها لم تستطع التخلي عن قبلاته ، عن عناقه ، عن وجوده الى جانبها . لم تقو حتى على التفكير بهذه الخسارة . فلو ابتعد عنها بعض الوقت لاحتملت مصيبتها بصبر ؛ اما ان يهجرها الى الأبد ، فأمرٌ تعجز عن احتماله .

لو تلقت من كوستال ، يوم كان في المغرب ، اقتراحاً جديداً كالاقتراح الذي قدمه لها منذ ثلاثة أشهر ، عارضاً عليها أن تأتي الى منزله في شارع هنري مرتان لتمضي الى جانبه أياماً من كل اسبوع ، لما انتفضت

ثائرةً كما فعلت في المرة الأولى . إلا ان الكاتب حرص على تنامي هـذا الموضوع لئـلا توافق عليـه ، فيضطر الى ملازمتها مـدةً معينـةً من حياته ، ولا تلبث ان تتدخّل في شؤونه الخاصة وتفرض نفسها عليه .

وكانت قدرتهـا على المقاومة تتراخى كلما تذكرت اقامتها معـه في جنوى ، حتى انها سألته في احدى رسائلها ، بـلا حياء ، أيستطيعان العودة الى ايطاليـا ، فاعتذر متذرعاً بكثرة أشغاله . ثم أعادت عليـه الكرة ، وكان طموحها قـد خفّ ، ورضيت بتمضية بضعة أيام معه في احد الأرياف القريبة من باريس عندما يأتي فصل الربيع ، فأجابها اجابة مبهمة .

وفي هـذه الاثناء ، لم تكن تجهل انهـا ستخسره كليـاً متى تزوجت بسواه . غير انهـا كانت تفكر بان هـذا الزواج مسألة أخرى لم يحن الوقت بعد للاهتمام بهـا . فكل فتاة تعتقد اعتقاداً ثابتاً ان الزواج يأتي في حينه دون أن تبذل في سبيله المساعي .

اما السيدة دنديو فلم تتأثر كثيراً لما تلقت رسالة كوستال الأخيرة ، ولم تجد فيها ما يدعو الى الدهشة أو الاستغراب ، لأنها لم تكن تشاطر ابنتها ثقتها بمتانة تلك الخطبة . وربما ساعدها ترمّلها على احتمال الضربة القاسية بسهولة . استاءت مـن رسالتـه ، لكنها احتفظت بهـدوء أعصابها ، ولم ينفجر غيظها كما لو كان السيد دنديو حياً في هذه المغامرة . فثورة الأعصاب وحدها تفقد المرأة اتزانها ورصانتها .

منـذ عشر سنوات احست السيدة دنديو انهـا اوفر قوةً ، واشد سيطرة على نفسها . ذلك انها صارت تنام في غرفة غير غرفة زوجها . فقد شعرت ان سريرها لها وحدها ، تستطيع التحرك فيه على هواها ، وان شراشفها لا تُستعمل لأحـد سواهـا . فاطمأنت وادركت ان الزواج كالجحيم اذا كان الزوجان ينامان في غرفة واحـدة ، وكالمطهر اذا نام كلٌّ منهما في غرفة . امـا اذا سكن كل منهما في بيت بعيد عـن بيت

الآخر ، واتفقا على ان يلتقيا مرتين في الاسبوع ، فقد يصبح الزواج نعيماً .

ولم يكن في وسع السيدة دنديو ان تحقد على احد غير زوجها ، فما نقمت على كوستال ، وراحت تعزي نفسها بالاعتبارات المبتذلة التي تلجأ اليها جميع النساء في الأزمات . فالمرأة تحتاج الى الشعور بانها محمية ، وبان لها حصانة معصومة ، لتستطيع الابتعاد عن هذه الاعتبارات .

كانت تقول ، مثلاً : « لا يمكن ان نتوقع من الرجال سوى الخيبات . هذه سنّة الحياة . وافضل ما نفعله هو ان نحب ... حلماً . فالوهم اجمل ما في الحياة ، لأنه اساس حبنا الانساني المسكين ... »

بهذه البلاهات كانت تعزي نفسها ، وتحاول تعزية سولانج ، كما تروي الامهات حكايات الحوريات لجلب النعاس الى عيون ابنائهن .

والمعروف عن السيدة دنديو انها كانت ضعيفة مع ابنتها ، وعزلاء من كل سلاح ، لانها كانت تبحث في هذه الابنة عما تبرّر به وجودها . لذلك كانت تعتبر ضعفها وهزال شخصيتها نوعاً من التجرد ونكران الذات .

نصحت كوستال بالسفر ، لكنها لم تحظر عليه الاتصال بسولانج . ولم تكن مرتاحة الى استمرار تبادل الرسائل بين كوستال وابنتها لاعتقادها ان هذه الرسائل تغذي عاطفة يائسة من الافضل ان تختنق وتموت . غير انها لم تطلب الى كوستال ان يقطع رسائله عن ابنتها ، لانها رأت سولانج مسرورة بها ، تستمد منها الكثير من البهجة والنشاط .

عاشت هاتان المرأتان في الغموض لانهما خُلقتا له . ولما لمّحت سولانج الى العلاقات التي ستتجدّد بينها وبين الكاتب لدى عودته من المغرب ، كأنها علاقات طبيعية لا غبار عليها ، ما دامت في الظاهر « على صعيد الصداقة البريئة » ، لم تُبدِ السيدة دنديو اقل احتجاج . وكانت تعلم

انها ستضطر يوماً ما الى وضع حدٍّ لهذه العلاقات متى ارادت ان تزوج ابنتها ، لاعتقادها ، كسولانج ، ان هذا الوضع لا يمكن ان يستمر بعد الزواج . إلا انها كانت تؤجل دائماً البت في هذا الامر على امل ان يسأم هو ، او تسأم هي ، فيتم الانفصال دونما حاجة الى تدخل احد .

ولما ذهبت سولانج الى الفندق الذي دعاها اليه كوستال كانت تشعر بانها عادت الى حياتها الماضية واستأنفتها من النقطة التي توقفت عندها منذ ثلاثة اشهر . غير انها قفزت من فوق جثة حلم الزواج لتكمل طريقها . وعلى الرغم من استمرارها في التبرج القليل عادت الى تسريح شعرها على طريقة الفتيات العذارى . فهذه حال جميع النساء ، لا تحول ولا تتبدّل ، من اندريه هاكبو ، الى خديجة ، الى سولانج .

وكان كوستال ينتظرها في بهو الفندق ليجد ذريعة تمنعه من تقبيلها ، خوفاً من انتقال عدوى الجذام اليها . فلما قدّمت له وجهها ، وقال لها : « بعد قليل ... فالناس ينظرون ! » اخذتها الدهشة . لكنه عالجها باللطف والكلام المعسول حتى استأنست . وكم كانت العودة الى الحياة الماضية في منتهى البساطة !

شابت علاقتها المتجددة كونها عابرة لا اساس لها . إلا أن سولانج فكرت بانها علاقة حسنة على كل حال ، ومن المحتمل ان تستمر طويلاً ، ناهيك بخلوّها من الرغبة في الزواج ... هذه الرغبة التي تصلّب الارادة وتوتر الاعصاب . ففي مثل هذا الجو لا تحتاج سولانج الى تعذيب من تحب ، فتراه سعيداً بحصوله على ما يحب ، وعلى ما كان يود من استمرار علاقة الحب بينهما ، لا اكثر .

وكان كوستال قد قرر ألّا يتحدث اليها جدّياً إلا بعد العشاء ، فتناولا طعامهما في جو من البهجة والسرور ، وروى لها أخبار رحلته وعمله . ومن حين الى آخر كان يفتح حقيبتها ويبدي ملاحظات مزعجة ولطيفة معاً بشأن الأشياء النسائية التي تحتويها ، كما كان يفعل من قبل .

ولم تكن غايته إلا تعذيبها قليلاً ، فهو يحب أن يعذّب حتى النساء اللواتي يحببهن .

أخبرته بانها شفيت من دماملها ومن افتقار جسمها الى الكلس ، فأجابها :

– هذه نتيجة طبيعية . كان من الضروري أن أصارحك باني لا أريد الاقتران بك لأعيد اليك العافية . واني لعلى يقين من ان بولنا لم يعد أصفر كما كان .

وكان هذا القول صحيحاً ، فخلال الاشهر الثلاثة الماضية شفيت سولانج من كل ما كان قد ألمّ بها ، مع ان المنطق الطبيعي كان يقضي بان تتفاقم حالتها الصحية بعد الضربة القاسية التي حلّت بها . فالجسم البشري شيء عجيب كالروح ، اللهم إلا اذا كانت سولانج قد أفادت من العقاقير التي تناولتها ... فاذا صحّ هذا الاستنتاج تكون المسألة غير جديرة بالتفكير .

وكانت كلما أدار وجهه عنها قليلاً ، تفتح حقيبتها ، وتنظر الى مرآتها الصغيرة ، وتصلح تبرّجها ، فلا يوبخها ، بل يتكلم بصوت مرتفع كما يفعل جميع الشبان . ولأن أقواله كانت كلها مبالغات لا تُصدّق ، اضطرت الى تأنيبه قائلة : « أخفض صوتك ! » وكانت جالسة على قفازيها ، وكانت هذه عادة عزيزة عليها .

قالت له :

– ما يزال كل شيء على حاله منذ اشهر . فقد تناولنا الطعام في هذا المكان ، وجلسنا الى هذه الطاولة ... لم يخطر في بالي ، يوم ابتعدتَ عني، اننا سنلتقي بعدُ ، ونعود الى ما كنا عليه .

فأجابها بطيش لا يخلو من القساوة ، مع علمه بانه لا يجوز للمحدث اللبق ان يذكر محدثيه بهزائمهم ، فقال :

– اما انت فقد تغيّر فيك شيء . ويبدو لي اني لو اقترحت عليك

الآن ان تسكني معي ، في منزلي ، من حين الى آخر ، لقبلتِ ، مع ان هذا المشروع كان قد اجفلك في كانون الثاني الماضي .

– قلت لك ، يومئذٍ ، ان وضعاً كهذا لا يجوز ، لأن عار الفضيحة يلوّث امي . إلا اننا نستطيع ان نجد حداً وسطاً : لا « اسكن » في منزلك ، بل امضي عندك جانباً من النهار في بعض ايام الاسبوع ، فاعيش في جوّك ، واشاركك في حياتك اليومية . من المفروض فيّ ان اكون لك سكرتيرة . وفي وسعي ان اقوم بهذا العمل الى حدٍ ما . واود بحرارة ان اقدم خدمةً لك في سبيل عملك . لماذا لا تقول اني ابنة عمك ؟ لا يصعب علينا اكتشاف علاقة نسب غامضة بيننا !

– تعلمين جيداً انه يجب عليك ان تسعي الى الزواج ، فكيف تقبلين الاقامة في منزلي بعض الوقت كأنك خليلتي العلنية ؟ ومن يصدق انك سكرتيرتي او ابنة عمي ؟ ثم كيف تستطيعين اقناع زوجك المرتجى بانك فتاة طاهرة ؟

نظرت اليه بعينين مليئتين بالأسف كعيني تلميذة امام عملية حسابية صعبة ، ثم قالت :

– أيخطر في بالك ، لحظة واحدة ، ان هذا الوضع لا يكون صعباً عليّ ، وحافلاً بالمتاعب والآلام ؟ لكني مذعنة له لانه ضروري ، ولا مفر منه ...

– ماذا تعنين بـ « انه ضروري » ؟

طرح عليها هذا السؤال وهو يدرك تماما ما تعني ، فاجابت :

– انه ضروري لاني احبك . لكنك لم تشأ قط ان تفهم اني احبك .

– صحيح . ربما كنت لا ادرك حب المرأة لي ، لأن هذا الحب لا يعجبني ، ولا اجد فيه ما يسرني . غير اني هذه المرة متأثر بكونك حافظت على حبك لي بالرغم من اساءتي اليك . سنبحث مشروعك فيما

بعد ، فهو يتعلق بقضية ساطلعك عليها بعد العشاء .

ثم قالت له كلمة بالفة الشراسة ، فقد كتبت اليه ، يوم كان في المغرب ، ان مربي خنازير من نورمنديا طلب يدها ، وعلّقت على هذا الخبر بقولها :

– ربما قررتُ يوماً قبول طلبه .

– أتفضلينه على المهندس توماسي ؟

– أجل ، افضله عليه ، لاني لا اعرفه !

وقبل خروجهما من المطعم ساعدته على ارتداء معطفه ، فارتاح الى ما وجد فيه من الدفء .

وفي طريقهما الى الفندق قال لها :

– يجب الآن اطلاعك على الحقيقة ... اني على شبه اليقين باني أُصبت في المغرب بمرض عضال ، لا تنتقل عدواه بسهولة كما يظن الناس ، إلا انها تنتقل إن لم تُتخذ التدابير الواقية . فبوسعنا ان نتابع علاقتنا ، وان نلتقي ، لكن يجب الانقطاع كلياً عن التورط في الوصال الجنسي . وساشرح لك كل شيء في غرفتي .

وكانت تسير الى جانبه صامتة ، تنظر الى رأس حذائها ، ثم قالت :

– اظن اني حزرت .

– لا تستطيعين ان تحزري . لعلك تظنين انه من الامراض التي يقال لها زهرية ؟

– نعم .

– انك مخطئة .

وفي المصعد ، راحت تنظر اليه صامتة ، وقد بدا عليها التأثر والارتباك . وما إن دخلا الغرفة حتى قال لها :

– اجلسي هنا .

لم يشعل الكهرباء . فأشعلتها . فأطفأها .

وكانت تتسرب من بين ستائر النافذة أضواء حمر من واجهة احدى دور السينما المجاورة ، أشبه بأضواء لهيب جهنم ، فتخلق الجو الذي يحبه مفيستو ذو القروح .

كانت جالسة على احد الكراسي ، فجلس على كرسي آخر امامها ليكونا وجهاً الى وجه ، ووضع يده على معصمها . ولما تناولت يده سحبها منها قائلاً :

— ضعي يدك على معصمي فوق الكمّ اذا شئتِ ، ولا تمسّي بشرتي .

وظلّا برهة في هذا الوضع كأنهما يتصافحان على طريقة الرومانيين القدامى بالقبض على المعصم ، ثم قال :

— لا تخافي ، ولا تتأثري . اذا كنتُ مصاباً بهذا المرض — وأنا على يقين باني مصاب به — فاني استطيع ان اعيش عشر سنوات بكثير من العناية وأكثر من الآلام ، ثم انتهي كأني مسخ تجسدت فيه الفظاعة . لكن لا مجال للتفكير بهذه النهاية لأني سأنتحر في الوقت المناسب . وبانتظار ما سيكون ، سأظل مخلوقاً طبيعياً على وجه التقريب ، ونستطيع ان نلتقي بعض الوقت ، شريطة ان لا يمس احدنا الآخر ... إلا من فوق الثياب ، كما نحن الآن .

لم يفرغ صبرها ، ولم تلحّ عليه لتعرف حقيقة مرضه ، ولم تصرخ به : « وبعد ، فقل لي ما هو هذا المرض ؟ » بل ظلت كما كانت : « الآنسة سكوت » ... ظلت في ذهولها تنتظر النهاية . انها تنتظر دائماً !

وتحت النافذة ، رنّ جرس السينما في الشارع ، ثم نبح صوت يقول : « الدخول فوري ومستمر ! القاعة هوائية ! فيلم حب ومغامرات ! جميع أخبار الساعة ! »

فجعل كوستال يسائل نفسه : « ما معنى هذه الاقوال ؟ وكيف تكون

القاعة هوائية ؟ وما هو الدخول الفوري والمستمر ؟ »

كاد هـذا الخلط يفقده رشاده ورباطة جأشه . غير انـــه عاد الى موضوعه فسأل سولانج :

— أتدرين ما هو مرض هانسن ؟

— لا .

— أتدرين من هو الابرص ؟

— الأبرص ؟ لم اسمع به . لعله البخيل . قل لي ماذا ...

— أتدرين ما هو الجذام ؟

فسحبت يدها عن معصمه بحركة عفوية كأنها لامست تياراً كهربائياً . ومهما يكن مقدّراً للاحوال ان تتطور بينهما في الآتي مـن الايام ، فلن ينسى كوستال هذه الحركة وهذا الخوف الغريزي من ملامسته .

قالت :

— لا ، لا يمكن ان تكون مصاباً ...

— بلى ، او بالحري ارجّح اني مصاب .

— لا ! غير ممكن ، غير ممكن !

وتحت الاضواء الحمر ، بدا الذعر على وجهها ، فرأى كوستال صورة بليغة مـن صور جهنم ، وراح يتكلم بسرعة وفصاحة ليعود الى الصعيد البشري ، قال :

— انك لا تعلمين ما هو هذا المرض . والناس عنه فكرة خاطئة . ففي باريس ثلاثماية مجذوم ، عشرون منهم فقط في المستشفيات ، وفي ردهات عامة ؛ اما الباقون فيعيشون بـين الناس ، ويختلطون بالجماهير ... ربما كان الخادم الذي قدم لنا طعامنا في المطعم مجذوماً ... وثمة نساء عشن ثلاثين عاماً مع ازواج مجذومين ، فلم تنتقل العدوى منهم اليهن . ليست هـذه الاقوال مزاعم بعيدة عن الحقيقة سمعتها من الذين أرادوا تخفيف مصيبتي . لا ، لم يقلها لي احد ، بل قرأتها في كتاب طبي ، وما عليكِ إلا

ان تشتري كتاباً مثله .

— كيف أصبت بهذا المرض ؟ هذا اذا سلّمنا جدلاً بانك مصاب به ، لكني لا اصدّق ...

— انتقل اليّ من امرأة .

ان الحقيقة فاتنة باهرة كالموت .

وبعد صمت قصير ، استطردت سولانج قائلة :

— أكانت امرأة عابرة أم خليلة قديمة ؟

— كانت خليلتي منذ اربع سنوات . وهي افريقية .

وكانت تنظر اليه بعينين متسعتين رعباً وجامدتين ، يكسوهما الضوء الاحمر ، كعيني طائر ليلي مصلوب على الحائط تخضبه الدماء .

امـا هو فكان تحت تلك النظرات كحيوان ضعيف من حيوانات الحقل ، انطوى على نفسه ، واقشعر رعباً تحت عيني احد الكواسر .

ان بلاهة الافلام السينمائية الـتي تمهّر كل مأساة كانت أعجز من ان تشوّه صورة ذينك الوجهين المتقابلين في ذلك الجو الرهيب من الذعر . فقد بدت الحياة قويةً لا تقهر في تلك اللحظة .

قال لها :

— اذا كنتُ أخيفك ففي وسعك ان تذهبي في سبيلك حالاً ، وان لا تري لي وجهاً بعد اليوم ، واني لأعتبر تصرفك هذا طبيعياً للغاية .

— لست خائفة . اني اصدّق ما تقول . واعلم ان لا خطر عليّ . فلو كان الدنو منك خطِراً لما دعوتني .

يا لثقتها المطلقة به !

ولم تكتفِ بالقول ، بل أرادت ان تعطيه برهانـاً حسياً عن انهـا غير خائفة ، فوضعت يدها على معصمه ، ثم ابتسمت له قائلة :

— قلتَ لي : « لا تتأثري » ، فكانت هذه النصيحة عديمة الجدوى ، لأني سأتأثر حتماً متى اعلن الاطبـاء انك مصاب . وقبـل الوصول الى

هـذه النتيجة لا اصدق انـك ابرص ، او بالحري لا اصـدق إلا نصف تصديق .

ولم يكن كوستال مسروراً بشكها في حقيقة مرضه . ولو خُيّر في تلك اللحظة بين ان يكون مصاباً او غير مصاب ، لكان من المحتمل ان يختار المرض ليقنعها بانه لا يداجي .

حدثها طويلاً عن الجذام ، بينما كان جرس السينما يرنّ من حين الى آخر . وكان ، كلما سمع ذلك الرنين ، يتذكر اجراس البيوت السرية التي كان يذهب اليها مع احدى النساء ، فترن الاجراس لتنبّهه الى ظهور خطر مباغت . وفي هذه البيوت كان يشتبه الامر عليه احياناً ، فيظن انـه في منزله ، وان الجرس الذي يرنّ هو جرس بابه ، فيخرج الى البهو حافياً ، ومسدسه في يده ، ليرى هل هناك رجل يريد الدخول ، وهو مستعد ان يضرب الباب بقبضته ان لم ينفتح امامه بعد لحظة .

وكان يقف مفكراً بان امامه عدواً لا تفصله عنـه إلا لوح من الخشب .

وفي اثناء حديثه ، كان وجه سولانج هادئـاً ، اكثر هدوءاً مما كان ساعة دخولها الى الغرفة . كان هادئـاً وعليه طابـع التفكير العميق .

قالت له كلمات عذبة لتعيد اليه ثقته بنفسه . وكانت تستعمل باصرار لفظتي : « لو » و « اذا » ، لتجدّد فيه الأمل ، قالت :

— اذا كنتَ مصاباً بهذا المرض فمن المحتمل ان يحلّ بك ما هو أشد منه وأدهى ، كأنْ تموت فجأة . اعترفتَ لي مرةً بان اوراقك غير مرتّبة . وقلتَ ، منذ هنيهة ، ان امامك عشر سنوات من الوقت ، وهذا وهم ! فليس بين الاصحاء من يحمل ضمانة بانـه سيعيش عشر سنوات في هذه الايام . لا تنسَ ان الحرب قـد تنشب بين يوم وآخر . واذا قُدّر لك ان تعيش فانك ستبلغ ، بعـد عشر سنوات ، الخامسة والاربعين .

وليس في وسعك ان تزعم ان الكتّاب ، في مثل هذه السن ، يكونون قد عبّروا عن كل ما يريدون التعبير عنه ، ولم يبقَ لهم إلا ان يجترّوا اشياء من كتاباتهم السابقة .

قال في نفسه : « ما ابرعها في اظهار الحقيقة ! فكل ما تقوله صواب . كنت ألمس احياناً براهين ساطعة عن انها لا تفهمني ، ولا تعرف من انا . اما الآن فيبدو لي انهـا تفهم وتعرف . وما اعظم حكمتها وحصافتها ! انها فتاة ممتازة على كل حال » .

وفي هذه اللحظة أراد ان يطرح عليها السؤال الذي مـا برح يتردد في خاطره منذ التقائها ، فقال لها :

— أتفضّلين الزواج برجل أبرص تحبينـه ، على الزواج برجل سليم لا تحبينه ؟

— نعم .

وبعد صمت قصير استطردت مؤكدةً :

— طبعاً ، وبكل تأكيد .

طلب اليها ان تستلقي على السرير ، اذا شاءت ، دون ان تخلع ثيابها ، ثم قال لها :

— سأقبلك من فوق الثياب ، فلا أمس بشرتك ، او بالحري لن أقبّل حتى ثيابك ، بل القي بوجهي عليها ، وسألبس قفازيّ .

— وما الفائدة من القفازين ؟ ليس في يديك شيء .

لكنه لبس قفازيه ، واستلقى الى جانبهـا في الظلام ، اذ لم تكن الاضواء الحمر تصل الى السرير .

وكان جرس السينما يرنّ من حين الى آخر ، إلا ان صاحب الصوت المزعج انقطع عن المناداة .

اندست سولانج بين ذراعي كوستال منطوية على نفسها كما كانت في رحم امها . فظل فترة طويلة ملقياً خدّه على صدرها ، يتلمسها برفق كله

تحرك ليعرف مكان وجهها ويديها فلا يمسها بشفتيه .

أحس بالامان ينساب الى اعماقه ، وتذوّق عذوبة منعشة لم يدرِ انها كانت مزيفة ، وشبيهة بالموجة التي تشرئب ، وتلحس الشاطىء وهي تلمع قبل ان تزول الى الأبد .

ونبّهتها ضجة الناس الخارجين من السينما الى ان ساعة الفراق قد أزفت . فجلست سولانج على حافة السرير ، ولفّت جديلتي شعرها اللتين كانتا قد انحلتا كأنها تلميذة تستيقظ من النوم في مدرسة داخلية .

في اليوم التالي اصبح كوستال اشد سيطرة على نفسه بعد ان اخذ قسطاً من الراحة ، فقرر ان يباعد بين مواعيده مع سولانج حتى تنقطع علاقتهما كلياً ، مهما تكن كلمة الاطباء الاخيرة في حالته الصحية ، بعد ان قرر ان يعدل عن مشروع الزواج الارعن الذي كان قد فكر به في اليوم السابق .

وكان لقراره سببان :

فالسبب الاول انه لم يشأ ان يتزوج بفتاة ليجعلها ممرضة لرجل أبرص ، بعد ان رفض الزواج الذي يجعل منها رفيقة حياته .

والسبب الثاني – وهو الأهم والأوجه – انه لم يشأ الانزلاق على الطريق الخطِر الذي يضطر سالكه الى الرد على النبل بالنبل ، اذ لا يجوز ان يصبح السمو قادراً على كل شيء . فحال العالم تزداد سوءاً اكثر مما هي عليه اذا كان يكفي ان نضع درهماً من النبل في الكفة المشؤومة من ميزان الحياة لتحط هذه الكفة وتشيل الكفة الاخرى .

الموت في سبيل قضية لا يعني ان هذه القضية صالحة وعادلة .

لقد بلغت سولانج بتصرفها النبيل ذروة السمو، إلا ان سموها لم يكن يعني ان الزواج بها ليس حلاً رديئاً ومحفوفاً بالخطر وليس له مبرر .

فالقاعدة التي يجب ان يسير عليها اذاً هي اجتناب النبل ، وعليه ان

يردد دائماً : « كانت سولانج نبيلة معي ، وكان من واجبي ان اقابلها بالمثل ، غير اني لا ارى ما هو العمل الذي استطيع ان اكون فيه نبيلاً . واذا تابعنا سيرنا على هذه الخطة كانت العاقبة وخيمة حتماً ، لأن النبل ليس من الاشياء التي يجوز اللعب بها ... »

ولما التقيا بعد خمسة ايام لم يذهبا الى الفندق ، ولا الى منزل كوستال . وانما تذرع بخوفه عليها من العدوى ، فتنزها كأن احدهما غريب عن الآخر ، وحضرا احدى الحفلات الموسيقية . وكان كل شيء بينهما يضيع في اللامبالاة كما تضيع الانهار الافريقية في رمال الصحراء وتتلاشى كأنها لم تكن .



٢٢

انصرف الى اللذات، في هذا العالم الذي تسيطر عليه الفوضى.

عمر الخيام [١]

كل مخلوق ذكي على وجه الارض ينطلق كل صباح لاقتناص السعادة.

استندال [٢]

بعد ستة ايام، الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر، وصل كوستال الى ساحة القديس اغسطينوس متوجهاً الى شارع الجدلية. فالربيع كان ثقيل الجو، يكاد يكون لزجاً من تبخّر زفت الشوارع. والشمس محتجبة وراء ضباب ابيض لتستطيع ان تكون شرّيرة بكل هدوء، كما هي حالها في الصحراء الافريقية. وبعض المارّة يلفون على اعناقهم عصبات

---

١ - عالم وشاعر فارسي عاش ايام السلجوقيين وساهم في اصلاح الحساب السنوي الفارسي. توفي عام ١١٣٢. اشهر مؤلفاته: «كتاب المصادرات» على اقليدس، و«مشكلات الحساب». وله في الشعر رباعيات شهيرة، نقلها الى العربية شعراً وديع البستاني، واحمد الصافي النجفي، والسباعي، ونقلها نثراً احمد حامد الصراف. وقد تعلم الخيام على ابن سينا، واتصل بحسن الصباح الاسماعيلي.

٢ - كاتب فرنسي (١٧٨٣ - ١٨٤٢) وضع دراسة عن راسين وشكسبير. اشهر مؤلفاته: «الاحمر والاسود». وهو رومنطيقي النزعة، مرهف الشعور، لاذع التهكم، لم يشتهر الا بعد وفاته بزمن طويل.

عنق بالرغم من شدة القيظ ، لان هذه العصبات من مظاهر الاناقة واليسر .

خرج كوستال من عيادة الدكتور روزنبوم بعد ان استمر فحصه اربعة ايام بالاضواء الكهربائية ، فتبين انه خالٍ من المرض . لم تكن البقعة التي ظهرت في معصمه إلا حكّة بسيطة لا تبعث على القلق . اما الزكام فكان سببه البرد وهواء البحر . وحكاك الفخذين الذي زال كلياً نجم عن تبدّل المناخ بين المغرب وفرنسا ، وهذا ما يحدث للمسافرين في اغلب الاحيان .

قال كوستال يوماً للدكتور روزنبوم انه ما كاد يشتري قارورة الدواء حتى احس بتحسُّن صحته قبل ان يتناول من الدواء شيئاً . فقال الدكتور الى الاعتقاد ان كل ما شكا منه الكاتب كان وليد الوهم . وعلى المرء ان ينتبه لهذه الامور ، وان يقاوم بشدة ميله الفطري الى وضع نفسه في مواقف سخيفة ومضحكة .

هزىء الطبيب قليلاً بكوستال ، وقال له : « انك لواسع الخيال ! » فالقى عليه الكاتب نظرة احتقار من تلك النظرات التي يلقيها المريض بعد شفائه على طبيبه ، وكتلك النظرة التي القاها كوستال على زنار النجاة لما وصلت به الباخرة الى ميناء بوردو .

وراح كوستال يستعيد ذكرياته ، فقال في نفسه : « قال لي روزنبوم ايضاً اني جاموس عافية . ولعله لم يقل هذا القول إلا لأنه سيرسل اليّ فاتورته بعد ثمانية ايام ، وهو يريد ان احبه خلال هذه الايام الثمانية لابادر بسرور وسرعة الى دفع المبلغ المترتب عليّ » .

ولكن الدكتور « ليبشوتس » قال له ايضاً ان له جسماً متيناً كأنه مبني بالحجارة والكلس . وصارحه البروفسور في الطب « ليفي دورمر » بان له صحة جنرال بوليفي . ولما كان كوستال يحب الوثائق المخطوطة ، فقد اجاب كلاً من هؤلاء الاطباء الثلاثة : « اذاً ، فاعطني شهادة خطية

واذكر فيها ما قلت » .

هل كان سعيداً بهذه النتيجة ؟

لا ريب في ذلك !

ولكن هل كان سعيداً مائة بالمائة ؟

طبعاً ، لا . فقد اقتصرت سعادته على تسعين بالمائة . ومن المعروف ان الكاتب الشهير اذا قرأ مقالة تقريظ كُتبت فيه ، واكتشف سطراً واحداً منها فيه بعض التحفظ ، توقف عنده ، واصبح لا يرى من المقالة سواه . وهكذا اصبحت العشرة بالمائة من « لاسعادة » كوستال مستأثرة بالقسم الاكبر من اهتمامه . ولا ريب في ان أليعازر ، لما خرج من القبر ، أحس ان في حياته عشرة بالمائة من اللاسعادة ، وتذمر من يسوع المسيح .

فمنذ خمسة عشر يوماً ، كان مستقبل كوستال برمته مبنياً بناء متيناً على مرض الجذام ، فاذا بالبناء كله ينهار . ثم ان هذا المرض كان نوعاً من العظمة المستقلة بذاتها ؛ اما الآن فقد اصبحت العظمة تقوم اولاً على الاختراع ، وثانياً على الغزو والفتح ، وثالثاً على التنظيم . وبانتظار تحقيق هذه الاعمال ، لا بد من العودة الى الحياة اليومية العادية ، مما جعل كوستال يحس كأن باباً أغلق في وجهه .

وكان روزنبوم على حق حين قال له العبارة التقليدية التي يقولها الطبيب للمريض الذي أبلّ من مرضه : « لم يعد امرك جديراً بالاهتمام » . وما إن خطرت هذه الفكرة في باله حتى جعل يتمتم جملة يعتبرها تجديفاً وكفراً ، جملة يتنكّر لها ويبصق عليها ، إلا انه لم يستطع منعها من الصعود الى شفتيه اللتين راحتا تردداتها : « لم يبق امامي سوى مجرى الحياة ... »

أتراه لا يحب الحياة ؟

بلى ، ولكن خيّل اليه ان الجذام يجعل حياته اكثر اكتنازاً وأعمق

غوراً ، ناهيك بما تسببه الصحة الجيدة من المتاعب والمشاغل المزعجة .

يوم كان يظن انه مصاب بهذا الداء ألغى المحاضرات التي كان ينوي القاءها في الربيع ، وقرر ان يتحرر من جميع الارتباطات والتعهدات ، فتخلّص من جميع التزاماته وواجباته نحو المجتمع . اما الآن ... فلا بد له من العودة الى ما كان عليه .

لا ، لن يعود بسهولة . سيزعم انـه في طور النقاهة بعـد شفائه من مرض وبيل كالتهاب الرئتين او غيره ، وانـه بحاجة الى فترة طويلة من الراحـة . فحـالة المشرف على الموت مفعمة بنوع من الامتيـاز لا يجوز التخلي عنه بسرعة .

ولما فرغ من هذه التأملات قال في نفسه : « كفى حماقة ! يجب ان افكر بالامور المهمة ! » وفي هـذه اللحظة التقى رجلا وجهـه مكسو بالبثور ، فاقشعرّ بدنه اذ تذكر المصابين بالجذام .

وعلى كل حال ، اذا كان جذامه عزيزاً عليه الى هذا الحد ، فانه لم يفقد امله بان يكون مصاباً به ، لأن العوارض بطيئة ولم يحن وقت ظهورها بعد ...

في وسط التسعين بالمائة من سعادته ، وجد الحياة العادية ، والتقى فيها بابنه . ومن سيئآت الامراض انها تُكرهنا على الاهتمام بنفوسنا اكثر مما نهتم بمن نحب . وفي الاسبوع الاخير قرر كوستال ان يستدعي ابنه من انكلترا اذا كانت نتيجة فحصه الطبي سلبية ، فيتسنى لبرونيه ان يعيش في باريس حياة جديدة .

وتذكر الصيحة التي انطلقت من صدره في احد فنادق مراكش : « ما الذي سيحلّ به ؟ ماذا يحل بمن لا يحبه احد في هـذه الحياة ؟ » انه لا يستطيع ترديد هذه الصيحة دون ان يستولي عليـه الاضطراب . وكثيراً ما يضطرب حين يتذكر كلمات قالها في مـا مضى ، او كتبها في احد مؤلفاته . وهذا مـا جعله يتخذ قراره النهائي بشأن ابنه ،

فقال : « اذا أراد المرء ان يجعل من يحب سعيداً ، فليفعل فوراً ! »

وفي وسط العشرة بالمائة من لاسعادته ، وجد خديجة ومصيرها ، فعزم على مساعدتها والسهر عليها . وقد تحدث الى روزنبوم بشأنها ، فأجابه الطبيب بأنه يفضل ان تُعالج في فرنسا ، وفي باريس ، لا في فالبون . ووعده بأن يكتب اليها بهذا الصدد ، وبأن يعمل في سبيلها كل ما يمكن عمله .

كان كوستال سائراً على غير هدىً ، وهو غارق في تفكيره ، فوصل الى ساحة كنيسة المجدلية ، الى تلك الدرجة الحجرية التي جلس عليها مع سولانج ليلة خطبتها ... فقال في نفسه : « انتهى هذا الكابوس كما انتهى الكابوس الآخر » ، وقد عنى بالكابوس الآخر مرض الجذام الذي لا يقل هولاً عن الخطبة . وأحس بنسمة سعادة هبت عليه من عهد فتوته ، يوم كان في السادسة عشرة من العمر ، فاستطرد يقول : « نجوت من جذامين اثنين ، وعدت الآن اليك ، يا طهارتي الاولى ! فلأكن منذ اليوم جديراً بهذه الطهارة » .

ان المعبد الملقب باسم المجدلية ، على الرغم من الاوساخ الكثيرة المتراكمة عليه ، هو من الصروح النادرة التي تتحلى بمسحة من الجلال في باريس . فخامرت كوستال رغبة في الدخول اليه ، لأن في صدره روحاً دينية . واذا كان لم يرفع رأسه قط الى السماء ليبتهل ويطلب ، فانه يرفعه احياناً بطريقة فطريةٍ ليشكر .

ليشكر مَنْ ؟

ليشكر عبقرية ما هو مكتوب له في لوح القدر ، اي ليشكر نفسه في ما هو مقدّر له .

هذا المعبد كان الهيكل المسيحي الوحيد الذي يستطيع كوستال ان يتحمّله بين جميع هياكل باريس . أفتكون هذه العاطفة وليدة ذكرى عزيزة عليه ؟

يوم كان صبياً دخل الى هذا المكان المقدس ومدّ لسانه ساخراً من امرأة لا يعرفها كانت تصلّي ، فشكته المرأة الى مربيته الانكليزية التي روت هذه البطولة في المنزل العائلي وهي تقاقي بلغتها الانكليزية : « هذا الولد نمر ... نمر ! »

وتذكرت السيدة كوستال هذه الحادثة بعد سنوات ، فقالت لابنها : « انك شرير للغاية ... وستكون يوماً ما المسيح الدجّال ! » فأجابها ، وهو آنذاك في الخامسة عشرة من العمر : « لن اتعب نفسي الى هذا الحد ! »

وربما كان معبد الجدلية عزيزاً عليه لأنه يذكّره بالاسقف « ريفيار » الذي كان خادماً لهذا المعبد قبل ان يُسام اسقفاً ، وكان يمد يديه المضمختين بالعطور الى أنوف البنات اللواتي يلقي عليهن دروساً في التعليم المسيحي وجميعهن مغرمات به .

لا ، فالارجح ان كوستال كان معجباً بمعبد الجدلية لأنه الكنيسة الوحيدة التي لا ترى العين فيها أثراً واحداً من الآثار المسيحية بين جميع كنائس باريس .

ظلت هذه الكنيسة هيكل الامجاد طوال تسع سنوات ، في عهد نابوليون ، فبقيت في نظر كوستال هيكل الامجاد بالنسبة الى الفرد والى الامة جمعاء . غير انها تمثل ايضاً اشياء اخرى .

انها هيكل توحيد الآراء ، هيكل تلاحم المتناقضات : متناقضات العالم ، ومتناقضات كل مخلوق حي . ففي مقدمة البناء ، تبدو الى يسار زفس سبازيوس المسيح صورة ديونيسوس[1] وهو شاب عارٍ يثير ردفاه القلق ، والى يمينه مراهق عارٍ ايضاً يمثل عبقرية الرقص او احد اشقاء

---

١ ـ اله الكرمة والخمر في الاساطير اليونانية . وهو ابن زفس رب الارباب من زوجته سيميلي .

كاهن السكر والعربدة الذي نحت تماثله كاربو[1] .

وفي داخل الكنيسة ، مذبح خالٍ من الاسرار ومن الشعوذة : لا شيء في اليدين ، لا شيء في الجيوب[2] ، اي انه نقيض الدين المسيحي كلياً .

وخلف المذبح ، تقع العين على صور اطفال رائعي الجمال لهم اجنحة ، يُخرجون من محارة كبيرة افروذيت حديثة ، كما خرجت في قديم الزمان افروذيت الحقيقية[3] . وافروذيت الحديثة هي الجدلية ، البغي المقدسة .

وتبدو الخاطئة في هذه الصورة خافضة العينين ، لها بطن حبلى في شهرها التاسع وفي منتهى الجمال ، وقد بسطت ذراعيها كأنها تقول : « لم يكن لي مفرّ من ان يحصل لي ما حصل ... »

ما اجمل ان يشعر المرء في هذا المكان انه ليس في هيكل العذراء ، هذه العذراء التي لا يذكرها الانجيل إلا في ما ندر ، والتي لا نعرف عنها شيئاً ، اللهم إلا ان ابنها هجرها ، ولم تكن إلّا اداةً لتجسيد الكلمة ، كالعذارى الارضيات اللواتي لا فائدة منهن إلّا اذا اصبحن ادوات لانجاب الرجال .

انه هيكل الامة وهيكل الانجاد . غير انه هيكل البغي ايضاً . وهو قائم على الضفة اليمنى من نهر السين التي اصبحت ساحة البغايا . ولهذا السبب تُضاء واجهته ليلاً باضواء لها مغزاها لانها بلون برمنغنات

---

١ – جان باتيست كاربو (١٨٢٧ – ١٨٧٥) نحات فرنسي شهير ابدع في نحت تماثيل الراقصات والراقصين .

٢ – كتب المؤلف هذه العبارة التي يستعملها المشعوذون في ألعابهم « السحرية » امعاناً منه في تشويه الدين .

٣ – ربة الجمال والحب في الاساطير اليونانية . اطلق عليها الرومان اسم فينوس ، وهي في الاصل عشتار الفينيقية . وكان المؤمنون بها يعتقدون انها ولدت من محارة كبيرة كما يولد اللؤلؤ .

البوطاس[1] . وقد اعتاد كوستال ان يدخل هذه الكنيسة كلما اقتنص امرأة من نساء الشارع ، فيرتقع ويترقّع ، ويشكر لكونه سعيداً .

واليوم جاء يشكر ايضاً . إلا أنه طلب هذه المرة الى « الوجود غير المعروف » القوة والجرأة على التفكير دائماً بسعادته . واتخذ قراراً بان يتذكّر دون انقطاع ان من واجبه ان يكون سعيداً ، وبان لا يتوقف عن متابعة ملذاته من اجل احد ، ولا من اجل شيء . اتخذ هذا القرار بطريقة رسمية . ثم خرج من الكنيسة ، ووقف قليلاً على احدى الدرجات .

كانت باريس بيضاء ، رمادية ، سوداء ، وسخة ، ملوّثة ، كشرشف السرير بعد ليلة غرام . ولم تكن العين تقع فيها على شيء جميل مهما امتد منها النظر ، اللهم إلا تلك البراعم التي بدأت تظهر على اغصان الاشجار ، وهي نضرة الاخضرار تبعث الرغبة في حمايتها من كل عبث .

انها تبشّر بالربيع ، الربيع النقي والدنس ، المطل من الافق كأنه مركب كبير وصل بعد طول انتظار ، حاملاً الاطياب من بلدان مجهولة .

ولا شيء قوي في هذه المدينة سوى هذا الجمهور الخامد الوجدان ، المسلح بامكانات لامتناهية .

يوم كان كوستال فتى مراهقاً ، خرج مع ابويه للقيام بنزهة في احد الشوارع الكبيرة ، فسمع اباه يقول : « في هذه الشوارع كل شيء للبيع : الاشياء والناس » . فنشأ في نفسه لهذه الشوارع احترام يخالطه الأمل . ومنذ تلك الايام صار محيط مطامعه مترامياً لا شواطىء له ولا حدود .

ثم لم يلبث ان خامره الشك بقول ابيه ، اذ قال في نفسه : « انا ايضاً كنت في احد هذه الشوارع ، وكان والداي معي ، وليس فينا من

---

[1] ـ سنة ١٩٢٨ كانت واجهة كنيسة المجدلية تضاء بانوار بنفسجية اللون ، وكانت هذه بطولة في فساد الذوق . ـ المؤلف .

هو للبيع . اذاً ، فقول ابي لا يشمل الجميع ، وهـــذا مـا يدعو الى الأسف المرير ... » إلا ان هذا التفكير لم يقوَ على انتزاع تأثير كلمـة ابيه من ذهنه .

كان واقفاً على درج المعبد ، فرأى تحته ، على الرصيف اللزج ، نهراً جارياً من الشعب ، من الرجال ، واشباه الرجال ، والنساء ، كالماء القذر المتحلّب من كومة الزبـل . وكان هـذا المجرى ينقسم شطرين على قدم المعبد . فاحس كوستال انه سيلقي في هذا النهر نطافاً من ماء ذكورته ، وهي اطهر مادّة تفرزها الاعضاء البشرية ، بـــل هي المـادة الوحيدة الطاهرة في الكون — الطاهرة والنقية كحبة القمح .

لقد أبغض ، في ما مضى ، شنار هذا الجمهور الباريسي . ومرت به ايام كان يطرق فيها الى الارض كلما التقى احدى نساء باريس لئلا يظن احد المارّة انه يشتهيها ، اذا رآه ينظر اليها ، وهـذا ما كان يملأ نفسه خجلاً [1] .

اما الآن فاصبح يحب هذا العار ويقول في نفسه : « هذه مادتي » . فالغوريلّا اللاتيني ، والقرد الباريسي ، والبغي الصفراء الوجه ، والمتشرّد العاري القفا ، الدنس الفم ، المتكلم بصوت فتـاة ، هؤلاء جميعاً يتوقون الى الشر ، يتنافسون على الرذائل ، وجلّ همهم ان يخدعوا ، ويسرقوا ، وينـ ... ، ويحتالوا ، ويسيروا متتابعين في صفهم الطويل .

هـذه الفوضى اللاتينية المتهوّدة تخيف الاوروبيين الشماليين المتصمين بالحشمة والذوق ، لأن مظهرها الخارجي يدل دلالة واضحة على الفوضى الداخلية ، ويثبت ان كل شيء ممكن في هذا البلد ، بل في هذه المزبلة

---

١ ــ « هنّ (الباريسيات) متوسطات جمـال الوجه ، واقرب الى الدمامة في اغلب الاحيان » . (جان جاك روسو : هيلوئيز الجديدة ، القسم الثاني ، الفصل الحادي والعشرون) . — المؤلف .

من الاجساد والارواح التي تحركها الشمس وتغطي بها وجه الارض ، فتبرعم وتنتج النبات الملتف الكثيف .

وكان كوستال يعلم ان في هذه الزبالة لآلىء عديدة ، فقال في سرّه مردداً كلمة فينيلون : « أنتخلى عن قطعة الالماس لأننا وجدناها في الوحل ؟ » غير ان حبة الطهارة في هذا الخضمّ من القذارة تشبه الاسنان السليمة البيضاء في فك كلب ميت .

أحس، وهو في هذه الغمرة من التأمل ، انه على أتم الاستعداد لمطاردة النساء ، لأنه لم يكن قد حلق ذقنه في ذلك اليوم . وكان في مطاردته النساء يحب ان يكون خشن الذقن ، مهمل الهندام ، لتكون رياضة المطاردة على شيء من الصعوبة ، وخصوصاً ليبرهن انه يحتقر النساء اللواتي يطاردهن ويستطيع السيطرة عليهن بلا عناء . وكثيراً ما كان يخاطب نفسه قائلاً : « ليس بينهن واحدة جديرة بان ازعج نفسي لأجلها . ليأخذنني كما أنا ! هذه المرأة او تلك ، لا فرق » .

وكانت خشونة ذقنه تضاعف ثقته بنفسه فيقول : « لا ريب في اني قوي ما دمت استطيع المطاردة بهذه الذقن ! »

وكان اذا مُني بالاخفاق وجد في ذقنه عذراً فيقول : « كيف يمكن أن أنجح وانا ملتحٍ كسكان الغاب ؟ »

وللمرة الاولى ، منذ عودته من افريقيا ، كان يسير في الشارع بلا معطف ، وبلا قبعة . فحين يتحرر المرء من هذه الملابس التي تكسبه احترام الناس يدخل حياة جديدة كامرأة تقصّر شعرها فتتخذ نوعاً جديداً من الانوثه . وهكذا ترى الجندي الراجل ، اذا انزل حمله الثقيل عن ظهره ، اصبح قادراً على مطاردة العدو بسهولة وسرور ، كاولئك المسافرين الذين كانوا في الباخرة صفر الوجوه ، مشعثي الشعر ، يبدو عليهم العياء ، فما كادوا يصلون الى الميناء وينزلون الى البر حتى تغيّرت حالهم ، فغدوا متأنقين ، لامعي العيون ، يفيض البشر من

وجوههم .

اشعل سيكارة وراح يستعد للمغامرة .

وبحركة فطرية ، وكما يشد رجلُ الكهفِ وسطه قبل المعركة ، وكما يشد الجندي زناره قبل الساعة الصفر ، وكما يلتف مصارع الثيران بردائه حين يدخل الى الحلبة ، بكّل كوستال زرّ سترته الاوسط واقبل على الغاب الباريسي ليتوغّل فيه .

وكما تخرج الوحوش الضارية كل يوم لتبحث عن طعامها ، استعاد حياته السابقة وراح يخرج كل يوم ليبحث عن طريدة جديدة . ولم يكن بحاجة الى هذه الطريدة بقدر ما كان بحاجة الى الصيد . وقد قال « ليسنغ [1] » في هذا المعنى : « لو اعطاني الله الحقيقة لرفضتها لاني احب البحث عنها » . والقنبلة متى انفجرت اصبحت غير جديرة بالاهتمام ، إلا انها تسترعي الانتباه ، وتبعث الخوف ما دام انفجارها متوقعاً .

لم يكن كوستال جائعاً في ذلك اليوم ، إلا انه بدأ مطاردته قائلاً في نفسه : « ربما كان هؤلاء الخنازير الذين يملأون الشوارع لا يريدون ان اعمل ما يعجبني ! » وكان يلجأ دائماً الى هذا السبب : سبب النكاية بالناس ، حين لا يكون لديه سبب آخر للعمل . فالنكاية كانت من اشد العوامل التي تدفعه الى المغامرة .

من واجب المعجبين بالحب ان يستنتجوا من حياة كوستال ان الانسان يصبح دمثاً غفوراً اذا مرض ، ثم يعود الى قسوته وطغيانه متى أبلّ من مرضه .

قبل ان تنظر الممرّضة الى ميزان الحرارة لترى ان الحمّى قد زالت ، يكون الرجل الذي تعنى به قد استعاد ملامحه العادية ، ملامح القرصان

---

١ ـ غوتهولد افرايم ليسنغ (١٧٢٩ - ١٧٨١) كاتب ألماني . حمل على المدرسة الكلاسيكية الفرنسية حملة شعواء لينقذ الادب الألماني من تأثيرها .

المتأهب للبطش .

هـذه هي سنّة الشرّ وسنّـة الحياة ، فالانسان المتعافي يحب الحرب دائماً ويسعى الى اضرام نارها . فدوافع حيويته تريد القتال ، على الرغم من عقله الذي يدله على عظمة الخير الذي يحققه اذا بذل في السلم الجهود والفضائل التي يبذلها في الحرب .

لذلك نرى جميع القوى الاجتماعية تقاتل الحيـاة التي تتعبها وتقض مضجعها . إلا ان هذه القوى تعجز عن مهاجمة الحياة في اجسام الناس ، وتحتاج اليها للمحافظة على قوة الامـــة ، فتعمد الى مهاجمة الحيـاة في النفوس، وتحقنها بمبادىء الاخلاق الدينية .

وبينما كان كوستال يسير في الشوارع ، اخذ يتسلى بالاحتكاك بالمارّة ، ويدفعهم بيديه وكتفيه ، ولاسيما الذين كان يرى انهم مغرورون ينظرون الى الدنيا من علُ . وكثيراً ما كان يتعمد الهجوم عليهم مسرعاً ليحيدوا من دربه ، فكانوا يحيدون دائماً ولا يبدر منهم اقـل احتجاج : كانوا فرنسيو عام ١٩٢٧ الذين لا يحبون الرياضة العنيفة التي يمارسها الناس في شوارع الجزائر واسبانيا وايطاليا .

امـــا النساء اللواتي كان يمرّ بهن فكنّ شبيهات بالنعاج باقفيتهن السمينة ، ووجوههن المطلية بالادهان كالدمامل المكسوّة بالمرهم . لم يشك لحظة واحدة بحقيقتهن ، لانه يعرفهن حق المعرفة ، ويعـلم انهن غــير جديرات بشهوته . غير انه كان يود ان يدمغهن جميعاً بطابعه ، ويهملهن الى الابد ، ثم يأبى ان يعرف من اخبارهن شيئاً . وكان في هذا العمل ما يُدخل الى نفسه سرور فلّاح يرى قطيعاً مـــن الابقار تحمل كلٌّ منها دمغة تدل على انها ملك له .

جعل يستعرض المارّة ويزِن بنظره كل من تقع عليـه عينه : يزن النساء ليرى ما يمكن اخذه منهن ، ويزن الرجال ليعلم ما يجب ان يحذره منهم . ويلاحق تلك ، فاذا به نصف مطارِد ، ونصف مطارَد ،

كالحيوانات المنطلقة للصيد ، وهي نصف ضارية ، ونصف خائفة . وكان كوستال في جولته مثلها تماماً .

وكان يجد في ذلك الغاب الباريسي متعة كبرى ، ويبتهج بان يكون حذراً بقدر ما يبتهج بان يحمل الآخرين على حذر . وكان الخوف يمرّ عليه ، كالموجات الصغيرة ، مرورَ الماء على الصخر . اما هذا الصخر فكان ايمانه بانه معصوم . فقد كانت له من شبابه ، وعافيته ، ووقاحته ، وانتاجه الادبي ، وابنه اللطيف المحبوب ، وعقد خليلاته الصغيرات السن ، جميع حسنات القدرة ، دون ان يتحمل مسؤولية واحدة من مسؤولياتها . فلا عجب اذا احس بانه خالٍ من العوار ، واذا اعتقد انه اقوى ، واكثر مرونة ، واقدر على الاحتيال ، واشدّ شراً من جميع الزجال الآخرين .

كان يسير دافعاً رأسه الى الامام كالافعى ، يتنسّم طريدته من بعيد ، ويتوجّس خوفاً من الخطر ، وقد بدت رقبته غليظة كرقبة الجاموس الذي شبّهه به الدكتور روزنبوم . كان جاموساً وافعى معاً ، وكان يشعر دون انقطاع بهذه الحقيقة .

ان قوة الحياة ، والرغبة في الامتلاك ، والرغبة في البطش ، والرغبة في الافساد ، والرغبة في التضليل والمخادعة ، كانت كلها تظهر على وجهه في نوع من اللمعان يُكسبهُ لون الذهب ، لا في قطرات من العرق . فقد كان متألقاً كموسى الكليم لدى هبوطه من جبل الطور .

وفي هذه المرحلة من الصيد الحيواني كان يخلق باستمرار . غير ان خلقه كان افضل واجمل كلما قدم ذبيحة للحب . وبقدر ما كان يمعن في التضحية للحب كانت رغبته تزداد احتداماً . وقد حظي باجمل الصديقات الصغيرات على اثر خروجه من الخلوات الدافئة ، ولم يعرف لانطلاقه حداً يقف عنده . فالاغراق في التمتع يجعله اشد قدرة على الوصال . وهكذا نرى ان اشد الخطوط الحديدية لمعاناً هي التي يمر

يمر عليها اكبر عدد من القطارات ، بينما الخطوط المهملة تهترىء ويعلوها الصدأ .

يقول الاطباء ان للأجسام الحيّة قوةً جنسية تفوق التصوّر . وهذا ما لمسه كوستال عن كثب ، لأنه لم يجد أقل فرق في نشاطه الفكري والجسدي ، وفي صفاء ذهنه ورباطة جأشه ، وسيطرته على نفسه ، وكل ما يجعل للانسان قيمة محترمة ، بين فترات أمعانه في الملذات ، وفترات الصيام والحرمان ، اي في ايام الحرب وفي اثناء رحلاته الجبلية .

وتبين له انه بقدر ما يبذل للحب تزداد عافيته الفكرية والجسدية . وكان كلما خرج من خلوة غرامية أحس بان حياته تتجدد ، كالكلب الذي يُطلق من عقاله ، فيركض حول اصحابه كالمجنون .

وبكلمة موجزة وصريحة ، كانت الافرازات الجنسية ضرورية لصيانة صحته .

لقد بُعث حياً من ذلك العالم الآخر، عالم المرض والموت ، عالم اليأس والافكار المحمومة ، فلم يشأ ان يعود اليه من جديد ، بل عاد الى الحياة ، الى حياته المعهودة كالناقهِ الخارج من المستشفى للمرة الاولى ، كالضابط العائد من الصحراء الى المدينة بعد متاعب وأخطار استغرقت سنتين . وهذا ما جعله يتحمس الى اقصى حد لقيامة بعمل تافه بسيط ، ما كان إلا نزهة عادية في شوارع باريس . ولهذا السبب ، ما كاد يمشي عشر دقائق ، حتى تهيّج تهيّجاً مشوباً بقلق غير مألوف ، فاذا بهذا المزيج العجيب من الحماسة والاضطراب عبء ثقيل لا يطاق .

كان مصدر قلقه تساؤله عن الطريدة التي ستقع بين يديه ، وخوفه من الاخفاق . كان قلق مصارع الثيران حين ينزل الى حلبة الصراع معرّضاً نفسه للنطحة القاتلة ، قلق من نجا من تنين المرض المخيف ، وصرع هيبوغريف الزواج ، وقهر مسخ الانتاج الادبي فراح يطرحه ارضاً كل يوم . وما كان عليه الآن إلا ان يبطح الغول ، وان يلقيها على ظهرها

رافعة قوائمها في الهواء دون ان يعاني أقل عذاب .

أحس بألم في جفونه ، واستولى عليه عياء مقدّس حفر في وجهه تجاعيد عميقة ، اذ عاوده أسفه الدائم لكونه لا يستطيع ان يأخذ جميع صبايا مدينة باريس الجميلات بلا استثناء .

وقبل ان يصل الى زاوية شارع ريشليو بقليل (وكان هناك بيت ذو منفذين ، وهذا اعلان للقراصنة) ، وقف تحت قنطرة احد الابواب ، واغمض عينيه لتهدئة الارتجاج الذي كان يصعد من اعماقه ، وليخفف توتر وجهه المتجهم الذي كانت ترتسم عليه معاني النهم ، والجشع ، والنفاق ، والبليغ التعبير الى حد جعل صاحبه يتضايق من حمله في قمة جسده ليُفهم الجميع ان هذا المخلوق خطِر يجب عليهم ان يحذروه ، بينما كان يودّ ان لا يسترعي انتباه احد ، وان يغفل الناس عنه حين يمر بهم .

وفجأة سمع اصواتاً ضعيفة ، سخيفة لشدة هزالها ... كانت اصواتاً من عالم آخر ، من دنيا الاشباح والديدان ، رفعت فوق الجمهور موسيقاها الناشزة كأنها صادرة عن وتر مقطوع في آلة موسيقية مصدوعة ، هذا اذا لم تكن هذه الاصوات اغنية كئيبة ينشدها أجنّة ما يزالون في الارحام ، وكانت تقول : « اشتروا الكتاب المقدس ! » وكانت الدمامة المسخية البادية في وجوه اصحاب هذه الاصوات الناصريين[1] تغني عن كل تفسير ، فقال كوستال في نفسه : « أيجوز ان اموت قبل ان ارش احد هذه المخلوقات بالنفط واضرم فيه النار ؟ »

أشاح عنهم بوجهه متألماً من شدة الغضب والقرف ، وهو الذي تعود ان يلوذ بالفرار كلما تعرّض لمثل هذه البشاعات المخيفة .

---

١ ـ نسبة الى مدينة الناصرة في فلسطين ، ويعني بهم الكاتب دعاة يسوع الناصري والمبشرين بتعاليمه .

وعلى زاوية ضاحية مونمارتر، وقف برهة وهو متردد حائر، لا يدري أيشتهي امرأة وقع عليها نظره او لا يشتهيها. كان يبدو عليها نوع من الفقر الكثير الوعود، خصوصاً في حذائها الرث. والحق يقال انها كادت تعجبه. فأخرج من جيبه قطعة نقد معدنية ولعب بها لعبة: «الطغراء او النقشة»، قائلاً في نفسه: «الطغراء تعني اني اشتهي، وتعني النقشة اني لا اشتهي». ولما فتح كفه رأى النقشة، فترك المرأة تمضي في سبيلها.

وعلى مقربة من شارع روجمون، أشعل لرجل عجوز سيكارته، فأحس انه قام بعمل خيري. والمرء لا يعمل إلا ما يستطيع.

وبعد خطوات قليلة ارتعش اذ وقع نظره على مشهد غريب، فقد مرت أشعة الشمس من خلال زجاج احدى سيارات الاوتوبيس، فنقلت أرقام هذه السيارة الى ظهر احد الركاب، فبدا كأنه من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.

أعجبه هذا المشهد، فقال يخاطب نفسه: «إيه! ليس في الحياة إلا ما هو جدير بالاهتمام!»

وعلى مقربة من ضاحية «بواسونيار» دخل الى احدى المباول. وكان قد رأى احدى صديقاته القديمات مقبلة صوبه، فارتعد خوفاً من ان ينتهي يومه بعمل خيري، وهو الذي بدأ حافلاً بالوعود الطيبة. لم يكن راغباً في الحصول على تلك الصديقة، إلا انه لو التقاها وجهاً الى وجه لدفعته الرحمة الى مرافقتها لتمضية السهرة معها في مكان ما من أمكنة اللهو، عوضاً عن متابعة سيره في الشوارع على غير هدى.

وفي المبولة اخذ يردد: «لا! ان الله لا يتخلى عني!» ولم يكن قوله هذا تجديفاً على الله لأنه لم يكن يؤمن به. وبالفعل لم يتخلَّ الله عنه، فتوارت صديقته القديمة عن الانظار.

وعـاد الى الغوص في الشارع ، فسار عـلى طريق مصيره . ثم راح يفكر بالليلة المقبلة ، بليلة يرتاح فيهـا وجهه ، فلا يُحوّم عليه شيطان ، ولا تساوره احـلام .

وكان يفكّر ايضاً باللحظـة الاولى من الفجر المقبل عندما ترتجـف انوار المدينة ارتجافاً مخيفاً كأنها تعلم انه لم يبق لها من حياتها الا بضع دقائق . اما النجمة العالية في السماء فلا ترتجف ، بل يعتريها الجمود ، لانها تعلم ، هي ايضاً ، انهـا على وشك الانطفاء . فالفجر المجهول ساعـة لم يقدرها النـاس حق قدرها ، فغدت كشخص مرهف الشعور ، حيي ، لا يتباهى ، ولا يتبجح كما تفعل ساعة غروب الشمس لكثرة مـا تغنّى بها الكتاب .

ووجه العظمة في الفجر ان الناس يتساءلون عندمـا يطل : ما الذي سيحدث اليوم ؟

فالشك يخامر الاحياء امام بداية النهار كما يخامرهم امام حياة ما تزال في مطلع الشباب . وكان كوستال ، في مثل هذه الساعة ، يجلس الى طاولة عمله وهو نيّر الفكر ، نقي الذهن ، مصمم على الانتاج ، وقـد ارتوت عيناه من النوم .

واول ما يطرق اذنيـه في الصباح طرطقة اوعيـة اللبن يحملها صبي ليوزعها على المنازل ، فينهض من وراء طاولتـه ويذهب الى النافـذة ، وعلى صدره اضواء طفولة النهار كأنها عسل مذهّب ، فيطيب له ان يسمع اشاعات اليوم الجديد ترتعش على جسده .

كان يذهب الى نافذته ليكون اول وجه يقع عليه نظره وجهاً فتياً كأنه بشير الخلاص وضمانة الامل طيلة اليوم المقبل .

ثم تأتي فرحة الماء ، فرحة الاغتسال على الطريقة الرومانية القديمة ، فقد جعل كوستال من حياته حماماً كبيراً . ومن المدهش ان لا تـكلف كأس المـاء البـارد ستـة فرنكات في المطعم ، مع انهـا افضل من

جميع الحور .

ومن المدهش ايضاً ان تعاطينا مع الماء لا يعتبر خطيئة ، مع انه لذيذ ممتع ، ولا خوف من صدور حكم يقضي علينا بالسجن اربع سنوات اذا دخلنا في مغطس كما ندخل في احدى الفتيات العذارى ، مع ان العملين متساويين بالبهجة والسرور .

ومما يثير الدهشة اننا لا نتعرض للعقوبة اذا سكبنا ماءً على رؤوسنا . فيا للحقائق — حقائق الحواس — ما اجملها ! انها في نجوة من العقاب ، ولا حدّ لها إلا الشبع والارتواء !

وبعد الحمام ، يخرج من منزله ، ويذهب الى غابة بولونيا حيث تغرّد العصافير لنفسها ، وهناك يبدأ عمله في مخطوطته وهو يتمشى .

يرى اولاً سيارات الاثرياء الاخساء ، ثم يظهر الشعب المغمور الذي يبدأ عمله في الساعة السابعة ولا يعرف البغض ، وفيه الكتّاب الصغار في الدوائر الذين يعرفهم كوستال جميعاً ويصبحهم بالخير ، وعمّال الليل المرهقون تعباً ، والحرّاس الذين لا يستطيعون ان يدلوك على طريق اللهو ، والجزّارون المنطلقون على دراجات هوائية ذات ثلاث عجلات ، فاذا رأوك تنظر اليهم ساروا على عجلتين ليظهروا لك عظمة براعتهم ، كما يبول الكلب اذا رآك ليملأ نفسك اعجاباً به .

يعود حرّاس الليل الى منازلهم بعد ان يكونوا قد حموا الاثرياء الذين لا يُقتلون لانهم يدفعون اجوراً لابناء الشعب ليُقتلوا عوضاً عنهم . ويذهب الاثرياء الى السماء بعد موتهم ، لان ذويهم يدفعون حسنات قداديس عديدة لراحة نفوسهم .

ولا تمضي فترة قصيرة حتى يظهر الرياضيون الجانين في قمصانهم الضيقة ، وهم يركضون ، ثم يقفون ليقوموا بحركات موقّعة .

واخيراً يطل الاغنياء الذين يتعنّتون كي لا يدفعوا نفقة لمطلقاتهم ،

ويسجنون ابنهم الوحيد في المدرسة الداخلية ، لكنهم يأخذون الى النزهة كلبهم العزيز لأن ثمنه الفا فرنك ، لا لأنه يحب التنزه .

اما الصبيان البورجوازيون فيسيرون في الهواء الطلق كأنهم فقاقيع صابون ، بينما يمشي الفجّار المحترفون متظاهرين بالرشاقة واللامبالاة ، ووجوههم موصومة بالكآبة ، ونظراتهم السريعة تنم عن القلق والاضطراب .

وفي نهاية هذا المشهد يبدو نهر السين الازرق وما وراءه من الهضاب الزرق ، والضباب المائل الى الزرقة ، وقبة جرس توحي بكل ما في الشعب الفرنسي من النزعة الروحية والتقوى . واذا كنتُ لا اكتب جملة عن هذه القبة فلأني لست رجلا .

وفي النهر مراكب صغيرة تقلب مدخنتها عندما تمر تحت الجسر ، فتشبه في عملها المرأة لدى استسلامها للرجل .

ولا تلس اشباه البورجوازيين والبورجوازيات في رواحهم ومجيئهم ، والخيول اللامعة النظيفة التي تحرك قفاها بطريقة غير لائقة ، وهي فخورةٌ بما في وجوهها من الشرايين النافرة ، ناهيك بالاولاد الذين يحشرجون ، فترى على وجوههم ان الحشرجة في داخلهم ايضاً ، وهم على درّاجات هوائية لها لون اليعاسيب ، ولون السم ، وألوان اخرى لا مثيل لها في واحات الصحراء . انهم اولاد مدهشون ، جديّون ، يسيرون وكأنهم في حلم ، ويتمرنون على دورة فرنسا الرياضية ، فيزعجون بحركاتهم الفراشات البيض التي لا تدرك لهذه الحركات معنى .

وفي كل مكان من الغابة يتعرف كوستال الى بقعة تضايق فيها وعرف الذل بسبب امرأة ، فيحيد عنها نافراً كحصان يجفل لدى وصوله الى منعطف رأى فيه افعى في زمن مضى .

كان يجتنب هذه الاماكن ، فيخيل اليه لدى اجتنابه اياها انه يأكلها .

ولما وصل الى المكان الذي قبّل فيه سولانج للمرة الاولى ، خاطب

نفسه قائلاً : « ماتت الافعى ، ومات سمها ! »

وخطر في باله ان ابنه سيصل بعد ثمانية ايام ، فيردف نفسه وراءه على درّاجته الهوائيــة الزمردية الرفاريف ، ويصر على السير في طريق محظور السير فيها ، ويضع يده على كتفه كلما اوشك ان يقع ارضاً .

وفي بهجة الصباح يمشي مع ابنه بــين العصافير الضاحكة استبشاراً بيوم جديد .



٢٣

أسيرُ بكِ دون رحمة وانا اعلم عذابك .
(اغنية بدوية في جنوب تونس يخاطب فيها الخيّال فرسه)

ان الحياة التي تتحرّك بك اكثر مما تودّ لتشبه تلك السلاسل الكبيرة التي لا تكاد تحركها بتؤدة حتى تقوى عليك وتجر يدك ، وربما جرّتك كلك إن لم تتراجع فوراً ...

لـ « أ » صديق من ايام المدرسة هو « ب » . ومنذ ان اقام « ب » في شارتر ، واصبح يجيء مرةً ، كل خمسة عشر يوماً ، لتمضية ثماني واربعين ساعة في باريس ، رسخ في ذهنه انه يجب عليه ان يمضي واحدةً من سهرتيه الباريستين مع « أ » .

وكان « أ » يرى ان هذا كثير ، وان صداقته القديمة لـ « ب » تكفيها سهرة واحدة كل شهرين . وكان بودّه ان يقول له ما قاله النبي محمد لأبي هريرة : « يا أبا هريرة : زرني غبــاً ، تزدد صداقتي لك » (عن سعدي) . غير انــه لم يقل له شيئــاً ، بل اعتذر مرتين على التوالي ، وكان ذلك كافياً ، اذ فهم « ب » قصد صديقه ، وراح يباعد بــين دعواته .

وقد يكون صديق ايام المدرسة رجلاً غليظاً ، غارقاً في اعماله المادّية الرامية الى كسب المال ، فهو انسان ، او من بذرة الانسان ، اي ان ليس

فيه نوع من الكرامة وحسب ، بل نوع من الذكاء يضع به نفسه في مكان الآخرين ، ويرضى بان يجني من السهرة المشتركة سروراً اعظم من سرور صديقه بها . وكان يعترف بان من حق هذا الصديق ان يتمتع بالسهرة مثله ، واذا كان لا يفعل ، فليس في التفاوت بينهما ما يمس جوهر صداقتهما .

وليست الحال كذلك مع المرأة . فمن الصعب والمتعب جداً ان يُفهمها المرء انه لا يحبها ، او لم يعد يحبها ، وان وجودها الى جانبه اصبح وقراً عليه وسبباً لاضاعة وقته ، وان كل ما يلتمسه منها هو ان تتوارى عن الانظار .

من يحاول اغراق امرأة على مهل كمن يحاول اغراق هر : ففيها حيوية شديدة المقاومة . لذلك يمكن اعتبار القطيعة افضل انواع العلاقات بين الرجل والمرأة .

أحسّ كوستال بذلك النوع من الانزعاج الذي يشعر به المسافر عندما تبتعد الباخرة عن الميناء ، فيحرك ذراعيه مبتسماً لذويه الواقفين على الرصيف ، ولا يستطيع مخاطبتهم لبعد المسافة بينه وبينهم ، فيحار في امره ، ولا يدري كيف يجب ان يتصرف .

كان ، في الواقع ، قد ودّع سولانج وداعاً اخيراً ونهائياً ، وأصبحت علاقته بها مقتصرة على تبادل بعض الابتسامات المبهمة ، بينما كانت المسافة بين مواعيدهما تزداد بعداً حتى تصل الى القطيعة التامة .

راحت تتصل به هاتفياً كل مساء ، في الساعة العاشرة ، لعلمها بان الخادم لا يكون في المنزل في هذا الوقت ، فيضطر كوستال الى مخاطبتها ، فتسأله : « متى نلتقي ؟ »

وكم كان يضغط على نفسه ويعاني من الغيظ المكبوت كي لا يقسو عليها ويفهمها انها مزعجة !

وكان على الآنسة دنديو ان تدرك دخيلة نفسه من صوته البارد ،

المرتبك كأنه يتخبط في الوحل . إلا انهـا لم تشأ ان تفهم . ففي كل مخابرة من مخابراتها كان يقول لها في ختام الحديث : « اني مثقل بالاشغال اليوم ، وسأرسل اليك اشارة بعد بضعة ايام » . ومرةً في الشهر كان يقول لها : « اني على موعد مع احدهم يوم الثلاثاء ، الساعة الحادية عشرة والنصف ، أفتريدين ان نلتقي في الساعة العاشرة والنصف على مقربة من المحطة الفلانية ؟ »

وكم كان يحتدم غيظاً من مواعيده مع النساء على ارصفة الشوارع !... غير ان سولانج كانت تجيب محتجة : « ألا تعطيني إلا ساعـة واحدة ؟ انها لا تكفي ! »

في بداية هذه المرحلة كانت تتذرع باعذار سخيفة لتبرر اتصالها به ، كأنْ تبدأ حديثها قائلة : « كلمة واحدة ... فصاحب مكتبة أنتان طلب اليّ ان اسألك أتوافق على توقيع نسخ مـن مؤلفاتك في مكتبته تلبيةً لرغبة القراء ؟ » وكان هـذا اختراعاً محضاً ، فصاحب المكتبة لم يطلب اليها شيئاً ، لأنه منـذ ثمانية ايام طرح سؤاله على كوستال وتلقى منـه جواباً .

كان هذا في البداية . اما اليوم فانها لا تبحث عن اعذار ، بل تسأل بلا مقدمات : « متى نلتقي ؟ » فيجيبها : « أما التقينا منذ ثمانية ايام ؟ » فتحتج : « ثمانية ايام !... التقينا في الرابع والعشرين من الشهر الماضي ، منـذ سبعة عشر يومـاً بالضبط ، وانت تعـلم اني أودّ أن أتحدّث اليك ! »

قال لهـا يوماً : « اسمحي لي بان أكون صريحاً : فسرورك بالتحدث اليّ يبدو لي غريبـاً وبعيداً عن المنطق ، وأكاد أقول أنـه نوع مـن المرض ! »

وكان يعني ما يقول ، فلقاؤه بها كان يجعله كئيباً ، بادي الاستياء ، قليل النوق ، فكيف يسرُّها وجوده الى جانبها وهو في مثل هذه الحال ؟

وكانا يتحدثان في موضوعات تافهة ، كأن احدهما غريب عن الآخر ، فتمسك بيده ، او يمسك بيدها بدافع العادة ، بلا شعور .

لم تعد راغبة في الزواج إلّا باحد اصدقاء كوستال لتحافظ على هذه « الصداقة الصافية » القائمة بينهما ، وهذا ما كانت تخشى ألّا يتسنى لها اذا كان زوجها المقبل غريباً ...

اضطر كوستال الى قطع خط الهاتف كل مساء معرّضاً نفسه لخسارة مخابرات مهمة متعلقة باعماله . فجعلت تتصل بـه في الساعة الثامنة صباحاً . ولما قطع الخط في الصباح ، انهالت عليه رسائلها بلا انقطاع ، فما ردّ على واحدة منها .

ضايقته الى اقصى حـد ، حتى الارهاق . فاطول ساعات السفر هي الساعات الاخيرة .

كان يقبض على رأسه بكلتا يديه قائلاً : « لا ! لا ! ليس في العالم شيء يبعث السأم في النفس كالمرأة ، اذا كانت تتألم ! لسنا بحاجة الى حبها ، الى هذا الحب الذي تريد فرضه علينا . حين تحتاج لان تكون محبوبة ... فانهـا تصبح مخلوقة ثقيلة الظل ! فأفضل عليها شخصاً يحب كسب المال . أجـل ، الى هذا الحد من احتقارها تدفعني بالحاحها العجيب . المرأة لا تدرك انها مزعجة ، ولا تفهم ما تخلق في الرجـل الشاب من ضيق الصدر والنزق . لذلـك نستطيع تحديدها كما يـلي : « المرأة ؟ انها مخلوقة تجتذب الرجل باغرائها ، ثم تطارده بلا هوادة » . والمرأة التي لا تطـارد نادرة الوجود . وكم اود ان يجري البحث عـن هذا النوع الرصين من النساء لمنحه وسام جوقة الشرف ! »

كان من عادته ، في الربيع ، ان يذهب الى مكان معيّن من غابـة بولونيا ، بالقرب من منزله ، لينصرف الى التأليف . ومن سوء حظه انه أطلع سولانج على هذه العادة . وذات صباح ، بينا كان جالساً على بنكه المفضّل ، اقبلت عليه يستخفها الطرب ، وفي وجهها آيات من السرور

والابتهاج ، قالت :

– لا تظن اني أتيت لاراك . كنت ذاهبة الى بيت فلان في شارع ميكال أنج ، فمررت من هنا لانشق الهواء النقي البارد ، وارى الخضرة المنعشة .

فطوى اوراقه . ولسنا بحاجة الى شرح الغيظ الذي يستولي على الكاتب عندما يقطع عليه احد المزعجين مجرى افكاره ، فهذه فكرة يعرفها الجميع .

احتفظ بها عشر دقائق ، ثم صرفها عنه بقسوة . فالمرأة الفضولية تخلق دائماً رجلاً قليل الادب . ولما همّت بالانصراف سألته : « متى نلتقي ؟ »

اختار كوستال لعمله بنكاً آخر بعيداً عن الاول ، ولم يستطع العمل إلا تحت كابوس القلق ، ليقينه بان سولانج ستظل تبحث حتى تكتشف مكانه الجديد .

وفي هذه المرحلة من حياتها لم تعد تلك الفتاة الأنوف التي عرفها ، بل اصبحت كلَّابة ، لصقة ، كلاعب كرة القدم الذي يكون مكانه خلفك فلا تراه إلا امامك . فاذا خرج من اجتماع ادبي التقاها في الشارع ، وسمعها تقول بدهشة مصطنعة : « انت هنا ؟ ما الذي جاء بك الى هنا ؟ » وتكون قد قرأت في احدى الصحف انّه مدعو الى هذا الاجتماع ، فجاءت تنتظره على الرصيف . واذا مرّ بالمكتبة التي تعرض مؤلفاته ، عثر هناك « صدفةً » على سولانج . ومصدر هذه الصدفة ان صاحب المكتبة قال لها : « السيد كوستال سيمر بنا غداً ، الساعة العاشرة » .

كان وجهه يتجهّم كلما التقاها ، فلا تلاحظ شيئاً ، او تتظاهر بانها لم تلاحظ شيئاً ، فتتابع تصرفها هذا المقيت بهدوء لتثير حفيظته عليها ، وتجعله ينفر منها نفوره من الفظاعة .

قلنا مرات عديدة ، في الكتب الثلاثة السابقة ، اننـا نجد احياناً في بعض اشخاص رواياتنا ملامح تفوق قدرتنـا في مجال الدرس النفساني . ونفضل الاعتراف بهـذه الحقيقة على ان نـذر الرماد في عيـني القارىء محاولين تـبرير عجزنا باساليب الشعوذة والنفاق . لذلك لا نحاول تفسير حالة الآنسة دنديو، ولا ندري هل غرب عن ذهنها انها تزعج كوستال ، أم أعمتها المواعيد التي كان يضربها لهـا ، على سبيل الصدقة ، مرة كل ثلاثة اسابيع ، فحسبتها برهاناً عن عطفه عليها ومحبته لها ؟

ولا نعلم هل أدركت هذه الحقيقة وأصرت بعناد على متابعة خطتها دون أن تكون بحاجة الى الاقتران بـه ، أو الى مضاجعته ؟ فاذا صح ذلك تكون مدفوعة برغبتها في التحدث اليه وهي تعلم انها تفرض عليه سخرة كريهة .

ومهما يكن من الامر فقد خيل الى كوستال انه يرى تحولاً مريعاً من تلك التحولات المسخية الـتي تقوم بهـا الطبيعة ، اذ تنقلب الدودة فراشة ...

اجل ، انقلبت سولانج الى اندريه هاكبو . هـذه الفتاة التي كانت متحفظة ، عزيزة النفس ، وتأبى ان تكون البادئة في المكالمات الهاتفية ، أصبحت كالكلب الذليل يتمرغ على قدميك ليحظى بقطعة من السكر.

انها في سعارها الرهيب تأبى ان ترى مـا يفقأ بحقيقته العيون ، وتصر على الالتصاق بما في اعتقادها الضيق من الثقة العمياء والاساليب الاستراتيجية العديمة الفائدة . فهي اليوم المثل الاعلى في الارادة العاجزة الباطلة .

انفجرت الحقيقة واضحة متألقة ، فجميع النساء اندريه هاكبو ...

واذا باندريه هاكبو تبدو كأنها وثن عملاق ، اكبر من العمالقة العاديين كتمثال آثينـا الذي نحتـه فيدياس [1] . وكهذا التمثال بـدت مخيفة ،

---

[1] ـ اكبر مثال عرفه الاغارقة . ولد في آثينا حوالى سنة ٤٧١ قبل الميلاد .

وسخيفة ، وبالغة منتهى العظمة ، كأنها جمعت في نفسها جنس مليارات مليارات من النساء اقبلن عليهـــا واندمجن بهـــا ، ليصبحن اندريه هاكبو .

فأندريه هاكبو هي « المرأة » .

وذات صباح ، كان كوستال يرتدي ثيابه بسرعة ونزق ، لأنه مدعو الى الغداء في المدينة الساعة الواحدة ، وكانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة والنصف ، فحسب ان تأخره عن الموعد لن يكون أقلّ من عشرين دقيقة ، واذا بجرس الهاتف يرن ، واذا بصوت سولانج يطرق مسمعه كأنها لم تدرك بعد الى اي حد تضايقه .

قالت له : « أما تزال حياً يرزق ؟ »

وكان يتسلى برفع رغوة الصابون عن أذنيه ، وبوضعها في ثقب سمّاعة الهـــاتف ، فـــا كاد يسمع سؤال سولانج حـــتى ثار في صدره بركان الغضب .

انهارت في لحظة واحدة جميع الجهود الـــتي بذلها خلال ستة اشهر ، ضاغطاً على نفسه وأعصابه ، ليظل مهذبـــاً ، محسنـــاً ، يجود بالصدقات ، فاذا به يلتفض كغصن شجرة كان مشدوداً الى الارض ثم افلت ...

قال لها :

— اسمعي جيداً ، يا آنسة دنديو : أكون لك شاكراً اذا أقلعتِ عن الاتصال بي تلفونياً كل ثلاثة ايام .

— اعذرني ، فاني ازعجك ...

تفوّهتْ بهذا الاعتذار متلعثمةً ، فسقطت كلماتها سقوط عصفور اصابه الرصاص ، فهبط ميتاً كاحدى اوراق الخريف . فأجابها :

— اجل ، انك تزعجيني . لنتفق ، اذا شئت ، على ان نلتقي مرة في الشهر . التقينا في الاسبوع الماضي ، فخابريني بعـــد ثلاثة اسابيـــع . والى اللقاء » .

وقطع المكالمة .

انقطعت الآنسة دندبو عن مكالمته هاتفياً وعن مراسلته . فعندما نُدخل شخصاً ما الى حياتنا يساورنا القلق ، ونبادر الى البحث عن طريقة نخرجه بها . إلا ان هذا القلق غير ضروري . ففي اغلب الاحيان تتولّى الحياة مهمة انقاذنا ، وتقوم بها على مهل ، في هدوء تام ، وبقبول الجانبين ، اللهمّ إلا اذا تعذر التوفيق بين الجانبين وأقدم احدهما على قتل الآخر .

هُزمت الآنسة دندبو بضربة قاضية في هذا الصراع الطويل .

واليك بمراحل الهزيمة :

في الجولتين الاولى والثانية ، سجّل كوستال بعض التفوّق . وفي الجولة الثالثة أصيب بضربة شديدة ، فسقط أرضاً ، وقال : « نعم » ، مذعناً لمشروع الزواج . فلو تابعت سولانج ضربه في تلك الفترة العصيبة ، ولو قالت له أمها : « الزواج قبل انقضاء ثمانية ايام ، أو الوداع الى الأبد » ، لاستسلم وكانت هزيمته كاملة ...

إلا انها تركته يستعيد قواه ، فهبّ واقفاً ، وكان بطاشاً عنيداً ، فتابع الصراع حتى طرحها أرضاً بضربة قاضية ، لولاها لانتصرت عليه .

وانتهى كوستال الى الاعتقاد انه هو الذي فرض هذه اللعبة وأدارها على هواه ، فقال في نفسه : « احتفظتُ بقواي للجولة الثالثة ، فكان النصر للمتفوّق ! »

وتعمق في تفكيره ليبرر تصرفه ، فقال :

« لم تعذبني بوصفها امرأة ، لأني لا أرضى بان تعذبني النساء . لم أتعذب بسببها هي ، بل كنت وحدي مصدر عذابي . لم تكن سولانج إلا ذريعة من شأنها أن تضاعف قلقي واضطرابي أمام الزواج . لم يكن من المحتمل أن أتعذب لأجلها لأنها لم تسىء إليّ قط . فبعث عذابي ان سولانج أصبحت « خطيبة » ، والخطيبة بحد ذاتها هي الشيء الذي لا

يطاق . والحقيقة الراهنة هي اني تألمت من الفكرة التي تكوّنت في نفسي عن الخطيبة – كل خطيبة » .

وبعد هذا التفسير ، انتفضت فيــه الحياة من جديد ، فقال : « كلما هجرتُ امرأة تجدّدت فيّ الحياة » .



الخاتمة



العام ١٩٢٨

١

من

بيار كوستال
باريس

الى

اندريه هاكبو
سان ليونار

١٧ ايلول ١٩٢٨

آنستي العزيزة !

بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٧ كتبتِ اليّ حوالى مائتي رسالة . لم يكن عملك هذا باطلاً أو سيئاً ، وقد حمّلت نفسي أحياناً عناء الرد على بعض هذه الرسائل .

ومنذ عودتك الى الكتابة في ٣٠ كانون الاول ١٩٢٧ ، حررت حرداً لطيفاً استغرق ستة اشهر ، تلقيتُ منك احدى وعشرين رسالة ، لم أفض منها واحدة لدى وصولها اليّ ، بل تركتها كلها في غلافاتها ، وحفظتها كما هي في ملف خاص . وأصارحك بان هذا الملف كان أصلاً علبة حذاء ، وما دام الحذاء الذي كان فيها قد أصبح اليوم في لندن فان شرفك لم

يس . كنت أود أن أعلم كم رسالة تستطيع الفتاة أن تكتب الى رجل ما دون ان يرد عليها ، فعلمت انها تكتب احدى وعشرين رسالة ، وليس هذا بكثير .

لا أدرك تماماً ماهيّة القوة الغريبة التي تدفعني اليوم للكتابة اليك بعد ان حملت نفسي على فض جميع رسائلك ، او بالحري اني اعرف هذه القوة – ويا للأسف ! – اكثر من اللزوم . ولنسمّها ، اذا شئتِ ، في هذه المناسبة : احترام شخصية الانسان التي احترمها فيكِ .

افهميني جيداً : اني دائماً مقيم نصف اقامة ، بوصفي مؤلفاً روائياً ، وحتى بوصفي انساناً ، في الاماكن التي لا احبها . واذاً ، فأنا مقيم قليلاً فيكِ ، شئتِ أم أبيت .

منذ ايام ، وقعت في يدي رسائلك القديمة التي يرقى تاريخها الى عام ١٩٢٧ ، فاستغربت قولك لي اني احاول ابتزازك . كيف يخطر هذا الابتزاز في بالي ما دمتُ لا اريد منكِ شيئاً ؟

يقولون ان العطاء يفتح مجال الاراجيف ، وانت لم تعطني جسدك لأخيفك باثارة الفضائح . ليس بيننا شيء ثابت ملموس ، ولم آخذك مرةً واحدة ، على ما أذكر .

تصفحت رسائلك وكنستها بنظري في بعض صفحاتها . أتذكرين تلك التي كتبتها في باريس ، في بداية اسبوع حافل بالآلام ؟ كانت رسالة « رسمية » تبدأ هكذا : « النــار تهدر في الموقد ، وباريس تموج تحت المطر » . لا استطيع ان امنع هذه الجملة البسيطة من ان تكون بداية ارتعاش في شعوري . فقد تمثلتك في غرفتك بالفندق الصغير ، حيث سرق الخادم قارورة عطر عزيزة عليك ، ورأيتك بعين خيالي ترتجفين برداً ومعطفك على كتفيك ، تكتبين اليّ بشغف مجنون تحت مصباح كهربائي ضئيل وبعيد في سقف الغرفة .

ثلاث سنوات مرت على تلك الليلة . وثلاث سنوات من حياتي توازي

بثرائها حياة رجل آخر بكاملها ، إن لم أقل حيوات عديدة . ولنقف عند هذا الحد . غير ان بعض الصور تثبت في ذهني وتستقر فيه ، واعتقد انها ستبقى مدى الحياة .

افهميني جيداً : لم أكنّ لك قط ذرةً من الشهوة ، ولا ذرة من الحب ، ولا ذرة من المودّة ، ولا ذرةً من العطف . وليس لك اليوم في نفسي أكثر مما كان لك من قبل . لكني احدب عليك ، فما سبب هذا الحدب ؟

ليس من شأن حبك لي إلا ان يثير نقمتي عليك ، لأني لا احبك . واذا كنتِ قد تعذبت لأجلي ، فاني لا ابالي مطلقاً بعذابك لأني ما احببتك قط . وفي اعتقادي ان حدبي عليك تلجم عما بيننا من التناسق والتجانس . من يقرأ رسائلك المكتوبة عام ١٩٢٧ يحسبك خالعة العذار ، ومن يقرأ رسائل عام ١٩٢٨ يظنك حمقاء . أما رسائلك بجملتها فتدل على انك ثرثارة مزعجة ولصقة جديرة بالخلود .

هذه أحكام قد تخطر في بال الناس ، لكني لا اتبناها . وقد وبخني بعضهم على اني عاملتك بكثير من رفع الكلفة . وقيل لي انه من غير المعقول ان يضيع رجل مثلي وقته في علاقة مع فتاة مثلك عديمة الاهمية وقليلة الشأن ، وان مغامرتي معك ضرب من خمول الفكر او من الرذيلة . إلا اني اعلم ما اعمل . ففيك عنصر من العظمة لا احسبني مخطئاً في قدره . احب رسائلك الاخيرة ، فهي نشيد حزين ضائع كالاناشيد التي يتغنى بها الاولاد وتروي بعض الحكايات .

ألا تدركين بوضوح ما اعني ؟

إنه ! من ذا الذي علمك ان تدركي بوضوح ؟

ان تربية الفتيات عندنا فاسدة من اساسها .

أكنت قليلة الاحتشام ؟

لا بأس عليك ، فجميع الفتيات يعرضن نفوسهن على الرجال مثلك ،

لكن في مناورات لا تخلو من البراعة

كان الجندي المختص بخدمتي في ايام الحرب يقول لي : « سيدي الملازم ، ان صراحتك ستقتلك ! » لذلك اقول لكِ ان العزلة تجرّ الناس الى اعمال دنسة .

بقيت الشتائم التي وجّهتِها اليّ . فلا اريد التعليق عليها ، لأن من يشتمني يسليني .

وأخيراً ، كدت أنسى رحتي الكبرى للنساء ، وانت أدرى الناس بفاعليتها ونتائجها . فحين افكر بالتنورات العديدة التي كان الاهمال من نصيبها فما رفعتها يد رجل ، تدهمني رغبة في طلب الغفران من النساء اللواتي لم يجدن في الحياة من يحبهن .

أودّ صادقاً أن أراك . ومن البديهي ان علاقتنا ستبقى على حالها فلا يتبدّل فيها شيء على الاطلاق . ولنفترض ان هذه الرغبة الطارئة في نفسي ليست إلا نوعاً من الفضول المقدّس ...

ك

حاشية اولى . — وقع نظري في احدى رسائلك على نبذة تعبرين بها عما انتابك من التأثر العميق لدى رؤيتك ، في متحف « دنيري » ، تمثال افعى يرقُّ جسمها من جراء التفافه على بيت سلحفاة ، خصوصاً على اطراف هذا البيت . وقلتِ ان رجلاً ، في مكان ما من الصين ، وقف منذ قرون مبتهجاً بمشهد الافعى الملتفة على السلحفاة ، فبادر الى نحت تمثالها ، وصوّر رقة جسدها على اطراف البيت . وسنة ١٩٢٨ ، وقفت فتاة من « سان ليونار » تنظر بدورها الى هذا المشهد وتتأثر . ويسرني ان تكون جملتك التي عبّرتِ بها عن تأثرك في هذا الصدد من الجمل التي تقودني اليك .

ويا لها من سلسلة عجيبة بدأت يوم نظر الفنان الصيني القديم الى

جسم الافعى الذي رقّ بالتفافه على بيت السلحفاة ، وها هي تستمر حتى هذه الدقيقة وتجد ما يبررها تبريراً رائعاً .

حاشية ثانية . — اما قولك لشقيق صديقتك الشاب ان عليه ان يقرأ والقلم في يده ليدوّن ما يجول في خاطره ، فمن الاقوال التي تثير الهزء والسخر . فالكون بأسره يضحك مستخفاً حين يسمع هذه النصيحة لسبب واحد هو انك على حق .

حاشية ثالثة . — رسالتك المؤرخة ٢٩ كانون الاول التي عبّرتِ فيها عن رغبتك في مجامعتي كانت في غاية الروعة . من اين نقلتها ؟ أمن مذكرات الآنسة دي لسبيناس[1] ؟ أم أدريان ليكوفرور[2] ؟ أم ماري دورفال[3] ؟

حاشية رابعة . — انك جيدة الصحة ، لم تظهر في جسمك دمامل ، ولم تصابي بالافتقار الى المادة الكلسية . فانت اذاً ارض جيدة للزرع . عافاك الله !

---

١ – جولي دي لسبيناس (١٧٣٢–١٧٧٦) من ارقى سيدات المجتمع الفرنسي في عصرها . جعلت منزلها نادياً للعلماء والادباء الذين وضعوا دائرة المعارف الفرنسية ، وكانت صديقة الفيلسوف الفرنسي دالامبير .

٢ – ممثلة فرنسية شهيرة (١٦٩٢–١٧٣٠) .

٣ – ممثلة فرنسية (١٧٩٨–١٨٤٩) مثلت ادوار بطلات التمثيليات الرومنطيقية ، وكانت لها علاقة غرامية متينة بالشاعر الفرنسي الفريد دي فينيي .

٢

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٢٠ ايلول ١٩٢٨

عزيزي كوستال !

انـك تملك ، ولا ريب ، سرّ التغلّب على السحر . وللمرة الاولى في حياتي ادركت معنى هذه العبارة بكامله . منذ خمسة عشر شهراً لم اسمع من اخبارك شيئاً ، ولم ادرِ أحيٌّ انت ام ميت . ومنـذ تسعة اشهر لم تجب عن واحدة من رسائلي اليك ، واذا بك تتلطف اليوم باعلامي انك احتفظت بهـذه الرسائل دون ان تفضهـا ، وانك صففتها واحدةً الى جانب اخرى بكل عناية وترتيب . وها انا اراها كما هي تماماً : فقـد تحوّل الشلّال المتدفق الى مستنقع . وهذا ما يضحكني .

اذاً ، عزمتَ على العودة اليّ . وها انت تحاول ان تعيدني اليك ، ان تربطني بمركبتك [١] من جديد .

١ ـ اشارة الى طريقـة الاباطرة الرومـان الذين كانوا يربطون العظماء من اسرام :

بدأت افهم لعبتك ، وأكاد اسمعك تقول لي : « ابتعدي ... اقتربي ... حبيني قليلاً ... اقل مما كنتِ تحبيني من قبل ... هكذا ، لا بل كذلك ... لا ، لم تفعلي بعد ما اريده منك بالضبط ... » فأنا في نظرك كلبة صغيرة تعلمني الوقوف والقفز حسب مشيئتك . وكثيراً ما سمعتك تقول : « احب الاحتفاظ بالمبادرة في شؤون الحب » . إلا انك بدأت هذه المرة تتقهقر . ففي رسالتك بكاء وعويل تحاول اخفاءهما . لكن لا سبيل الى المراوغة . فاذا كنت قد خرجت من هدوئك بعد صمت استغرق سنة ، فلأنك تشعر اليوم بحاجتك اليّ .

غير انك دعوتني مرةً من قبل لتقسو عليّ في مشغلك بشارع بور رويال . لقد بدأت افهمك . فانت توهم الناس بما ليس فيك . توهمهم بانك متقلّب ، وبان لك الف وجه ولون ، وانت انت دائماً لا تتغيّر ولا تتبدّل . تعود دائماً الى النغم نفسه كموسيقى موزار . وها انت تعود بالنزوات نفسها التي عرفتها فيك منذ سنتين . غبي انت ، وغبياً ستظل . وقد عدلت عن محاولة هدايتك .

وأصارحك بانك واهم ومخطيء في ما تظن بشأن رسائلي اليك . اعتدتُ مراسلتك ، فاستحكمت هذه العادة في نفسي ، وهذا كل ما في الامر . اني اكتب اليك كما كنت اكتب الى صحيفتي المفضلة قبل ان اعرفك ، وكما اكتب رواية . لم استطع ان اعيش، في جميع مراحل حياتي ، دون شخص انادمه وأبثه ما في صدري . بحت لك باشياء عن نفسي لم يعرفها ابي ولا امي . وضعت امام عينيك امرأة في انقى واصفى حال من احوالها . غير اني منذ سنة لم اعد متعلقة بك إلا لاعتبارك شاهداً على حياتي الداخلية .

= بالمركبة التي يمتطونها للاحتفال بمهرجان النصر . وكانت طريقة يُقصد بها تعظيم الامبراطور واذلال اعدائه .

أجل، مات فيّ شيء، فغدوت كالمتصوفين الذين يتابعون حبهم ببطء وهدوء ولا يخامرهم أقلّ شعور انساني.

قبل ان أصل الى هذه الحالة، كنت اذا سمعت بمقالٍ منك أرسل حالاً في طلبه. وفي اغلب الاحيان كنت اعطي في رسالة الطلب عنوان احدى صديقاتي خوفاً من ان اصبح شهيرة عند اصحاب المكتبات. وكنت القي رأسي الى وراء حين اقرأ عباراتك كأني أتغرغر بها، ثم اقتطع المقال واحتفظ به. وكثيراً ما كنت ادسّه في صدري ليفرح به قلبي، واحياناً ليبث فيه هذا القلب قليلاً من العطف الذي تفتقر اليه.

ومنذ سنتين لم اقرأ مؤلفاتك الاخيرة التي اصدرتَ منها عدداً محدوداً من النسخ. اما قبل هاتين السنتين فكنت اذا طلبت احد كتبك من احدى مكتبات باريس او اورليان اتظاهر باني نسيت اسم المؤلف كيلا اتلفظ باسمك امام صاحب المكتبة. لم اكن اذكر اسمك إلا امام نفسي في خلوات التأمّل. اما الآن فاني افوه به دون ان يخالجني اقل تأثر.

ما تزال صورتك معلقة على حائط غرفتي. لم افكر قط بانتزاعها من مكانها. إلا اني لا انظر اليها البتّة، فيكفي انها باقية هنا.

كتبت اليّ في ٢٧ حزيران تقول انك لا تريد ان تصبح خليلي كيلا «تسقط» في نظري، وانك تفضّل البقاء على قاعدة مرتفعة. وها انت الآن على قاعدتك المفضّلة.

اني سعيدة وانا في هذه الحال. ففي ما مضى كان غيابك الطويل العامل الفعال الذي نهش علاقاتنا ومزّقها؛ اما الآن فقد غنمت خيراً كبيراً من غيابك وسكوتك، اذ كانا لي بمثابة دواء داخلي عالجت به نفسي، ورحت اتسلى بالكتابة، وصرت لا احتاج اليك إلا اذا طاب لي ان اتابع هذه التسلية.

ليتك تعلم ما فعلت في فترة سكوتك، وما حققت خلالها بكل

بساطة ! فقد انشأت لنفسي حياة اخرى الى جانب حياتي ، وغرقت في الحلم الذي يسميه الرجال حباً . أما كنا خليلين ? كم كانت حياتي حافلة برقّة الشعور ورهافة الاحساس !

اذعنت لانقطاع رسائلك عني ، هذه الرسائل التي كان يخفق لها قلبي طرباً ، ولم اعد اتوقع منك شيئاً ، فتخليت عن الالحاح في الطلب ، وعن بذل المحاولات لأفهمك .

تنازلت عن كل شيء ، وأنا واثقة باني عملت كل ما في وسعي ، وبان الامر لم يعد في يدي . وانقطعت عن البحث ، وقلت في نفسي ان ما لاقيت هو مصيري في الحياة ، وهذا حسبي .

وجدت الراحة في اليأس . واعني اليأس بمدلوله الواقعي ، وهو فقدان الامل ، فكانت الصفحة الثانية من راحتي آلاماً مبرّحة . غير اني عزّيت نفسي بان لكل شيء وجهين في هذه الحياة ...

فلماذا تريدني ان اقابلك وانت ما برحت كما عرفتك في ما مضى ? رأيت صورتك الاخيرة في مجلة « فو » ، فأدركت من ملامح وجهك انك لم تتغيّر ، وأحسست بالعياء والسأم مسبّقاً .

أفنيت في هذه القضية كثيراً من شجاعتي ومن ثقتي بنفسي ، فاذا التقيتك فاني اخشى ان ينهار حولي كل ما بنيتُ في اثناء غيابك . ولا اخفي عنك اني ما كدت اقرأ رسالتك الاخيرة حتى احسست ان حيواناً متألماً قد استيقظ في نفسي ، وكان من الافضل ان يظل غارقاً في سباته العميق .

أتريدني ان اعود الى ذلك الجو الثقيل الجاف الذي نقمتني فيه ست سنوات ، كنتُ خلالها كأني في غاب يكسوه الصقيع ، ارضه قاسية ، وسماؤه ظلام ?

اني اعرف ما ينتظرني من المزاح المزعج الممزوج بالفظاظة ، ومن الوقاحة المداعبة السريعة الغضب . وهذه رسالتك بين يدي مثال حيّ

لهذه الصفات الراسخة فيك .

وما تراني اقول في مـا ترعمه من تفكيرك النيِّر الذي يسعى دائمـاً الى تحقير ما يعتبره الناس مقدّساً ، وهو يسيء اليك حتى بوصفك كاتباً روائياً ، اذ ما قيمة انسان يرفض احترام القيم الطبيعية ؟

لا ! انك على ضلال مبين . فقد قال « استندال » ان التجربة الكبرى التي تتعرض لها الصداقة القائمة بين رجل وامرأة هي الحب ، ولا يمكن التغلب عليها إلا بطهارة القلب والشعور الشريف . لا ادري من منا كان يفتقر الى طهارة القلب ونبل الشعور ؟ جل ما اعرفه اننا لم نتغلب على التجربة .

اذا كنت تريدني حقاً ، كما يتضح لي مـن عودتك اليّ في رسالتك الاخيرة ، فكن صادقاً وصريحاً . أمـــا اذا كنت تلهو ولا تشعر بميل جسدي اليّ ، فلا فائدة من لقائنا .

قلتَ لي يومـاً ان علاقة الرجل بامرأة لا يشتهيهـا فرصة نادرة له ، لأنـه بتعذيبها ينتقم مـن النساء اللواتي أسأن اليه . فـدور المرأة الـتي لا تُشتهى في الحياة كدور الثـائر في تخريب النظـام الاجتماعي .

ما عساني اقول لك ؟ تزوجني ، اعطني ابناً ، جُدْ عليّ بشيء آخر غير الصداقة !؟ اني لفي حاجة الى غير هذه العلاقة .

اعطني ما تشاء إلا الصداقة ، فاني لا أقوى على احتمالها . ان الحب الميت يفسدها كما تُفسد جثث الذباب اناء العطور الذي ورد ذكره في التوراة .

ألم يحدث لك مرةً أن دهمك النعـاس وانت مسافر بالقطـار ، فأغمضت عينيك خمس دقائق ، ثم فتحتهما ، فاذا برغبتك في النوم قـد تلاشت ؟ ان الرسائل الـتي وجّهتها اليك ، خلال السنة الماضية دون ان أتلقى منك جواباً عنها ، هي بالنسبة اليّ كهذه الدقائق الخمس ، لأنهـا

قضت على رغبتي في الحصول عليك . وكل شيء في حياتي قد تقلّص الآن .

وبعد ، فما الفارق بين جسد نعم بالوصال وجسد لم ينعم به ؟ ان الاشياء التي نظن اننا نحبها تمضي في سبيلها ، ثم يأتي يوم نشعر فيه اننا رأيناها كفايةً ، فنودّ لو تتوارى عن انظارنا .

يسائل المرء نفسه في بداية الازمة : « كيف استطيع العيش بـ « لا شيء » ؟ » ثم يتبيّن له انه عاش بـ « لا شيء » ، فيستقوي .

تعلّمْ هذه الحقيقة ، يا صغيري ، فربما أفدت منها في تأليف رواياتك .

السكون يغمر القرية ، والليل بدأ يرخي سدوله ، واخذت تلمع اضواء المطابخ وزرائب الماشية . اسمع من حين الى آخر خشخشة سلاسل الدواب ، ووقع خطوات الفلاحين الثقيلة ، بينما مصباحي الكهربائي لا ينير سوى طاولتي تاركاً بقية غرفتي في الظلام . وكل ما حولي هو هو . هكذا عرفته . انه لم يتغيّر منذ احدى وثلاثين سنة ...

في هذا الجو ، يعود كل شيء الى جوهره ، فيرى المرء ما في اعماقه اذا اراد النظر الى هذه الاعماق . وما اراه الآن في نفسي هو اني احببتك ولم أحسن حبك ، لأني لم ابذل لك التضحية التي طلبتَها لأحتفظ بك . وبعبارة اخرى اني لم احب إلا نفسي وملذاتي .

والشرط الوحيد الذي افرضه اليوم لأعود اليك هو ان لا تحرمني المتعة الجسدية ... إلا اني واثقة بانك ستصر على بقائي في الحرمان . وبذلك يقع الذنب عليّ ، لأني ابيت ان افعل ما تشاء .

الوداع ، يا سيدي العزيز . كن سعيداً ، وأنعم دائماً بحظك الفريد الذي يفتح لك ابواب السعادة الانسانية . واذا كنت لا تجد السعادة بما

لديك من الوسائل ، وبما تبذل في سبيلها من امكانات وجهود ، فلا امل لأحد بالحياة ...

أ . هـ

حاشية : — ربما كانت رسائلي اليك تضيع في الفراغ . لكن لا بأس ، فاني سأتابع محاولتي ، مهما يكن الثمن ، لأحافظ فيك على حياة الروح .



٣

من

اندريه هاكبو
سان ليونار

الى

بيار كوستال
باريس

٢٤ ايلول ١٩٢٨

عزيزي كوستال !

ستحسبني مجنونة . لكن على رسلك ، فقد قرأت رسالتك من جديد بينما كان الراديو يذيع قطعة موسيقية بصوت خفيض ، فاذا بكل ما كتبته اليك خالٍ من المعنى .

أتريد ان تراني ، وارفض طلبك بشموخ ؟

هذه وقاحة مني . سأركب القطار غداً صباحاً وأجيء اليك . اكتب اليّ ، او اتصل بي هاتفياً الى فندق ر... ، شارع فرنوي ، حوالى الساعة الثامنة . وبهذا اكون قد فعلت كل ما في وسعي لتجميل مصيري ، وجعله كاملاً وممتلئاً . لك باخلاص .

اندريه

٤

من

بيار كوستال
باريس

الى

اندريه هاكبو
فندق و ...
شارع فرنوي ، باريس

٢٥ ايلول ١٩٢٨

آنستي العزيزة !

أتعرفين المطعم الارمني ، الكائن في شارع شوسيه دانتان ، رقم ٤ ، على زاوية شارع الكبوشيات تقريباً ؟ تناولت فيه الطعام خمسين مرة مع امرأة كنت احبها ، فلا بأس اذا طهّرتُ هذا المكان بتناول الطعام فيه من جديد مع امرأة لا احبها .

سأنتظرك هناك غداً ، الثلاثاء ، ٢٦ ايلول ، الساعة الواحدة . وأرى في الروزنامة ان هذا اليوم هو عيد يوحنا المعمدان . وهذه ذكرى لا تدعو الى التفاؤل . فلتكن مشيئة الله !

اذا وافقتِ على هذا الموعد فلا تجيبي عن هذه الرسالة . لك باخلاص .

ك

٥

من

أندريه هالبو
باريس

الى

بيار كوستال
باريس

٢٦ ايلول ١٩٢٨

أدعوتني الى باريس لتهزأ بي وتنتقم مني؟ انتظرتك من الساعة الواحدة الى الساعة الثانية، فما رأيتك في المطعم ذي الرقم ٤، بشارع الكبوشيات. ولم اجرؤ على الاقامة هناك ساعة دون ان اتناول طعام الغداء، فاضطررت الى دفع ثلاثين فرنكاً ثمن صحفة واحدة او اقل!
لا اقول لك اكثر من هذا: ان تصرفك يثير قرفي واشمئزازي.

أ. هـ

حاشية. — قرأت رسالتك من جديد، ورأيت فيها ان موعدنا كان في شارع شوسيه دانتان، رقم ٤. وبما انك ذكرت شارع الكبوشيات، فقد اخطأت بين الاسمين، ولم تكن رسالتك معي. وشاء سوء حظي ان يكون في شارع الكبوشيات مطعم يحمل الرقم ٤. اعذرني. أتريد ان نتغدى معاً غداً او بعد غد؟

٦

من

بيار كوستال
باريس

الى

اندريه هاكبو
باريس

٢٦ ايلول ١٩٢٨

آنستي العزيزة !

انتظرتك من الساعة الواحدة الى الساعة الثانية إلا ربعاً في المطعم الذي ضربت لك فيه موعداً . لست رجلاً يصفح ، انما انا رجل ينسى – ينسى نسياناً حقيقياً – افظع الاساءات . غير اني لست من الذين ينتظرون عبثاً في موعد مضروب ، حتى لو كانت الحماقة سبب هذا الموعد . الوداع ، اذاً ، وداعاً جدّياً ونهائياً هذه المرة .

كوستال

(ظلت هذه الرسالة بلا جواب ، ولم يعد كوستال يسمع شيئاً من اخبار الآنسة هاكبو . وخير الاعمال ما تكون نهايته حسنة .)

٧

من

سولانج دنديتو
باريس

الى

بيار كوستال
باريس

٢ تشرين الاول ١٩٢٩

صديقي العزيز !

لو شئت ان تكون عادلاً لاعترفتَ بأني ، منـذ خمسة عشر شهراً ، اي منـذ افترقنا وبـدأنا نتراسل ، لم احاول مرةً واحدة التدخل في حياتك الخاصة .

واذا كنتُ قد اقدمت على الكتابة اليك الآن فليس لأحدثك عـن نفسي ، اذ لو كانت اخباري تهمك لتفضلت بالكتابة اليّ . وانما اكتب اليك بشأن وصيفتنا ، فانت تعلم انها لم تكن حسنة الصحة منذ الايام التي كنت تزورنا فيها . وهي اليوم مصدورة ، ومن الضروري ادخالهـا الى مستشفى السلّ . أذكر انك اخبرتني يومـاً بان امك خلفت لك

مكاناً في مستشفى نسيتُ اسمه ، أفتستطيع ان تفعل شيئاً لهذه الفتاة التي خدمتنا باخلاص طوال ست سنوات ؟

اشكرك سلفاً . اتصل بي هاتفياً اذا شئت . الك اجمل تحياتي » .

سولانج .

٨

من

بيلو كوستال
باريس

الى

سولانج دنديلو
باريس

٣ تشرين الاول ١٩٢٩

صديقتي العزيزة !

كم انا سعيد لأنك فكّرت بان تطلبي اليّ خدمـــة ! ارسلي اليّ وصيفتك يوم تشائين صباحاً بـين الساعة الحادية عشرة والظهر . فـاني احب المصدورات حباً جمـاً ، فهنّ مرهفات الشعور ، تفيض عواطفهن لأتفه الامور . اذا كنتُ لا استطيع ان اجد لها سريراً في مستشفى ر... ، فاني سأجد لها هذا السرير في مكان آخر . اقول هـذا بلا اقل فكرة سيّئـة . فالمسألة تتوقف على معرفـة أأريد ان تحيا ام لا ، لأن الشفاء من السلّ منوّط ببذل المـال اذا اكتُشف الداء قبل فوات الاوان . وسأعرف حقيقة حالها متى رأيت وجهها ، واعترف لك باني نسيته .

واني لأسائل نفسي مـا الذي جعلك تظنين اني لم اعـد اهتم بك . اذا كان سبب اعتقادك هذا هو سكوتي الطويل منذ خمسة عشر شهراً ،

فانت بعيدة عن الحقيقـة . فأعزّ اصدقائي لا احب ان اراهم اكثر من
مرة كل ثلاث سنوات .
لك اجمل تحياتي ، كما قلتِ ، فكان قولك لطيفاً .
ك

العام ١٩٣٠

٩

السيد الفونس غريغور ، المهندس الاول في معامل س... لصهر الحديد ، حامل وسام جوقة الشرف من رتبة فارس ، والسيدة الفونس غريغور والسيدة شارل دنديو ، يتشرفون بدعوتكم الى حفلة زواج الآنسة سولانج دنديو بالسيد غستون بيغورياه المهندس .

وهم يرجون منكم حضور حفلة الاكليل التي تقام في ٢٠ كانون الاول ١٩٣٠ في كنيسة القديس فرنسوا دي سال ، شارع بريمونتلياه .

العام ١٩٣٠

١٠

من

السيدة غستون بيغورياه

باريس

الى

بيار كوستال

باريس

٨ تشرين الاول ١٩٢٨

صديقي !

في لحظة شرود وبلبلة، طلبتُ أرقام هاتفك، طلبتها بحركة عفوية وبلا تفكير، وانا على يقين بان الخادم سيردّ قائلاً انك غير موجود في البيت، او ان خطك مقطوع كما هي العادة. ولو كنت اعلم انك ستردّ بنفسك لفكرت بالامر ملياً، ولكان من المحتمل ان اعدل عن الاتصال بك. إلا اني سمعت صوتك يقول عبارتك المعهودة: «من يتكلم؟» وكان خشناً، يعبّر عن القوة والسيطرة، وليس فيه ما يسرّ، فاستولى عليّ الذعر. هل عرفتَ صوتي؟ لا ادري. فقد رحتُ ألهث في سماعة الهاتف من شدة الخجل، وكان لهاثي شبيهاً بلهاث حيوان مذعور لا يجد منفذاً للفرار. ولا ريب في انك سمعته مضخّماً في سماعة الهاتف، وادركت ان الخوف

عقد لساني ، فقطعت الخط .

وها انا اعود الى ما كنت عليه ، فكلما تبيّن لي ان الخجل يمنعني من مخاطبتك ابادر للكتابة اليك . وهكذا كنت افعل مع زوجي في الفترة الاولى من حياتنا الزوجية . كان يجد رسالتي امامه اذ يجلس الى مائدة الطعام ، فلا اظهر امامه حتى يفرغ من قراءتها . فانظر اليه ، ولا ينظر اليّ ، فنتناول طعامنا في صمت تام .

كنت ارسل صيحات مدوّية في اعماقي ، ولا أظهر منها شيئاً ، فابقى ذاهلةً ، واجمةً ، كأني لا اعي .

اعتقد انك تتخيّل حالتي في مثل هذا الموقف ، فترى اني ما ازال خرشوفاً صغيراً كما كنت .

اخشى ان تقع في الخطأ ، فتحسب هذه الرسالة خطوة اولى من خطة مرسومة . لكن ما حيلتي ما دمت مضطرة الى اطلاعك على ان سكوتك الذي لا ينتهي يؤلمني ؟

الحق يقال اني لزمت الصمت مثلك ، لكن اياك ان تعزو سكوتي الى الفتور . كل ما في الامر اني خشيت ان ازعجك . وانت تعرفني جيداً ، وربما تذكر كم اخاف ان ازعج من أحب .

من الواضح انك لا تحب ان تراني . واعتقد اني لم اتصرف معك تصرفاً يُفقدني احترامك . فارجو ، اذاً ، ان يبقى لي هذا الاحترام .

اما مودتك وعطفك فاني اسائل نفسي عمّ بقي منها . غير اني اكون سعيدة اذا استطعت ان لا اخسرك كلياً .

ألا يمكننا ان نلتقي في منزلك من حين الى آخر ؟ ألستَ مديناً لي بهذا على الاقلّ ؟ سافر زوجي الى منطقة سون العليا ، وسيستغرق غيابه ستة اسابيع . ولا اريد منك إلا المحافظة على صداقتك او استعادتها ، ولا اريد شيئاً سواها . وانت تعلم اني لا اعمل إلا ما

يطيب لك .

زوجي شاب ممتاز ، ورجل عظيم القدر ، إلا انه لا يفهمني اكثر مما كان ابي يفهم امي . وتحاول امي تعزيتي ، فتقول لي : « جميع الرجال من هذا الطراز ! » فأجيبها : « اذاً ، لماذا اكرهتني على الزواج ؟ » فتجيب : « لا بد من الزواج ، فهذه سنّة الحياة ! »

ومنذ تزوجت وأنا اشعر باني في حالة غير طبيعية . اشعر بالضيق والارتباك كأني في ثوبٍ خياطته سيّئة ، يضايقني ولا ادري بالضبط المكان الذي اتضايق فيه . وفي الآونة الاخيرة اصبحت حالتي اشدّ سوءاً ، ففي بعض الايام يُخيّل اليّ اني طريدة وقعت في شبكة الصيّاد ، فأكاد اصيح رعباً .

اني افكر بتدمير كل شيء حولي لأعود الى حياة الانفراد والحرية ...

منذ اربع سنوات ، يا صديقي ، كنا في جنوى . اجل ، اربع سنوات اكتملت هذا الاسبوع . فهل لهذه الذكرى تأثير في نفسك ؟ اني اشك في ذلك . اما انا فاعتقد ان ما جنيته في هذه الرحلة يساوي جميع العذابات التي دفعتها ثمناً له . وربما كان ما جنيته عزيزاً عليّ الى هذا الحدّ ، لأني دفعت ثمنه غالياً .

أعلّل نفسي بالحصول على جواب لطيف منك . وأصارحك بان استمرارك في السكوت لن يغضبني لأنك عوّدتني التنازل عن كل ما احب ...

وبعد ، « فالنساء المحشوّات بالذكريات يحملن الماضي امامهن دائماً كبطن حبلى في شهرها التاسع ، بينما الرجل هو النسيان الابدي ، والقدرة الذكر اللاهية بالنسيان [1] » .

---

١ – جملة وردت في احد مؤلفات كوستال . – المؤلف .

ومهما يكن من الامر ، فاني لم انتظر قط في حياتي تحقيق امنية كما انتظرك الآن .

ليت هـذه الرسالة تحمل اليك ، على الأقلّ ، يقينـاً بكل محبتي ومودتي . أنا لك .

سولانج



١١

من

بيار كوستال
باريس

الى

السيدة غستون بيغورياه
باريس

١٠ تشرين الاول ١٩٣١

عزيزتي السيدة غستون بيغورياه !

قلتِ لي يوماً : « ان الكلمات التي تقولها لي دائماً ليست هي التي انتظرها منك » . فإليك الآن ، من جديد ، باقوال ليست مما تنتظرين .

شعرتُ في ما مضى بميل اليكِ ، فأخذتك . ثم احسست بعطف عليك ، فأردت لك الخير . وفي وقتٍ ما وددت لو احبك حباً عظيماً . غير انك اردتِ تحويل ميلي ، الذي كان طبيعياً ، الى واجب ، اي الى شيء غير طبيعي ومكتوب له الموت . حاولتِ جرّي – انا اللانظامي – الى ميدان ليس ميداني ، حاولت « تنظيمي » . ومذ ذاك اليوم اضمرتُ لك البغض ايضاً . اقول « ايضاً » لأن عطفي عليك كان لا يزال حياً حتى ذلك الحين .

ويوم قلتُ لك : « لا ! » لم اعد ابغضك ، فقد حلّت اللامبالاة في نفسي محل البغض ، وحاولتُ تمويهها طوال اشهر عديدة بعاطفة لا يليق

بك ان تقبليها ، إلا انك قبلتِها ، لأن النساء يقبلن كل شيء مـا دام الامر يفسح لهن في مجـال الأخذ . واعني بهـذه العاطفـة : الاحسان والصدقة .

سحبت نفسي بجلد رقبتي ونجوت لما رأيت اني أكاد أغرق في حب الآخرين الذي لا مخرج له .

لو رأيتك الآن فما عساه يكون الشعور الذي أكنّه لك ؟

لا يمكن أن يكون اليوم – اليوم والى الابـد – إلا الصدقة ، لأني لا أبالي مطلقاً بمـا تعانين من الآلام . وأراك تحاولين جرّي الى الصدقة من جديد ، وهي سرطان الرجل ، بذريعة انك تزوجت برجل أبله .

قبل أن أعرفك ، وبعد أن هجرتك ، كنتُ سعيداً . ولم أكن سعيداً في « عهدك » بسبب هذه الصدقة وذلك الواجب .

كل ما يحيط بك هو العافية والسعادة ، وانت في الوسط مثال الشقاء والشرّ . كنتِ بالنسبة اليّ كرأس مقطوع في بركة من الذهب .

تذكرين ، ولا ريب ، اني كنت أعتقـد أن مستقبلي سيكون مشوباً بالاسف اذا عدلت عن الزواج بك . غير ان اعتقادي هـذا كان باطلاً . فمنذ ثلاث سنوات لا يمضي من حياتي اسبوعان دون أن اخترع الله مدة دقيقـة واحدة ، هي الوقت الكافي لانطرح جاثيـاً الى جانب سريري ، ولأبتهل اليه قائلاً : « شكراً لك ، يا الهي ، لأنك سمحت بان لا اقترن بها ! شكراً لك لأنك سمحت بان أقاوم نزوعي الى الصدقة ! »

لما تسلمت رسالتك قلت في نفسي : « اذا التقيتها فسترى اني تقدمت في السن ! » والتفكير في هـذا الامر شيء راسخ في طبيعة الانسان . إلا اني أجبت نفسي فوراً بقولي : « لا بأس ! فلا شأن لها في سيري الى الشيخوخة ، لأني لم أُمضِ سنواتي الثلاث الاخيرة الى جانبها » .

أرسلتْ اليّ فتاة مجهولة مخطوطة رواية عثرتُ فيها على الجملة التالية : « حماقة النساء هي الليل يخيّم على العالم » . ولو كتبت : « حب النساء

هو الليل ... » ، لأجادت وأصابت كبد الحقيقة .

ليس هذا الليل وحده يخيّم على العالم . فثمة ليالٍ اخرى عديدة ، أحدها حب الاحسان والصدقة الذي يقلب الانطلاق العفوي الرائع الى تصنع مبتذل ، ويعتدي دائماً على الحب ويسلبه امتيازاته ... يسلبه حتى ملامح وجهه ، فيجعل من الابتسامة تكشيرةً .

قال شاعر فارسي : « من أحسن مرةً الى الافعى أساء الى أبناء آدم وهو لا يدري ! » وأنا أقول : « من تصدّق على المرأة أساء الى الحب وهو لا يدري » . وقولي أعمّ وأوسع شمولاً .

الصدقات التي جدت بها تملأني خجلاً . ولهذا السبب كنتِ أنتِ مبعثاً لخجلي . والشعور بالخجل، في مثل هذه الحال، لا يختلف عن الشعور بالعار .

لا أريد بعد اليوم تكشيراً عوضاً عن الابتسام . ولا أتوق الى شيء في الحياة أكثر من توقي الى التخلص من التكشيرات القديمة التي علموني اياها . فما يسمونه تثقيفاً ما هو إلا تعليم الناس كيف يكشّرون .

أبذل جهدي ليشرق النهار في نفسي ، في القسم الثاني من حياتي ، لأهرب من الليل الذي كان جاثماً عليّ جثومه على العالم . وليكن الغروب في عمري نوعاً من انبثاق الفجر ... فلا تعودي لتلقي ظلك الكالح على هذا الفيض من الجمال .

اذا كانت هذه الرسالة قاسية ، وكانت قساوتها قد جاءت في غير أوانها ، فذلك ان المرء لا يستطيع ان يحمل الى الأبد عبئاً يفوق قواه . فهو يحتمل ، ويحتمل ، ثم تنهار أعصابه ، فيسقط العبء ويسحق رجل الرجل اذا كان قد وضعها في غير المكان المناسب لها . وهذا بالضبط ما تطلق النساء عليه اسم « الخيانة » . وقد رأيتِ العبء يسقط على رجل احدى زميلاتك ... تلك التي دعوتك يوماً الى مشاهدتها من وراء

الستار في منزلي بشارع بور رويال .

اما اذا كان الرجل يحب فان العبء لا يسقط ، لأن حمله يصبح سهلاً .

ذات يوم فضّلت نفسي عليك . ومنذ تلك الساعة عادت الامور الى نصابها الطبيعي . والشر ، كل الشرّ ، كان ينجم عن اني — في بعض الاحيان — كنت افضلك على نفسي .

قلتِ لي : « سأكون لك ما تشتهي ان أكون » . وشهوتي الكبرى ان لا تكوني لي شيئاً على الاطلاق .

تسألين : ما تبقّى من العطف الذي كنت اكنّه لك ، فأجيبك بانه قد اندثر ، ولم يبق منه اثر .

لو دريتِ الى اي حد لا احبك لاستولى عليك الذعر . لم تتركي في مادتي الانسانية ظلاً لذكرى صغيرة ، فقد تلاشت من ذهني حتى صورة وجهك .

وعلى الرغم من اني مدين لك ببضع ساعات جديرة بي ، فان جملة الذكريات ، التي كنت احفظها من علاقتنا الغابرة ، كانت ثقيلة عليّ ومزعجة . اني أتذكر كل ما اكتشفته فيك من الاشياء المؤثرة التي كانت تبلغ احياناً درجة السمو . إلا ان هذا التذكر اصبح عديم الجدوى ، يعجز عن شدّي اليك كأنه كماشة افلت برغيّها .

قال فوفنارغ[1] : « الاحترام يهترىء ويزول كالحب » . والقسم الاكبر من الاحترام الذي كان لك في نفسي قد امّحى كلياً . اذا وقعتْ عيني صدفةً على مذكراتي ، وقرأت فيها اني كنت معك في احد ايام سنة

---

١ — لوك دي كلابياه ، مركيز دي فوفنارغ (١٧١٥ — ١٧٤٧) فيلسوف فرنسي تخصص في درس الاخلاق . اشهر مؤلفاته « تمهيد لمعرفة العقل البشري » ، و « تأملات » ، و « حكم » .

١٩٢٧ ، واننا ذهبنا معاً الى مسرح ساره برنار ، فلا استطيع ان اتذكر شيئاً من هذا اليوم . لا اجد في ذهني أثراً لذكرى ما . ولو مُثلت لاقسمت صادقاً اننا لم نذهب قط معاً الى ذلك المسرح . وهذا افضل حلٍّ لقضيتنا . كانت الذاكرة ربة وحي ، اما النسيان فيجب ان يكون جنيّة خير وبركة .

وانتِ ايضاً ليس لي في نفسك سوى اللامبالاة منذ ثلاث سنوات على الرغم من هذه العودة الى حرارة الحب ، وهي مظهر لا اكثر ، سبّبه غياب السيد غستون بيغورياه في سون العليا .

صدقيني اذا قلت لك ان الشعور المتبادل باللامبالاة بين شخصين — واعني اللامبالاة المطلقة ، اللامبالاة الكثيفة — هو شعور طبيعي وسليم ، حتى لو كان هذان الشخصان قد تحابا في وقتٍ ما . فكل شيء في الحياة يتقلص ، ولا يُنتج هذا التقلص شراً اكبر من الشر الذي يسبّبه اهمالُ رسائل بلا جواب . وهذا التبدّل في الرجل ليس من النقائص التي تسبب شقاءه ، بل من فضائله . وثقي بأن من يصل الى مثل هذه الحال ينتشي بمتعة كبرى . فلا بأس على الرجل اذا احب ما دام حبه يقوده ، يوماً ، الى ما انعم به الآن . فانه يخيّل اليّ اني اطير في الجو من شدة الانشراح .

ومن الاسباب التي جعلتني احتمل منك ما لا احتمله من سواك انك لا تكتبين اليّ رسائل طويلة . سواء أكنتِ « مفهومة » من زوجك او غير مفهومة ، فإياك ان تتمادي في كتابة الرسائل .

لا استطيع ان احمل لك شيئاً ، فالمرء لا يستطيع شيئاً في سبيل الذين لا يحبهم . ابحثي عن ضالتك في مكان آخر ، فالعالم واسع يزخر بالرجال . وهذا ما ردّدته على مسمعك خمسين مرة . واذا كنتِ بحاجة الى تعزية ، فقولي في نفسك انك اعطيتني سنة من الملذات على الرغم من جميع المتاعب والخيبات — اعطيتني عواطف حتى يومك الاخير ، اعني

آخر يوم من علاقتنا . ففي وسعك ان تعتقدي ، اذاً ، ان وجودك على الارض لم يكن عديم الفائدة . وهذا كسب لا يستهان به . ومـا دمت مزوّدة بهذا المتاع فامشي ، وامضي في سبيلك . تحيات .

ك

(بقيت هذه الرسالة بلا جواب . ولم يعد كوستال يسمع شيئاً من اخبار السيدة بيغورياه . وافضل الامور مـا ينتهي بمثل هذه النهاية الحسنة .)






ملحق



فرغ كوستال من قراءة ملاحظات كتبها منذ سنة ولم تنشر بعـد ، فقال في نفسه :

« اني افكر بالنساء وأسيء بهن الظن ، واعرب بصراحة عما يجول في خاطري ، وامعن في التعبير بلا هوادة . ثم أصل الى فترة أتوقف فيها ، فتطرف جفوني وأسائل نفسي : « أين أنا ؟ » ويخامرني شعور بان ما أفكر بـه وما أقوله منـذ حين لا ينطبق على الحقيقة . فـاتهم نفسي عندئذٍ ، بالتجني ، وأتمرّغ في وحل التواضع وتبكيت الضمير . ولا أكاد أخرج من هـذا الوحل حتى أفاجأ باني لم أكن مخطئاً ، وان مبالغاتي المزعومة كانت الاعراب الصادق عن واقع الحال .

« هذه المرأة الستّينية تعيش منذ اربعين عاماً مع زوجها السبعيني . وبينا هما يتعايشان ، ويسكنان تحت سقف واحد ، ويتناولان طعامها وجهاً الى وجه ، أقامت عليـه الدعوى مطالبة بالهجر ، وحجزت أثاث البيت على يد دائرة الاجراء ، وختمت صندوق زوجها الحديدي بالشمع الاحمر . ولما قال لها : « هذه المشكلة ستقتلني » ، أجابت : « أعلم ذلك » . وسبب هذا التصرف الغريب هو الغيرة ، أي « الحب » ...

« وثمـة زوجات طيارين يقلن لك : « أتظن جورج شجاعاً شديـد الشكيمة ؟ انه يخشى الركوب في المصعد ، ولا يجرؤ على ابـداء ملاحظة للخادمة ، ويكفي أن أقول له كلمة واحدة ليتخذ قراراً مـا ، أو لا يتخذه . انه ولد غرّ ، الخ ... »

« عرفت في المغرب امرأة كانت تتحدث عن زوجها ، وهو يعمل في

الارياف، ويشتغل عشر ساعات في النهار، فتقول: «يجب على رينه ان يكدّ ويجتهد، فهو يعلم ما تكلفه المرأة لتكون راضية!»

«والاخبار من هذا النوع لا تنتهي... ونستطيع ان نكتب واحداً منها على كل ورقة من اوراق الروزنامة. لا، اني لا اخطيء إلا حين اظن اني ابتعدت عن الحقيقة...»

واليك بالنص الذي قرأه الكاتب:

المجذومات

(موجز)

ما الذي يربطني بك، يا امرأة؟ — يسوع لأمه.

اللاواقع. — عمليات تسدّ النظر الى جهة واحدة. الخوف من الحقيقة بدافع الجبن او البلاهة المثالية. مع اننا بالحقيقة نغسل نفوسنا. «اني اطرح في سلّة المهملات جميع الوثائق التي يرسلها اليّ العسكريون عن الاسلحة الالمانية». هذا ما قاله بريان لاشتريسمن في تواري [1].

التألمية. — قال الرسول ان من لا يتفجع لقيطٌ، وليس ولداً شرعياً. فالمتفجعون يفركون ايديهم استعداداً للهجوم على السعداء! والمتفجعون يؤمنون ويعلنون ان من واجب الانسان ان يتألم، كما يؤمن ويعلن الكتّاب السخفاء ان انشاء الرواية يجب ان يكون سيئاً. فالمهم في نظر المدعي هو ان يكون على صواب. يُعتبر الألم المعنوي عاملاً للتعمق في

---

١ — أرستيد بريان (١٨٦٢–١٩٣٢) سياسي فرنسي وخطيب مفوّه. تولى رئاسة الحكومة الفرنسية احدى عشرة مرة، ووزارة الخارجية، وكان يدعو الى سياسة تفاهم ووئام مع المانيا، ثم اصبح من اقطاب جمعية الامم.

وغوستاف اشتريسمن (١٨٧٨–١٩٢٩) سياسي الماني، تولى وزارة الخارجية في بلاده، ووقع مع بريان معاهدة لوكارنو وميثاق بريان — كيلوغ.

التفكير، مع انه ليس هو الذي يُعمّق[1]، بل الازمة التي سببته، وثمة فرق بين الحالين.

يصلح الألم لبعث اعتبار المتألم في نفوس الناس، ولحثهم على الاعتناء به، وعلى الصفح عنه، وهو من العناصر التي يزعم بعضهم انهـا صفة ضرورية وداخلية العبقرية.

لا يستطيع الانسان القول بانه سعيد دون ان يحسبه الناس أبله، او غليظاً، او منافقاً يريد ان يكون محسوداً، او وغداً يستخف بالشقاء البشري. وهذا مـا يجعل الألم والقلق اكثر وضوحاً. فـالألم هو الذي يدفع ثمن الازمات.

والألم المعنوي هو الدليل – دائماً تقريباً – على الضعف الجسدي لأن الضعيف يقلق ويضطرب، وهو دليل ايضاً على الضعف العقلي لأن الذكي يعرف كيف يعالج اكثر آلامه المعنوية وكيف يخففها.

الرغبة في الحصول على اعجاب الناس. — هذه الرغبة تدفع صاحبها الى قول ما يظن انه يعجب الناس، لا ما هو واقع، او مـا يجول في خاطره. فحب الحصول على التأييد هو القاسم المشترك لجميع الاشخاص في مختلف الطبقات البورجوازية.

غريزة التجمّع. — انهـا نتيجة الخوف من الفكرة الفردية والحقد العميق عليها، والوحي الذاتي الجماعي. الافكار العادية تنهش العـالم كما تنهش حشرة الفيلوكسيرا عرائش الكروم. فالجميع يفكرون تفكيراً واحداً، في وقت واحد، كالكراكوزات الـتي تحرّكها يد واحدة من وراء الستار.

العواطفية. — تحل محـل العقل والعدالة. والمبادىء الخلقيـة بذخ رخيص، وسمو مزيّف يستخدمه الدين والمدرسة الصحفية.

---

[1] – قتلت الكآبة كثيرين من الناس، ولا فائدة منها. (سفر الجامعة). – المؤلف

في كل واحدة من تلك العاهات الخمس التي تشوّه جسم المجتمع نجد عدداً كبيراً من الجراثيم بشكل يوني . وبعبارة اخرى : ان جميع تلك الامراض نسائية المادة . فلنعد الى درسها :

فاللاواقع . — يعبّر عنه بجملتين معروفتين : « لا استطيع التفكير بهذا الامر » ، و « يجب تعليل الأمل بان ... » وهما شكلان نموذجيان من اشكال تعبير المرأة . والمرض العضال الذي تعانيه المرأة يجعلها عاجزة عن احتمال الحقيقة الواقعية . وهذه الحقيقة جرح عميق بالنسبة الى النساء ، مما يجعلهن يبحثن عن ملاجيء لهن : في الحب ، في الدين ، في المعتقدات الخرافية ، في الشعوذة ، في اللياقات [1] ، في المثالية المزيفة الوجه والجسم . فالمرأة لا تجد الراحة إلا في كونٍ مزيّف بسبب المرض الذي تعانيه .

يخشى الرجل الكلمات اكثر مما يخشى الحقائق ، بينما تخشى المرأة الكلمات والحقائق معاً . المرأة كالنعامة تضع رأسها تحت جناحها وتظن ان احداً لا يراها . والرجل يضع رأسه تحت جناحه ، لكنه يعلم ان العيون تراه .

في قصة « اندرسن » [2] قامت النساء ، ولا ريب ، بمهمة امتداح ثياب الملك التي لا وجود لها . فكان على الرجال ان يسيروا على هذه الخطة

---

١ ـ « بين النساء المرموقات من يعتقدن ان لا وجود للشيء الذي لا يمكن التحدث عنه في المجتمع » . (نيتشه) . — المؤلف .

٢ ـ هنري كريستيان اندرسن (١٨٠٥—١٨٧٥) كاتب دنركي وضع قصصاً تدل على خصب الخيال والكآبة الشعرية الناعمة ، ومنها قصة « الثوب غير المنظور » التي يشير اليها المؤلف . وهي حكاية ملك مولع بالثياب الجديدة خدعه محتالان واوهماه انهما يحيكان قماشاً غير منظور ، فراح يسير عارياً ويحسب انه يرتدي ثياباً من ذلك القماش . وقد بلغ من تزلف رجال البلاط اليه أنهم اقدموا على التغني بتلك الثياب التي لا وجود لها .

بشيء من الاشمئزاز . ولم يُقْدِم إلا الولد على الجهر بان الملك كان عارياً .

لهذا السبب نرى النجاح يحالف الفنون المسرحية ، والروائية ، والسينمائية التي لا تصور الحياة كما هي ، في كل مجتمع يمنح المرأة مرتبة عالية ومكاناً مرموقاً . فهذا النوع من المجتمعات يمقت الحقيقة الواقعية مقتاً شديداً [1] .

التألمية . — في فترات طويلة من الزمن ، وفي المجتمعات المصابة بالضعف والعجز ، اعتنقت المرأة بحرارة المذهب القائل بان في الألم كرامة وفائدة وعظمة : فالجرثومة التي لها شكل يوني والجرثومة التي لها شكل صليب هما متجانستان تجانساً تاماً معروفاً منذ زمن بعيد . وليس بين الناس من يردد اكثر من المرأة ، بفخفخة واصرار ، ان الألم ضروري للانسان ؛

---

١ — مخطوطات النساء الكاتبات محشوة دائماً باغلاط الاملاء والتنقيط . انهن يعرفن قواعد الاملاء والتنقيط ، إلا انهن لا « يرين » اخطاءهن في المخطوطات بقدر ما يتعامين عن الحقائق التي تملأ العيون في الحياة ، كاولئك الامهات اللواتي يعايشن ابناءهن اثنتي عشرة سنة فلا يلاحظن أثر جرح في رأس هذا ، او بقعة على ربلة ذاك .

منذ ثلاثين سنة وضعت سلاسل حديدية حول مواقف سيارات الاوتوبيس في باريس ، واصبح معروفاً ان الطريق من هذه المواقف يفتح برفع طرف احدى السلاسل . ومع ذلك فثمة نساء عديدات يشددن السلسلة من فوق الى تحت ليرفعنها ، بينما يجب شدها من تحت الى فوق ، وهذا ما يعجزن عن معرفته . فبعد محاولات عديدة يلقين على من حولهن من الناس نظرة استعطاف وابتهال ، طالبات المعونة كهرٍّ غرزت حسكة سمكة في لثته ، فادمى فقمه وهو يحاول انتزاعها ، ثم جاء يلتمس منك ان تخلصه من هذه النكبة . ولم نرَ قط رجلاً في مثل هذا الموقف وهذا الارتباك العجيب . لا اريد الامعان في هذا الموضوع . جل ما في الامر أن هذا المثل بدا لي مفيداً ، فرأيت ان اثبته هنا على الرغم من تفاهته . — المؤلف .

وليس بين المخلوقات من يكيل الشتائم اكثر منها لمن يملك من فن الحياة ما يساعده على اجتناب الآلام . فهي تبذل جهدها بضراوة لتكتشف فيه نقطة ضعف وتضربه فيها . كانت زوجة تولستوي تقول في زوجها : « ابغضه لأنه لا يتألم » . فتاريخ الانسانية ، منذ حواء حتى اليوم ، هو تاريخ الجهود التي بذلتها المرأة لتحط من قدر الرجل حتى يتألم ويصبح مثيلها [1] .

في الغرب ، حيث تسيطر المرأة ، يسود مذهب الألم ، وفي الشرق ، حيث يسيطر الرجل ، يسود مذهب الحكمة .

الرغبة في احراز الاعجاب . — تحب المرأة الشابة ان تُعجب كل رجل ، وان تحرز اعجابه ، مهما يكن الثمن ، وفي جميع المناسبات . ولسنا بحاجة الى التوسع في هذا الموضوع .

غريزة التجمع . — « كم تختلفين عن الاخريات ! » كل امرأة سمعت هذه العبارة من رجل قالها لها ، ثم مدّ لسانه ساخراً منها . وتصلح هذه الحقيقة عنواناً لرواية هو : « الذين يمدّون ألسنتهم » . وكان من الضروري ان تكون هذه العبارة : « كم تشبهين الاخريات ! » ان الحيوان الذي يفرز الافكار المبتذلة اكثر من جميع الحيوانات هو المرأة ، لأنها ضعيفة ، لا تثق بنفسها ، فتحتاج الى الاتكال على الرأي العام ؛ ولأنها خالية من التفكير الشخصي هي بحاجة الى فكر الرجل لتنتحله وتدعي ملكيته ؛

---

١ — كتبت احدى النساء يوماً الى كوستال تقول : « انك لا تعرف شيئاً عن حالة المرأة النفسية ، لأنك تجهل الألم ، ولأن شبعك الجنسي يصونك من اليأس . والجسد الذي لا يتألم هو جسد جيض » .

وقالت في مكان آخر من رسالتها : « يستطيع الرجل ان يكون كذا وكيت ، اما المرأة فتبقى دائماً امرأة ، وتعرف ان تعطي الألم وهو اجمل من الحب ، وان تمنح الانحطاط - وهو اقوى من الحياة - للاشخاص الاقوياء الذين هم دائماً متعجرفون بلهاء » . — المؤلف .

وهي معتادة ان تقول ما تظن انــه يعجب الرجل . ومع ذلك نسمعها تردد : « لست واحدة من القطيـع ! »

ماذا ؟ ألا ينتقد القطيـع إلا من هم اسوأ حيواناته ؟

العواطفية . — ان الرجل الذي يحب امرأة حباً حقيقياً يعطيها حبـاً آخر غير الحب الذي تطلبه منه . أما هي فتحاول دائماً ان تفسد الحب الذي يقدمه لهــا الرجل . فالنساء هنّ اللواتي جعلن من المودّة مرضاً عصبياً . والعطف الغرامي — وهو الهي ومقدس حين يكون محبةً خالية من الشهوة — اصبح في اعتبارهن مسخاً سقيماً سخيفاً نطلق عليــه اسم « الحوووب » على طريقة فلوبير لما ابتكر كلمة « فاظييـع ! »[1] للدلالة على ما في قائليها من الادعاء والسخف .

فالحووب هو الحب كما تفهمه النساء ، هو : البلاهة ، والغيرة ، والنزوع الى المآمي .

ولنتوقف هنا قليلاً ، فإلى اين وصلنا ؟

القلق الانثوي مرض تنقل المرأة عدواه الى الرجل ، اذ تحتــاج الى ان تكون محبوبة في مقابل حبها ، وهي على اتم الاستعداد لينقلب حبها الى لامبالاة ، او الى بغض . انه قلق غبي ، اخرق ، يقتصر على الكلام ، ويضيق غرضه ويتقلّص حتى ليمكن التساؤل : « واخيراً ، ما هي الغاية منه ؟ »

---

١ — من مبتكرات الكاتب الفرنسي الشهير فلوبير انــه كتب كلمة ÉNORME كما يلفظها المتشدقون ، اي بزيادة حرف H في اولهــا ، فأضحت HENORME ، واستعملها بهـذا الشكل على سبيل السخر من الذين يلفظونها مضخمة لأتفــه الاسباب . فاقتدى به المؤلف واضاف الحرف H الى كلمة AMOUR فأصبحت HAMOUR ، واعتبر هذه اللفظة غير الحب الحقيقي ... اعتبرها نوعاً من الحب المبتذل الذي يتغنى به التافهون والبلهاء . فرأينا ان نترجم HENORME بـ « فاظييـع » ، و HAMOUR بـ « حوووب » لتأدية فكرة المؤلف .

والخلاصة انه من احقر المنتجات البشرية وأدنسها ، وأشد نجاسة بألف مرة ، وأكثر فظاظة وضرراً من العمل الجنسي الذي يقوم به الرجل ضد العقل والمنطق والوجدان .

ان الحوووب هو مرض اوروبا ، وهستيريا الغرب الكبرى .

كان العرب الاقدمون يصلبون الى جانب القتلى من اعدائهم جثة كلب . ولو كان للحوووب شكل بشري لاحببت ان اصلبه بهذه الطريقة .

●

ولنفتح هلالين .

اعرف رجلاً يخيّل اليه ، كلما جاء الى فرنسا ، انه ضائع كمن يدخل خطأ الى متجر كبير لبيع السلع النسائية ، وفيه طغمة من النساء الثرثارات المتشدقات ، وليس فيه احد سواهن ...

انه يسائل نفسه قائلاً : « ما جئت اعمل هنا ؟ »

منذ سنوات كتبت في احدى مخطوطاتي : « شعب انثوي كشعب فرنسا ... » ثم قلت في نفسي :

« انتبه ! ربما كان التعميم ضرباً من الاعتباط ، وربما كان هذا الرأي ظالماً ... » فشطبت تلك العبارة .

ثم قرأت : « في كل فرنسي شيء من المرأة » . لمن هذا القول ؟ لفولتير . وقرأت : « الدور الذي يقوم به الفرنسيون بين الرجال هو الدور الذي تقوم به النساء في الجنس البشري بامره » . لمن هذا القول ؟ لغوته . ثم قرأت : « على كل فرنسي تهيمن المرأة . ان الفرنسيين شعب يسير على طريق الانحطاط » . لمن هذا القول ؟ لتولستوي .

... ومن دواعي اسفي اني لم اكن ، منذ عشر سنوات ، واثقاً بنفسي كما انا الآن .

●

ولنعد الى موضوعنا .

هذه الدونية المعنوية في المرأة ، وقد اوضحنا بعض ملامحها ، تقترن بعدد كبير من الدونيات الطبيعية والجسدية . وتحت عينيّ الآن كتاب في الطب يشغل منـــه تعداد هذه الدونيات الجاف عشرة اسطر . والمرأة تدرك تماماً هـذه الحقيقة [1] ، دون ان تكون بحاجة الى ان تتذكر الصناديق التي تخصّص في البواخر لتوضع فيها رقاع الحيض ، وقد ُكتب عليها : « الثياب والاشياء المزعجة » .

وكيف لا تعترف بانها من جنس شقي ، مسكين ، بائس ، حين ترى انها هي التي تلتمس دائماً ، وهي التي تحتاج ، وهي التي ترفرف بجناحيها طالبة الطعام كفرخ الطير في العش . وان حاجتها الدائمة الى ان ُتحَبّ ، وتُجامع ، وتُؤخذ بـــين ذراعي الرجل ، لهي مرض حقيقي عضال . ويا لعار هـذا الاستجداء المستمر ، الابدي ، سواءٌ أكان ظاهراً او خفياً ! انـه تسوّلٌ لا ينتهي ابداً ، انمـا يُموّه احياناً بالزينـة والغنج والدلال .

وشعور المرأة بدونيتها يسيطر دائماً على سلوكها ويوجّهه . وهذا سبب

---

١ ـ « من العوامل ، التي سمحت لي بتكوين رأيي في النفسية الفردية ، ما رأيت من مظاهر الشعور بالدونية ، الواعي او غـير الواعي ، لدى جميع النساء وجميع الفتيات الصغيرات لمجرد كونهن اناثاً . ولهـذا الواقع تأثير كبير في حياتهن النفسية ، يجعلهن شديدات الميـل الى التسربل بمظاهر الذكورة ، وإن تكن هذه المظاهر مستترة في بعض الاحيان وراء ملامح نسائيـة في الظاهر . » (ادلر) . ـ المؤلف .

اما ادلر ، صاحب هذا القول ، فاسمه الكامل الفرد ادلر (١٨٧٠ـ١٩٣٧) ، وهو عالم نفساني نمساوي ، وضع دراسة في التحليل النفساني اساسها الطباع .

(ان الابقار يركب بعضها البعض الآخر ، احياناً ، مقلداً الثيران تقليداً أبله ، اذ لا تجد البقرة في هذا التقليد اقل متعة جنسية .) ـ المؤلف .

رغبتها في البلع ، والازدراد ، والمحافظة على ما تملك ، وتكديس المكاسب ، والبحث عن الضمانات ، حتى ليخيّل الى من يراقبها انها في خوف دائم من الافتقار الى شيء ما .

انها لا تعطي إلا الولد ، لكنها لا تعطيه إلا بعد ان تأخذ . ويقول علماء النفس ان حياة المرأة الجسدية تقتصر على التوق الدائم الى هـذا الأخذ الجسدي . ومن هـذا الواقع نشأ هيجانها المجنون في تعلقها بالرجل ، في اصرارها العنيد على التسلل الى حياته ، وفي الحصول على خدماته . فاذا كنتَ في جمهور من الناس ، واحسستَ بأن احدهم يدفعك بقوة ، او يتشبث بك ، فقل انهـا امرأة ، او ولد . فالضعيف الذي يعرف ضعفه يضع قوته كلها في حركة لا تتطلب هذا المقدار من الجهد .

يتعذر علينا ان نفسّر بغير مركّب الدونيّة ما تعانيه جميع النساء تقريباً من الحاجة الفطرية الى تزييف نفوسهن : تزييف طباعهن بمظـاهر الرصانة والحشمة ، تزييف وجوههن بالتبرج والزينـة ، تزييف اجسامهن باساليب عديدة لسنا بحاجة الى سردها ، تزييف رائحتهن بالعطور ، تزييف خطوطهن .

ان الاقوياء لا يكذبون ، وليسوا بحاجة الى تمويه الحقيقـة . وهم صريحون ، بل وقحون ، لما في نفوسهم من الاحتقار للناس .

كان اليونانيون القدامى يقولون : « نحن ارباب الصدق » ، بينما الشعوب الخانعة بطبيعتها ، او المستَعبَدة بحكم قوة طاغية عليها ، لا تستطيع إلا ان تكذب .

ان حاجة المرأة الى استرعـاء الاهتمام بها ، وتظاهرها باحوال نفسية مستعارة ، وحرصها على ان تكون دائماً « مرموقة » ، هي وليدة شعورها بما في شخصيتها من نقص وقلة كفاءة .

اما حاجتها الى التظاهر بالتمتع الجنسي فهي ، في اغلب الاحيان ، نتيجة شعورها بدونيتها الجسدية .

واخيراً ، ليس من النادر ان تُقدم امرأة غريبة الأطوار على تغيير جنسها بعملية جراحيــة ، بينما الرجل لا يرضى بتغيير جنسه مهما يكن غريب الاطوار ، ويأبى ان يصير امرأة على الرغم مما في هذا التغيّر من الاغراء لأنه يعفيه من الذهاب الى الحرب .

●

في هذه الحضارة — حضارتنا — تردد المؤلفات الشعبية والاكاديمية ، وتجتر الصحافة ، والسينما ، والراديو ، شعاراً شهيراً هو : « ما تريده المرأة حاصل لا محالة » ، حتى بات الرجال يصدّقونه ، وهم الذين عملوا منــذ قرون على توطيد سلطان المرأة ، وتقوية دعائمه ، وزيادة سمومه . ولولاهم لما كان هذا السلطان يستحق الذكر .

ان هذه الحضارة تُكره الصبي والرجل على الوقوف مشدوهَين امام المرأة . وهذه مؤامرة كبيرة حاكها الرأي العــام ، وقواعد الاخلاق ، واشياء اخرى عديدة وسطحية تافهة . وعلى هذا الاعتبار نرى المزارع ، وابنته ، وابنه الصغير المسلّح بعصا ، يضربون الحصان ليرغموه على الاتصال بالفرس .

ان القوى الاجتماعية كلهـــا تحالفت فأنشأت منظمة ضخمة تتضاءل دونها دعاية المؤسسات التجارية الكبيرة ، ومزاعم الدول الديكتاتورية . وليست الغاية من حشد هذه الامكانات الجبارة إلا تعزيز مركز المرأة واظهارها بغير حقيقتها .

ولما كانت هذه العبادة الوثنية للمرأة تجرّ الرجل الى التخلي عـــن حريته واستقلاله وكرامته ، وتؤدي الى اقظع انواع الفوضى ، فلا عجب اذا بعثت في النفوس اشمئزازاً شبيهاً بما يخامرنا حين نقرأ اعلان دعـاية لنوع قاتل من الخمور .

ولو كانت النساء على شيء من الأنفة ، او على جانب من رهافـــة الاحساس والذكاء ، لابتعدن عن المنافقين المتزلفين اليهن لغاية في نفوسهم .

ولكان الامر يهون لو استقبلن بالعصا والصفع بمسار البقر المقنّع بوجه مُحاضر، والمنتج السينمائي الذي ينتج سخفاً واسفافاً كما تثمر شجرة التفاح تفاحاً . فالمجاملات الحقيرة التي يلجأ اليها بعض الرجال تمس بشرفهم . وليت المرأة الابية تقول لهم : « اذهبوا في سبيلكم ، ودعوني من خرافة حواء المنتصرة . فلا أمل بالفوز لمن كان له مدافعون من نوعكم . نحن النساء بحاجة الى احترام نستحقه بوصفنا بشراً . اما تظرّفكم الاخرق البغيض فانه يثير فينا القرف ، فنلفظه لفظ النواة » .

ولكن ، يا للاسف ! لا من يقرف ، ولا من يلفظ النفاق لفظ النواة . فأدقُّ النساء شعوراً ، وأرهفهنّ احساساً ، يطلبن المزيد من التفاهة البلهاء .

●

اذا كانت المرأة تبسط سلطانها على الرغم من افتقارها الراهن الى الكفاءة ، وعلى الرغم من عجزها حتى في نطاقها الخاص ، وهو عجز واضح في قصر نظرها ، وضعف قدرها للامور ، وسخافة اساليبها في العمل ، فانما السبب الوحيد في ذلك هو حماقة الرجل .

وتنجم هذه الحماقة جزئياً عن الشهوة الجنسية . فالرجل ، حين يشتهي ، يمدح الشيء المُشتَهى ليحصل على رضاه ، ويضخّم محاسنه ليبرر ما في نفسه من الجشع ومن الضعف الذي يبذله امام الانثى [1] . لكن ليس من المحتم ان تكون الشهوة سبباً لهذه الحماقة ، فالشعوب القديمة ، وشعوب الشرق التي لا يشك احد في شهوة رجالها الى الوصال الجنسي ،

---

١ — وهذا سبب صيحات الغضب التي يطلقها التربيون اليوم في وجه المتنكرين لسيطرة المرأة ، وهم من الرجال . فاظهار فساد هذه السيطرة ، واثبات قيامها على اسس واهية انما يعني ان الذين يؤمنون بها بلهاء . وكم يصعب على هؤلاء السادة ان تنفّس بالونات احلامهم واوهامهم ! — المؤلف .

تضع المرأة في المكان الذي يجب ان تحتله .

وتتجم هـذه الحماقة ، بنوع خاص ، عن رواسب العقائد التي كانت تُطبّق قديماً بشأن المرأة : كالحب المسيحي ، وهو ضرب من التعصّب للزواج ، والحب الفروسي ، والحب الرومنطيقي ، الخ ... (يجب التوسّع في هذا الموضوع) .

ان المرأة تلعب لعبتها ، فلا سبيل الى لومها . فاللوم يجب ان يوجّه الى الرجل لأنه لا يحسن تمثيل دوره ، ولأنـه يذعن لما تفرضه عليـه مخلّفات قرون من عبادة المرأة في الانتـاج الادبي ، ولأنه لا يجرؤ على ان يكون نـيّر البصيرة ، صادق الفكر والقول ، قاسياً في معاملة المرأة ، متحلياً بالقوة التي تسميها المرأة ، ويسميها المتزلفون لهـا : « فظاظة او غلاظة » . وهو يفقد جرأته لما في ذهنه من المفهوم الخاطيء للشرف لأنه متأثر بافكار الآخرين ، او لما فيه من الجبن لأنه يخشى نقمة الرأي العام عليه إنْ هو خالف التقاليد .

والمرأة تعرف هذا الواقع حق المعرفة . وستظل تراوغ ، وتتقلّب ، وتتهرّب ، وتحاول التمويه والتضليل وذر الرماد في العيون ، ما لم توضع بالقوة امام حقيقتها كما يَمْثُلُ المحتضر امام الموت .

من واجب الرجل الاوروبي المعاصر ، اذاً ، ان يكون « فظاً غليظاً » في الحب ، اذا شاء ان يحيا حياةً يقرها العقل والمنطق . وعليه ان يقطع بجرأة جميع العقـد الغورديّة [1] التي تعقدها المرأة . وهذه صعوبات ليست

---

١ ـ يُروى ان فلاحاً يونانياً يدعى غورديوس اصبح ملكاً لأنه وصل الى المدينـة على مركبة بعد ان كانت العرّافة قد تنبأت بان اول من يصل على مركبة سيجلس على العرش ، فكرّس للاله تلك المركبة التي ساعدته على بلوغ هـذا السلطان ، وشد النير الى العجلة بعقدة فنية لم يستطع احد اكتشاف طرفيهـا لحلها ، لان احدى العرّافات كانت قد تنبأت بان من يحل هـذه العقدة يصبح امبراطوراً على آسيا . ولم يحاول اسكندر المقدوني حلّ هذه العقدة ، بل ضربها

صعبة بالحقيقة . وعليه ان يقاوم مـا في نفسه من الميل الى السير على الطرق الموحلة ، او الملغومة التي تدعوه المرأة اليها ، وان يقابل بحزم واستخفاف منظّم كل مـا في المرأة مـن التعقد ، والتسامي المريض . وليقلع عـن اختراع واجبات سخيفة يفرضهـا على نفسه لمصلحة المرأة ، بدافع شهوته الجنسية . فهذه واجبات لا اساس لها من المنطق والحقيقة . وليتخلص من تأثره المصطنع السطحي بما يسمونه « ظرافة وملاطفة » . وما عليه إلا ان يردد كلما انتابه الضعف : « اذا كان المخلوق البشري جديراً بالاحترام ، فمن حق المرأة ان تكون محترمة ، لا اكثر . ولا حق لها بـ « نوع خاص » من الاحترام . ولا مبرر لمعاملة المرأة معاملة تختلف عن معاملة الرجل » .

على الرجل القوي ان يقابل بلامبالاة متصلبة ، حقيقية او مصطنعة ، هذه الغمرة من الزيف الارعن ، ومظاهر السمو الفكري الكاذبة ، ومثالية الخلوات الدافئة ، والحووب الذي اصبح لياقة اجتماعية ، وهذه التمثيليات الرخيصة المتجـددة كل يوم وقد شوّهت الفضيلة الحقيقيـة ... فالفضيلة تصبح ضرباً مـن التمثيل في مفهوم المرأة . وعلى الرجل ان يهزأ ويمرح ويغتبط ، حين تعتبره المرأة جلفاً او علجاً ، لأنـه يدرك عندئذٍ انهـا عاجزة عن ادراكه .

والخلاصة يجب فضح مساوىء الحووب ، والتحرر مـن المرأة مـا دامت الحاجة اليها غير ضرورية .

وبعد الوصول الى هـذا الحد نرى ان المرأة لا تتوقف عـن المجيء الينا ، وربما جاءتنا بمزيد من القوة والرغبة . وعلى هذا فلا بأس اذا اخذ الرجل المرأة المجذومة بين ذراعيه ، فتمتع بها وجاد عليها بالمتعة ، شريطة

= بالسيف فشطرهـا ، فانحلت . فذهب عمله مثـلاً في من يعالج المعضلات بقوة السلاح .

ان لا تنتقل اليه عدوى الجذام .

ولماذا لا يسخو على المريضة ؟ أليست قطة مسكينة بين القطط الاخرى ؟

لن يخلوَ الكون ، حيال هذا التصرف الحصيف ، من كافر عتيق متصلّب ينظر اليك باستغراب نظرة تقي ورع يراك تأكل لحماً وزفراً يوم الجمعة العظيمة .

ولن يخلو الكون من خنزير ذكر يزمجر : « ما كان اجمل عهد الفروسية والحب العذري ! » اما انت فعليك ان تذكر ما في التاريخ من فروسيات اخرى ، كالفروسية اليونانية في حقبة من العصر القديم ، والفروسية العربية في العصر الجاهلي ، وفروسية الفرس في عصر الشاهنامة[1] او عصر بهارستان[2] ، والفروسية الالمانية بما فيها من شعائر تقديس الابطال ، والفروسية اليابانية وأقطابها الساموراي[3]. وجميع هذه الفروسيات حقيقية الى ابعد ما في الحقيقة من مدى ، اعني انها موصومة كلها بروح الفروسية السقيم ، وان المرأة لم تقم في واحدة منها باقل دور[4]. ولا ننس ان الله ايضاً لم يقم بدورٍ ما في هذه الفروسيات ، وهذا ما يجدر بنا ان نلاحظه بعناية .

---

١ ـ ملحمة في اخبار ملوك فارس واساطيرهم من بدء التاريخ الى الفتح العربي . تتالف من ٦٠ الف بيت شعر . نظمها الفردوسي المتوفي عام ١٠٢٠ . نقلت الى العربية والى لغات اخرى عديدة .

٢ ـ معنى هذه اللفظة الفارسية : الربيع ، وهي عنوان كتاب لعبد الرحمن الجامي تحدث فيه عن الاخلاق ، وسرد سير كبار شعراء الفرس مع مختارات من شعرهم .

٣ ـ طبقة المحاربين في النظام الياباني القديم ، قبل عام ١٨٦٨ .

٤ ـ ولا دور للمرأة ايضاً في الفكر العسكري ، وفكر الكشافة ، والفكر الرياضي ، وهي من الافكار التي تحتوي في ايامنا على بعض الاثر من شعور الفروسية . ـ المؤلف .

اما الذين يمزقون ثيابهم حنقاً وينبحون لدى سماعهم هذه الكلمات : « انه يكفر... انه ينتهك القدسيات » ، فلهم نقول اننا لا نحقّر الحب ، بل صورته الكاريكاتورية ، وهي الحوووب . اننا نجل حب ذوي القربى ، والحب البنوي ، والصداقة الحقيقية ، وحتى حب « الله » ، وحب الانسانية كما نراه في بعض النفوس السامية . ونجل ايضاً الشعور الذي يُعتبر انعكاساً ضئيلاً للحب ، ولا سبيل الى مقارنته به . ومن انواع هذا الشعور المودّة العقلية بين التلميذ ومعلمه ، وعطف الرئيس على المرؤوس ، وعواطف رفقة السلاح او رفقة المغامرات ، واهتمام المربي بتلميذه ، وحتى الاحساس الذي يضعه الرأي العام في مرتبة أحط ، كصداقة الانسان لكلبه ، او لحصانه . فهذه عواطف انبل بكثير من الحوووب ، واجدر بالاحترام منه .

●

لا يتحقق التقدم بمساعدة النساء ، بل على الرغم منهن (...) فالعلم ، والعقل ، والعدالة ، وافضل تراث الجنس البشري مهددة بوصول المرأة الى السيطرة على العالم .

اميال[1] (في مذكراته)

لا بأس اذا كان ما قلناه في هذا الكتاب قد قيل من قبل مرات عديدة . فليكن هذا الاعتبار مسيئاً الينا على الصعيد الادبي ، اذا كان مفيداً للقضية التي نناضل في سبيلها .

ان الحضارة التي عرضنا بعض ملامحها ليست حضارة جزيرة الاوهام ،

---

١ - هنري فريدريك اميال (١٨٢١-١٨٨١) كاتب سويسري ، خلف مذكرات تدل على قلق عميق ، وعلى نظرة ثاقبة الى خفايا الامور .

بل كانت خلال آلاف السنين حضارة العالم القديم الذي انهال عليه المديح من القرون التالية ، دون ان ينتبه المادحون الى « ان جميع الاعمال العظيمة التي عرفتها العصور القديمة قد تحققت لانها استمدت قوتها من وقوف الرجل الى جانب الرجل . وليس بين النساء واحدة تستطيع الادعاء انها ، بالنسبة الى الرجل ، هدف الحب الاقرب والاعلى ، او انها غاية الحب الوحيدة » . هذا ما قاله نيتشه [1] .

اننا نعجب بالحكمة الآسيوية ، ونمتدح عظمتها ، إلا اننا ننسى ان

---

١ ـ وقال نيتشه اكثر من ذلك :

« ان الخطأ في تحليل المسألة الاساسية القائمة بين الرجل والمرأة ، ونكران التناقض العميق بينهما ، وتجاهل التوتر العدائي الابدي الذي يفصل احدهما عن الآخر ، وتعليل الأمل باحتمال المساواة بينهما في الحقوق ، والتربية ، والطموح ، والواجبات ، لهي من الادلة النموذجية على سخافة التفكير وسقمه . فالرجل العميق التفكير ، والعميق الرغبات ، والعميق حتى في عطفه وسخاء نفسه ، يستطيع احياناً ان يكون شديد القسوة والتصلب (...) ولا يتسنى له ان يكوّن عن المرأة إلا الفكرة التي يكوّنها عنها الشرقيون (...) ، وعليه ان يستمد وجهة نظره ، في هذا الشأن ، من الفكر الآسيوي العظيم ، ومن تفوّق الغريزة الآسيوية ، كما فعل اليونانيون في العصور الخوالي ، وقد كانوا افضل ورثة للآسيويين ، واعظم تلامذة لهم ـ فهؤلاء اليونانيون ، (...) منذ عصر هوميروس الى عصر بيريكليس ، سايروا التقدم ، والثقافة ، وانماء القوى الجسدية ، والقسوة على المرأة جنباً الى جنب . وكانت قسوتهم على المرأة تزداد امعاناً في انتهاج الاساليب الشرقية » .

وهذا تقريباً ما قاله نابوليون بونابرت حرفياً في جزيرة القديسة هيلانة : « نحن ، في الغرب ، افسدنا كل شيء بمعاملة المرأة معاملة حسنة اكثر من اللزوم . اخطأنا خطأً فادحاً اذ جعلناها في مستوانا تقريباً . فشعوب الشرق اشد منا حنكة ، واوسع دراية ، لانها اعتبرت المرأة ملكاً للرجل . والواقع ان الطبيعة جعلت النساء عبدات رقيقات . وما زعمن انهن سيدات مسيطرات علينا إلا من خلال فساد تفكيرنا وخطل نظرتنا الى الحياة » .

« المكان الذي يشرق منه النور » هو الذي لا تشغل فيه المرأة سوى مهمة جنسية صرف .

روى الجامي قول النبي العربي الكريم : « اذا وقع الرجل في الشك ، فعليه ان يستشير امرأته ليعمل نقيض ما توعز بعمله [1] » .

ليس لنا سوى الفي عام من حضارتنا المختلفة عن الحضارة الشرقية المستمرة منذ آلاف السنين ، ناهيك بان حضارتنا مقتصرة على جزء من العالم ، اي على اوروبا والعالم الجديد ...

ربما نظرت الاجيال المقبلة الى عصر سيطرة المرأة الحالي كأنه من عصور التخلف كما ننظر نحن اليوم الى العصور التي كان يسيطر فيها الكاهن . فالحوووب سيندثر كما اندثرت المسوخ الحيوانية التي عاشت قبل التاريخ . ومفهوم الزواج العصري القائم على مظاهر التسامي ، وعلى التهيّج الارعن ، وتكسير رأس الرجل بالواجبات ، سيبدو للاجيال المقبلة غريباً مذهلاً كما يبدو مخيفاً في نظرنا اقتران الاخوة باخواتهم ، او البغاء المقدس في احدى الحضارات القديمة .

ومن المحتمل ألّا تدوم فترة العافية الانسانية إلا ردحاً من الزمن ، فالحضارات مريعة الزوال بطبيعتها كالانظمة السياسية . وسيبقى عدد الحماقات البشرية كبيراً كما هو الآن ، فاذا قضينا عليها هنا ، نبتت هناك كالدمامل . ولو شئنا تعداد البلاهات المتوالية التي ارتكبها الانسان في

---

١ – يبدو ان المحاولات التي بُذلت في الاتحاد السوفياتي لوضع شيء من الانسجام بين الزوج والزوجة قد اخفقت كلها . وليس مرد هذا الاخفاق الى ان المحاولات المبذولة مناقضة لسنة الطبيعة ، كما يعتقد المفكرون . فنجاح الدين المسيحي يدل على ان ما هو مناقض لسنة الطبيعة يستطيع النجاح . – المؤلف .

اما الحديث الشريف المشار اليه فقد ورد بالنص التالي : « شاوروهنّ وخالفوهنّ » ، لا كما نقله المؤلف .

تاريخه لكتبنا لائحة طويلة تثير الدهشة . إلا اننا نقع احياناً ، بين دمّلين ، على فترة من الراحة . واذا كانت الحضارة التي لا تسيطر فيها المرأة فترة من الراحة لا غير ، في مرض الدمامل المصابة به كرتنا الارضية ، فمن دواعي فخرنا اننا من الذين اشاروا الى هذا الواقع .

●

كان كوستال يقرأ هذه الصفحات ، التي فرغ من كتابتها ، من فوق كتف امرأة ، امسكت بها بيديها العظميتين ، ملقية مرفقيها على عظام ردفيها ، وهي مصرية الملامح ، لأن امها مصرية ، وكبيرة الشبه بالتماثيل الاثرية المنتشرة في وادي النيل . كانت من « الجنس الدنس » ، كما يقولون .

قال لها بسرور :

— أليست هذه هي الحقيقة ؟ اعترفي بان في هذه الكتابة اجادة وابداعاً .

ثم قبّلها ، قبّل جمجمتها تحت شعرها . وكانت لهذا الشعر ثلاث روائح مختلفة : رائحة في قمة الرأس ، ورائحة في الصدغين ، ورائحة في جوار الجبهة .

واستطرد قائلاً :

— اجل ، انك حقاً من الجنس الدنس !

وبعد سكوت استأنف يقول :

— على كلٍّ ، اشكرك لأنك لم تسأليني بعد : « لماذا تكتب اشياء لا تؤمن بها ؟ »

اجابت :

— لم اسألك ذلك لأني لم افكر بانك لا تؤمن بما تكتب . غير اني اعترف لك بانك اذهلتني .

– اني اؤمن ايماناً مطلقاً بكل ما جاء في هذه الصفحات . وقد رسخ هذا الايمان في نفسي منذ ان بدأت اختبر الناس . إلا انه يبدو لي اني استطيع ان أتبنّى ، بكل صدق واخلاص ، رأياً مناقضاً لهذا الرأي ، وان ابادر الى العمل في سبيل اظهار عظمة المرأة . ويخيّل اليّ احياناً اني ...

وتوقف عن الكلام برهة ، ثم قال :

– اسمعي ، سأروي لك قصة : كان في احدى المدارس صبي يضطهده احد اساتذته اضطهاداً مستمراً ، ويتحامل عليه تحاملاً بغيضاً . وذات يوم ، في اواخر السنة المدرسية ، في شهر حزيران ، استدعى الاستاذ ذلك الصبي ، فجاء هذا مشرئب الرأس كالديك ، متوتر الاعصاب نقمةً ، وقال لاستاذه :

– اعتقد انك ما استدعيتني إلا لتجد عليّ مأخذاً جديداً .

فأجابه الاستاذ :

– لا ، بل استدعيتك لأني سأغادر المدرسة نهائياً ، ولن يتسنى لأحدنا ان يرى الآخر بعد اليوم . وأود ان اقول لك اني ما اضطهدتك إلا لأني احببتك حباً عظيماً . اما الآن فهات يدك لأصافحها ، ثم اذهب في سبيلك .

فتصافحا ، وافترقا ، وتمت نبوءة الاستاذ ، فما تسنى لاحدهما ان يرى الآخر بعد ذلك اليوم .

فسألته المرأة الشابة ، وقد عقدت حاجبيها :

– ما معنى هذه الحكاية ؟

– أليس معناها واضحاً ؟

وكانت قد أدارت وجهها اليه وهو جالس خلفها ، فراحت تبحث في عينيه ككل امرأة حقيقية لتعلم أتستطيع الاطمئنان اليه ، وليس

لتفهم شيئاً آخر .

اما هو فكان ابداً يبتسم لأشياء اخرى .

تمت

قصة « الصبايا »

باجزائها الاربعة .

Montherlant

Les lépreuses

Texte traduit en arabe
par
Georges MASROUA

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth

Henry de Montherlant
Les lépreuses

